بناء الشخصية في نثر أبي العلاء المعري

إعداد

فاطمة حسن حسين السراحنة

المشرف

الأستاذ الدكتور جاسر أبو صفية

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة في

اللغة العربية وآدابها

كليةالدراسات العليا

الجامعة الأردنية

كانون الثاني، ٢٠٠٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة في يوم الأحد بتاريخ ٩/ ١٢ /٢٠٠٧

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيع
الدكتور جاسر خليل أبو صفية أستاذ- الأدب الأموي	(مشرفاً)	
الدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي أستاذ- الأدب العباسي والفاطمي والأيوبي والمملوكي والعثماني	(عضواً)	
الدكتور ياسين يوسف عايش أستاذ مشارك- الأدب العباسي	(عضواً)	
الدكتور محمد إبراهيم حور أستاذ- الأدب العربي ونقده – الجامعة الهاشمية	(عضواً)	

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع
التاريخ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

من نور أعينكم قرأت اول ما قرأت الحروف والكلمات وعرفت معنى الحقيقة، وتلمست معالم الطريق وأدركتُ كنه الوجود.

إلى أمي وأبي تحية إجلال

الصديق الصدوق والصاحب الرفيق الذي ما زال لوقع كلماته عظيم الأثر في حياتي، فرآني معلمة فاضلة ورأيته فيلسوفاً عالماً

زوجي تحية ودّ

مصدر سعادتي ومن يمنحني التصميم والإرادة إلى من أعتزّ بهم جميعاً، وأحملهم في قلبي نقشاً أزلياً

إخواني وأخواتي وصديقتي خلود فريد

إلى من عانتا كثيراً في غيابي، فتاهت الأمومة وعظمت الطفولة

إليهما أهدي جهدي المتواضع الذي لولاهما لما كان .

إليكما ملاكي الصغيرتين سديل وليان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكر وتقدير

أوجه خالص شكري، وعظيم تقديري إلى الأستاذ الدكتور جاسر أبو صفية صاحب القلب الكبير، الذي رافق البحث منذ كان فكرة إلى أن أصبح كلمة، كما أشكر له عظيم لطفه وسعة صدره وأخلاقه النبيلة، وأتمناه أبداً أستاذاً وأباً عطوفاً.

كما أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى لجنة المناقشة: الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي، والدكتور ياسين عايش، والأستاذ الدكتور محمد حور لتفضلهم بمناقشة هذه الرسالة.

وأعبر عن امتناني العميق للدكتورة ثناء عياش الأستاذة في الجامعة الهاشمية.

وما توفيقي إلا بالله

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

قرار لجنة المناقشة ب
الإهداء ج
شكر وتقدير د
المحتويات هـ
الملخص باللغة العربية ح
المقدمة ١
التمهيد ٦

أولاً: مفهوم الشخصية في: معجم لسان العرب والوسيط، وعلم النفس وعلم الاجتماع..... ٧

ثانياً : الشخصية في الأدب..... ٨

ثالثاً : طرق تقديم الشخصية في الأدب وأنواعها ١١

رابعاً : دور عناصر السرد في بناء الشخصية ١٣

الباب الأول: نماذج من الشخصيات في نثر المعري الحكائي ١٧

توطئة: في نثر المعري ١٨

الفصل الأول: الشخصية الأدبية ٢٠

أولاً : الشخصية الأدبيّة في رسالة الغفران ٢١

ثانياً: الشخصية الأدبية في رسالة الصاهل والشاحج..... ٤١

الفصل الثاني: الشخصية الرمزيّة ٤٧

أولاً : الشخوص الرمزيّة في رسالة الصّاهل والشاحج..... ٤٨

ثانياً: الشخوص الرمزية في رسالة الهناء..... ٥٨

ثالثاً: الشخوص الرمزيّة في القائف ٦١

رابعاً: الشخوص الرمزية في الفصول والغايات ورسالة التعزية لابن أبي الرجال ٦٥

الفصل الثالث: الشخصية الاجتماعية ٧٠

أولاً: الشخصيّة الاجتماعية في الصاهل والشاحج..... ٧٠

ثانياً: أصحاب الملل والنحل والزنادقة في رسالة الغفران ٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا: أصحاب الملل والنحل في كتاب زجر النابح (مقتطفات) ٩٢

رابعاً: المرأة الأرضية في رسالة الغفران ٩٥

خامساً: أصحاب العاهات في رسالة الأخرسين ٩٩

الفصل الرابع: الشخصية العجيبة ١٠٢

أولاً: الشخصية العجيبة في الغفران ١٠٢

ثانياً: الشخصية العجيبة في رسالة الملائكة و رسالة الشياطين ١١٦

الباب الثاني: بناء الشخصية ١٢٣

الفصل الأول: أنواع الشخصيّة من حيث البناء ١٢٤

أ- شخصيات رئيسية وثانوية وهامشية ١٢٤

ب-الشخصيات التراثية ١٢٦

ج-الجماعات في المجالس ١٣٣

الفصل الثاني: بناء الشخصية ودور عناصر السرد ١٣٧

أولاً: البناء الخارجي ١٣٧

أ- لفظة الشيخ في تقديم شخصيّة ابن القارح: ١٣٧

ب-تغييب عزيز الدولة ١٣٨

ج- الأسماء وسيلة لتقديم الشخصيّة ١٤٠

د- الدعاء وسيلة لتقديم الشخصيّة ١٤٥

ثانياً: بناء الملامح الداخلية ١٤٧

أ-التداعي وسيلة لتقديم الشخصيّة ١٤٧

ب-الشخصيات واستشراف المستقبل ١٥٣

ج- الحوار والشخصية ١٥٧

د- الشعر وسيلة لتقديم الشخصيّة ١٨٠

هـ-المكان والشخصيّة ١٨٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً: كيفية تقديم الشخصية ١٩٧

الراوي: ١٩٧

الخاتمة ٢١٠

قائمة المصادر والمراجع ٢١٤

الملخص باللغة الإنجليزية ٢٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بناء الشخصية في نثر أبي العلاء المعري

إعداد

فاطمة حسن السراحنة

المشرف

الأستاذ الدكتور جاسر أبو صفية

الملخص

سعت هذه الدراسة إلى قراءة الشخصية في نثر المعري، وبيان نماذجها، وإلى تقديم صورة عن طبيعة بنائها فنياً.

وقد تكونت الدراسة من مقدمة وتمهيد وبابين، وقد أشارت المقدمة إلى موضوع الدراسة ومسوغاتها ومنهجيتها وأهميتها، والأهداف التي يُرجى تحقيقها والدراسات السابقة، وعُني التمهيد بدراسة مفهوم الشخصية وبنائها، كما اهتمت بمسّ الشخصية الأدبية في العصر العباسيّ مساً خفيفاً دون الإفاضة، وأشارت إلى الأوضاع السياسية والاجتماعية التي كانت تمهيداً لعصر المعري، دون إغفال الأوضاع الذاتية التي كان لها عميق الأثر في أدبه ككل.

واشتمل الباب الأول على أربعة فصول، عُنيت جميعاً بدراسة نماذج الشخصيات التي اشتمل عليها أدب المعري الحكائي، وكشفت عن طبيعة المضامين، ونظمت تلك الشخصية بالتحليل والدرس والنقد في عناوين بارزة:

الشخصية الأدبية، والشخصية الاجتماعية، والشخصية الرمزية، والشخصية العجيبة.

وتناول الباب الثاني في فصليه بناء الشخصية في نثر المعري الحكائي، وطرق رسمها وتقديمها وعلاقتها بالراوي، ودور عناصر السرد في بنائها.

وخلصت الدراسة إلى أن الشخصية في نثر المعري الحكائي وليدة البيئة والعصر المليء بالتناقض، واستطاع المعري بها أن يقدم رؤيته الخاصة بعرض شخصيته التي تعد منطلقاً لفكرته.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

خضع مفهوم الشخصية الى دراسات عديدة: نفسية، واجتماعية، وأدبية، فحاولت تلك الدراسات أن تفسر ماهيتها وعلاقتها بالمحيط.

ولعل ما حظيت به الشخصية من اهتمام مرده إلى أنها المحرك الرئيسي للأحداث، وبفعلها تتفاعل الشخصيات فتصور الواقع، وتوغر النفوس، وتتصارع وتتصافى، وتتأزم الأحداث، ويزدحم المكان بها فيؤنس، بل تعيش الزمان وتواكب مجرياته وتغيراته.

ومن الواضح أنّ دراسة الشخصية في النص التراثي تحمل بُعداً مختلفاً، إذ لكلّ زمن خصوصية، وقد أتاح نص المعري بتنوعه استكناه الشخصيات، فبدت متفاعلة مع الأحداث السائدة.

واقتصرت هذه الدراسة على تناول نصوص المعري الحكائية: أي التي بُنيت بناءً حكائياً من بُداءتها إلى نهايتها: كرسالة الغفران، والصاهل والشاحج، والجزء الحكائي في رسالة الملائكة، وتعدت الدراسة هذه إلى نصوص اشتملت الحكاية في نص غير حكائي، ومن ذلك: رسالة الأخرسين، ومقتطفات من زجر النابح، ورسالة الهناء، ومقتطفات من القائف المستقاة من كتاب " إحكام صنعة الكلام" للكلاعي، والفصول والغايات، ورسالة التعزية لابن أبي الرجال، ومقتطفات من رسالة الشياطين، وقسم من الأخبار المعروضة في الردّ على ابن القارح في رسالة الغفران والخاص بالمدّعين والمرائين والزنادقة. وهكذا فقد استبعدت الدراسة الرسائل غير الحكائية كالمنيح والإغريض والرسائل المتبادلة مع داعي الدعاة وغيرها من الرسائل، وقد عنيت الدراسة بتعريف عدد من الرسائل النثرية للمعري، تبعاً لصلتها بالموضوع؛ فالرسائل الحكائية قُدِّم لها في المتن، أما الرسائل الأخرى فقد عُرّف بها أحياناً في المتن أو الحاشية أو لم يعرّف لقلة أهمية ذلك.

وقد انفتحت هذه النصوص جميعاً على نماذج إنسانية في مختلف بُناها الفكرية والجسدية، كما أنها عبّرت عن طبيعة الحقبة التاريخية، فتنوعت ما بين شخصيات أدبية كما في رسالة الغفران، وقد ابتعدت الدراسة عن تسميتها بالشخصيات التراثية؛

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك أن ابن القارح – الشخصية المحورية – كان ما يزال حياً حينما كتب المعري رسالته في الردّ عليه، ولذلك اضطرت الدراسة إلى تسمية النوع الأول من الشخصيات بالشخصيات الأدبية.

وكذلك فصلت الدراسة الشخصية الرمزية عن الشخصية العجيبة؛ لأن الشخصية الرمزية تمثلت بالقصّ على لسان الحيوان، أو التي استقاها من عالم الحيوان لأخذ العظة والعبر، وكانت تلك الشخصيات مجالاً خصباً للمعري للتعبير عن فئات دنيا مهمشة، وفئات عُليا متسلطة ومستبدة، كما كانت ساحة رحبة للبحث عن المسكوت عنه، أما الشخصية العجيبة فهي المستمدة من العالم الآخر والمرتبطة بالمأثور الذي نؤمن به، ويتمثل بالملائكة والجن والشياطين، واتخذ منها المعري نافذة لينعتق بها من عالم الواقع القاسي شديد الوطأة.

من ثم لم تهتم الدراسة في عرض الشخصيات بالتدرج التاريخي لرسائل المعري بقدر اهتمامها بفرض الشخصية نفسها ضمن النماذج المقترحة، فكانت الشخصية الأدبية أوضح في الغفران، والشخصية الرمزية والاجتماعية أوضح في الصاهل والشاحج، والعجيبة أوضح في الغفران والملائكة وهكذا.

أما غاية هذه الدراسة فتسعى إلى الإجابة عن السؤال الآتي: كيف بنى المعري شخصياته القصصيّة في الغفران والصاهل والشاحج والملائكة؟

وقد تفرع عن هذا السؤال محاور أخرى وهي:

١- ما نماذج الشخصيات المعروضة في نثر المعري الحكائي؟

٢- هل مثلت الشخصيات الحقبة التاريخية التي تنتمي إليها؟

٣- وهل أسهمت عناصر السرد في بناء الشخصية؟

ولم اقف على دراسة انفردت بالحديث عن بناء الشخصية في نثر المعري، إلا أنّ دراسات كثيرة ركزت على الإشارة إلى عصر المعري والأوضاع السياسيّة والاجتماعية والاقتصادية، وانعكاس أثرها على نثره الفني ، كما لم تغفل الدراسات الحديث عن ملامح فنية ميزت تلك الرسائل ، ومن تلك الدراسات: كتابا طه حسين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"**تجديد ذكرى أبي العلاء**" و"**مع أبي العلاء في سجنه**" وقد اشتملا على إشارات نقدية لغير رسالة متخذاً من شخصية المعري مصدراً من مصادر دراسته، واهتمت دراسة عائشة عبدالرحمن "**الغفران لأبي العلاء المعري**" برسالة الغفران والكشف عن إشاراتها ودلالاتها، ومقارنتها بنصوص أخرى، نثرية، ، وعُني يسري محمد سلامة في كتابه "**النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري**" بصورة المجتمع في أدبه ونقده السياسي والديني ووجد فيه إنساناً غيوراً على الإسلام، إلا أن اهتمامه انصب على شعره لا على نثره، ومن تلك الدراسات أيضاً دراسة حسين الواد الموسومة "**بالبنية القصصية في رسالة الغفران** " ركزّ فيها على أدب الرحلة في تلك الرسالة والمنطق السردي فيها، وعرض للراوي ووجهات النظر، كما أشار الى الشخصيات وكثرتها في تلك الرحلة. وقد أشار عدنان عبيد العلي في دراسته "**المعري في فكره وسخريته**" إلى بواعث السخرية في أدب المعري، ووجد أن نقده الساخر كان استجابة لنزعة تقويمية وغايات إصلاحية، وركز العلي على شعر المعري إضافة إلى بعض الإشارات النقدية في نثره.

ومما سبق يتضح أنه لا توجد دراسة مستقلة مستفيضة ومنفصلة تُعنى ببناء الشخصية في نثر المعري الحكائي، إلا أن الدراسات تناولت الحديث عن الشخصيات ضمن التركيز على قضايا مختلفة كما أسهمت الدراسات التي اهتمت بحياة المعري في إضاءة جوانب عديدة في مضامين نصوصه النثرية. وتناولها بالنقد والتحليل، ولا يغفل هنا كثرة الكتب التي تحدثت عن أدب المعري (شعره ونثره)، وقد عادت الباحثة إلى معظمها، ولكنها أفادت منها وفق حاجة الدراسة، ومن تلك الكتب مثلاً: حكيم المعرة لعمر فروخ، والحياة الأدبية في الشام لعبدالجليل عبدالمهدي، وملامح النثر العباسي لعمر دقاق، ونواحي التجديد والتقليد في نثر أبي العلاء لسليم الجندي.

وفرض موضوع الدراسة منهج تضافر المعارف، فأفاد البحث من الدراسات المختلفة التاريخية والاجتماعية والنفسية والسيمائية والثقافية وتحليل الخطاب أو أي منهج يُعنى بالشكل المضمون.

واهتمت الدراسة بجميع النصوص المتعلقة بها، كالغفران، والصاهل والشاحج، والملائكة، ورسائل المعري القصار، كما اشتملت على كتب التراث اللغوي والمعجمي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من مثل: لسان العرب، ذلك أن لغة المعري تستأهل الوقوف والتفسير، إضافة إلى كتب التراجم الخاصة بالأدباء، وكتب المثل ودلالته وتوظيفه في النص، وكتب الجغرافيا التي تحدد الأماكن كمعجم البلدان، وكتب التاريخ التي تُعنى بتأطير الحقبة التاريخية والظروف الاجتماعية كزبدة الحلب، والكامل في التاريخ، والبداية والنهاية، وحاولت الدراسة نسب بعض الأبيات لأصحابها قدر الطاقة، لأن هذا الأمر يرتبط بالتحقيق، واجتهدت الدراسة بعد جمع النصوص المختلفة أن تخضعها للشرح والتحليل وصولاً إلى الغاية وهي الإجابة عن الأسئلة السابقة.

وتتكون هذه الدراسة من تمهيد وبابين اشتمل الباب الأول على أربعة فصول، والباب الثاني على فصلين ، وخاتمة. درس التمهيد مفهوم الشخصية في المعاجم القديمة والحديثة، ودلالتها في علم النفس والاجتماع، والشخصية في الأدب وطرق بنائها، ودور عناصر السرد في بنائها.

واشتملت الفصول الأربعة الأولى على نماذج الشخصيات في نثر المعري الحكائي، فتمثلت في الشخصية الأدبية، التي مثلتها في شخصية ابن القارح في الغفران ومن التقاهم من أدباء في الجنة والجحيم.

أما الفصل الثاني فقد تحدث عن الشخصية الرمزية ودلالتها، وتجلت في رسالة الصاهل والشاحج، ورسالة الهناء ورسالة القائف، وبدرجة اقل في الفصول والغايات ورسالة التعزية لابن أبي الرجال.

وتحدّثت الدراسة في فصلها الثالث عن الشخصية الاجتماعية في الصاهل والشاحج وفئات المجتمع من رجال ونساء وأطفال ويهود وتفاعلهم مع الأحداث ممثلة في الجفلة، وتوقفت عند أصحاب الملل والنحل والزنادقة في الغفران وتأثيرهم في الناس، وأشارت إلى الفئة المظلومة ممثلة بأصحاب العاهات في رسالة الأخرسين وغيرها.

وعني الفصل الرابع بالشخصيات العجيبة في الغفران ورسالة الشياطين، فظهرت ممثلة بامرأة متحولة وأدباء متحولين، وحيوانات منقلبة إلى هيئات أخرى، إضافة إلى دور الملائكة والجن في مجريات الأحداث.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحدّث الباب الثاني في فصليه عن بناء الشخصية، مبيناً أنواع الشخصية من حيث البناء، إذ تعددت الشخصيات الفرعية، وظهرت البطولة المتفردة، وناقش بناء الشخصية ودور عناصر السرد؛ إذ تداخلت تلك العناصر في بناء الملامح الخارجية والداخلية، وقد ركز هذا الفصل على النصوص الكبرى الحكائية ممثلة في الغفران والصاهل والشاحج والملائكة.

أما الخاتمة فقد تضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، إذ طمحت هذه الدراسة إلى إضافة ولو بسيطة في إماطة اللثام عن الشخصية في النص الحكائي المعري ضمن الجهود النقدية.

وبعد فلا يسعني في نهاية هذا الاستهلال إلا أن أتقدم بأعمق مشاعر العرفان والتقدير للأستاذ الدكتور جاسر أبو صفية الذي تولى الإشراف على هذه الرسالة، وكان لتشجيعه ومتابعته أكبر الأثر في إنجازها، آملة أن أكون قد وفقت في إضاءة الشخصية في نثر المعري الحكائي، كما أقدم جزيل شكري للأساتذة: الأستاذ الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي، والأستاذ الدكتور محمد حور، والأستاذ الدكتور مصطفى عليان، الذين كان لرأيهم السديد كبير الأثر في إنارة الطريق وتحقيق الهدف، كما أخص بالشكر الدكتور ياسين عايش الذي رافق البحث مذ كان مشروعاً وأصبح فكرة.

والله ولي التوفيق

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التمهيد

أولاً: مفهـــوم الشخصـــية فـــي: المعـــاجم القديمـــة ، والمعـــاجم الحديثة، وعلم النفس وعلم الاجتماع.

ثانياً : الشخصية في الأدب .

ثالثاً : طرق تقديم الشخصية في الأدب وأنواعها.

رابعاً : دور عناصر السرد في بناء الشخصية :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً: مفهوم الشخصية في: معجم لسان العرب والوسيط، وعلم النفس وعلم الاجتماع" :

لم ترد كلمة الشخصية في المعاجم العربية القديمة ، إلا أن المعاجم اشتملت على كلمة " شخص " ، و"الشخص : سواد الإنسان وغيره تراه من بعد " ج : أشخص ، وشخوص ، وأشخاص ... والشخص : جماعة شخص الإنسان وغيره"[١]. و"كل جسم له ارتفاع وظهور ، والمراد به إثبات الذات فاستعير لها لفظ الشخص "[٢].

أما الشخصية في المعجم الوسيط فهي " صفات تميز الشخص عن غيره، ويقال فلان ذو شخصية قوية : ذو صفات متميزة ، وإرادة وكيان مستقل "[٣].

وجدير بالذكر أن مصطلح شخصية يعود إلى الكلمة اللاتينية المتداولة في العصور الوسطى " **PERSONA** " ، وتشير إلى القناع الذي يلبسه الممثل على المسرح ،فالممثل اليوناني كان يضع عادة على وجهه قناعاً يدعى "بيرسونا" لأنه كان يتحدث من ورائه ؛ وذلك " ليخلع على نفسه ثوب الدور الذي يمثله ، أو ليظهر أمام الأعين بمظهر معين خاص"[٤].

وحظيت الشخصية باهتمام واضح من علماء النفس والاجتماع ، فحاولوا تعريفها، ومن تلك التعريفات القريبة إلى مفهوم الشخصية في الأدب "ذلك التنظيم المتكامل الديناميكي الذي يتميز به الفرد ، وتتكون من التفاعل المستمر والمتبادل بين المنظومات النفسية والاجتماعية"[٥].

وهكذا ، فإن الشخصية ليست ثابتة بل متغيرة ، وهي عادة تتأقلم مع مواقف الحياة المتغيرة ، كما أن تبدلها وتغيرها ينشأ غالباً مع الزمن .

---

[١]- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، (لسان العرب: مادة شخص).

[٢]- نفسه ، مادة شخص .

[٣]- مصطفى، إبراهيم، وعبدالحليم منتصر، عطية الصالحي، و محمد خلف الأحمد، المعجم الوسيط، ص٤٧٥.

[٤]- إسماعيل، محمد عماد الدين، الشخصية والعلاج النفسي، ص ٦ .

[٥]- داود، عزيز حنا، الشخصية بين السواء والمرض، ص ١٠-١١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد بيّن" سيجموند فرويد " أن الشخصية تتكون من ثلاثة تركيبات هي : ألهي " **I D** " ، والأنا " **E G O** " ، والأنا الأعلى " **SUPER EGO** " وأوضح أن هذه النظم الثلاثة ليست أجزاء منفصلة داخل العقل ، ولكنها مرتبطة وممتزجة ببعضها[١].

فالهي منبع الطاقة الحيوية والنفسية والغرائز ، وهي الصورة البدائية للإنسان قبل أن يهذبه المجتمع ، " والأنا " مركز الشعور والإدراك الحسي: الداخلي والخارجي، والمشرف على الأفعال الإرادية ، أما " الأنا الأعلى " فهي السلطة الداخلية أو الرقيب النفسي ، ويتكون من المثل والمعايير والقيم التي يقدمها المجتمع[٢].

ويهتم الطب النفسي باضطراب الشخصية بين السواء والشذوذ ، ويشخص الأمراض النفسية: ذهانية أو عصابية، ثم يصف العلاج[٣].

أما علم الاجتماع فقد عني بدراسة الشخصية بوصفها نتاجاً اجتماعياً، ويتناول المستوى الاجتماعي من الشخصية كثمرة لمجتمع وثقافة ما . ويرى أحد علماء الاجتماع أن الشخصية "تنظيم يقوم على عادات الشخص وسماته ، وينبثق من العوامل البيولوجية والاجتماعية والثقافية "[٤].

ثانياً : الشخصية في الأدب:

تُعدُّ الشخصية في الأدب أساس الحدث وعماده في البنية القصصية ، فالحدث "هو الشخصية وهي تعمل "[٥].

وتتفق التعريفات الأخرى للشخصية في الأعمال الأدبية على أنها مدار الأحداث ومجريات الوقائع ، وعنصر فعال في السرد ، فالشخصية الأدبية " أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة أو المسرحية "[٦].

١- عبدالرحمن، محمد السيد، نظريات الشخصية، ص ٤٧ .

٢- نفسه ، ص ٤٧ .

٣- سفيان، نبيل، المختصر في الشخصية والإرشاد النفسي، ص ١٥ .

٤- فراج، عثمان لبيب، أضواء على الشخصية والصحة العقلية، ص ١١٢ .

٥- رشدي، رشاد، فن القصة القصيرة، ص٣٠ .

٦- وهبه، مجدي، كامل المهندس، معجم المصطلحات النقدية في اللغة والأدب، ص ٢٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجدير بالذكر أن النقاد يوردون الشخصية في الأعمال التراثية باسم النموذج وهذا ما يتفق معه البحث في تعريف الشخصية، و"النموذج من بني الإنسان ، فرد من أفراد الهيئة الاجتماعية ، تغلب عليه صفة نفسية أو مادية ما ، تميزه من حيث الدرجة لا من حيث النوع من غيره من بني الإنسان، ويظل هذا النموذج ...مشتركاً مع غيره في صفات الإنسان وأحاسيسه ونوازعه ومدركاته ، حتى أنهم يشركونه في الصفة التي تجعل منه نموذجاً دون أن يساووه في الدرجة "[١].

وهكذا فإن النموذج الإنساني في الأدب إذاً " تقديم صورة متكاملة الأبعاد الجسمية والنفسية والاجتماعية لشخصيه أدبية ، بحيث تتمثل في هذه الشخصية مجموعة من الصفات كانت من قبل مطلقة في عالم التجريد الذهني ، بعيدة من عالم الحواس أو كانت متفقة في مختلف الأشخاص "[٢] .

وقد دعا أرسطو منذ القديم إلى جعل النماذج في الشعر التراجيدي أكثر وضوحاً مما هو في الواقع المألوف " وبما أن المأساة محاكاة لأناس أفضل منا ، فعلينا أن نتبع طريقة مهرة الرسامين : فهؤلاء حين يريدون تقديم صورة خاصة من الأصل يرسمون صورة أجمل من الأصل ، وإن كانت تشابهه وهكذا حال الشاعر ، فإذا حاكى أناساً شرسين، أو جبناء أو فيهم نقيصة من هذا النوع في أخلاقهم فعليه أن يجعل منهم أناساً ملحوظين فيما هم عليه ".[٣]

وقد درجت السرديات الكلاسيكية " على شحن الشخوص بالإيهام قصد خلق التمويه بينها كتقنية أو كموضوع ، وبين الكائنات البشرية الواقعية الحية ومن أهم الأنماط السردية التي عمقت هذا الإيهام : السيرة الذاتية والرواية التاريخية فيتعامل القارئ فيها مع الشخصية على أنها كائن بشري يتحرك بلحمه ودمه على الورق ،

---

[١]- السعافين، إبراهيم، أصول المقامات، ص ١٤٤ .

[٢]- عبدالحميد، علي عبدالمنعم، النقد الأدبي، ص٤٥

[٣]- أرسطو طاليس، فن الشعر، ترجمة عبدالرحمن بدوي، ص١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى أن الكاتب هو السارد الذي يحكي عنها دون تدخل مباشر وأحياناً تحكي عن نفسها " ضمير المتكلم ""[١].

وقد قسم سعيد يقطين الشخصيات في الحكاية الشعبية إلى بنيات كبرى تمثلت في الشخصية المرجعية والتخيلية والعجيبة ، أما الشخصية المرجعية فتلك التي استقاها الراوي من عوالم نصية أخرى ، وتمتاز بأنها محددة الملامح ، في حين رأى أنّ الشخصية التخيلية هي التي لا يجد القارئ لها اسماً محدداً تاريخيا، لذلك فإن ملامحها واقعية ، أو هي تلك المستقاة من واقع التجربة . [٢]

ولعل من أهم صفات الشخصية العجيبة الأسطورية اتصالها بخصائص وصفات " ما يمكن أن نطلق عليه امتلاك القابلية للتحول الجسماني ، وما ينشأ عنه من نتائج معنوية للشخصية المتحولة من وجهة وللمتلقي أو الشاهد المتلقي من وجهة أخرى"[٣].

وهكذا فإنّ الشخصية الحكائية تتعدد ، وذلك بتعدد القراء واختلاف تحليلهم، ويعد "البنائيون هذا ميزة من مزايا التحليل الذي يأخذون به في نظرهم يجعل المحكي غنياً بالدلالات مادام يرفض الأحادية التي تفرضها المناهج التقليدية ذات الأساس الاجتماعي أو السيكولوجي"[٤] .

ثم تتمثل وظيفة الأديب في إبداع الشخصية ، ويعدُّ تصوير البعد النفسي للشخصية "هو أعقد ألوان التصوير الفني ، وأعسرها منالاً ، ويحتاج من الأديب طبعاً مواتياً ، وخيالاً خصباً ، وملكة خالقة، وبراعة في التصوير فائقة، حتى يستطيع إقامة التوازن بين الألوان ، والتركيز على اللفظة الدالة ، والاكتفاء باللمحة الموحية ، وعلى قدر براعة الأديب ومقدرته التصويرية يكون نجاح الشخصية النموذج وإخفاقها ، وتفاوت درجات هذا النجاح أو الإخفاق" [٥].

---

[١]- الصميلي، حسن، الرواية المغربية وأسئلة الحداثة، ص ٢١٩ – ٢٢٠ .

[٢]- يقطين، سعيد، قال الراوي ، البنيات الحكائية في السيرة الشعبية، ص ٩٩ .

[٣]- مرتاض، عبدالملك، "ألف ليلة وليلة "دراسة سيميائية تفكيكية لحكاية حمال بغداد"، ص ٨١ –٨٢ .

[٤]- لحمداني، حميد، بنية النص السردي في منظور النقد الأدبي ، ص ٥١ .

[٥]- عبدالحميد، علي عبدالمنعم، النموذج الإنساني في أدب المقامة ، ص٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتعدد وظائف الشخصية في الأدب ، فهي يمكن أن تكون "عنصراً تزويقياً أو العنصر القائم بالحدث أو الناطقة بلسان المؤلف ، أو كائناً بشرياً خيالياً مزوداً بكيفية معينة في الوجود وفي الإحساس وفي إدراك الآخرين والعالم "[١].

ثالثاً : طرق تقديم الشخصية في الأدب وأنواعها :

لعل أبسط طرق تقديم الشخصية هي الطريقة التي اتبعها الأدباء القدماء والتي تتمثل في إيراد وصف جسدي لها وموجز عن حياتها . [٢]

ويوجد مقياسان لمعرفة الطريقة التي قدمت بها الشخصية ، المقياس الكمي والنوعي، وينظر في النوع الأول إلى " كمية المعلومات المتواترة المعطاة صراحة حول الشخصية "[٣]، أما المقياس الثاني فيحدد " مصدر تلك المعلومات : هل تقدمها الشخصية عن نفسها مباشرة أو بطريقة غير مباشرة عن طريق التعليمات التي تسوقها الشخصية الأخرى أو المؤلف، أو فيما إذا كان الأمر يتعلق بمعلومات ضمنية يمكن أن يستخلصها عن سلوك الشخصية "[٤].

إن الكاتب ينحو إلى الطريقتين المعروفتين في بناء الشخصية ، الأولى تحليلية مباشرة (الخارجية)، والثانية تمثيلية غير مباشرة (الداخلية)، وهو فيها يُنحّي نفسه بعيداً " ليتيح للشخصية أن تعبر عن نفسها ، وتكشف جوهرها بأحاديثها وتصرفاتها الخاصة، وقد يعمد إلى توضيح بعض صفاتها عن طريق أحاديث الشخصيات الأخرى وتعليقها على أعمالها "[٥].

وتتكئ الطريقة الأولى على رسم الشخصية من الخارج، فالكاتب "يعقب على بعض تصرفاتها ويفسر بعضها الآخر ، وكثيراً ما يعطينا رأيه فيها صريحاً دونما التواء"[٦].

---

[١]- بورنوف، رولان، و ريال أوئيليه ، عالم الرواية ، ترجمة نهاد التركي، ص١٤٣ .

[٢]- لودج، ديفيد، الفن الروائي، ترجمة ماهر البسطومي ، ص ٧٨.

[٣]- موير، إدوين، بناء الرواية ، ترجمة إبراهيم الصيرفي : ص٢٢٤ .

[٤]- نفسه، ص ٢٢٤ .

[٥]- نجم، محمد يوسف، فن القصة ، ص ٩٤ .

[٦]- نفسه، ص ٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يطلق على الطريقة التي يتم فيها تصوير الشخصية بالإخبار والعرض ، ويتمثل الإخبار: بإدراج معلومات مباشرة عن الشخصية ، فيتدخل الراوي بصورة مباشرة ويتذكر ما تتصف به علانية ، أما العرض فيبتعد القصصي عن الشخصية ، وذلك لإمعان الفكر والتأويل لسبر أغوارها [١].

وقد تصنف طرق التشخيص على أنها تفسيرية لأنها وصف للشخصية يقوم المؤلف أو شخصية أخرى بالحديث عنها ، أو تشخيصية درامية ، وفيها يظهر الشخص في أفكاره المسجلة أو تحركه ، وعلائقه بالشخصيات الأخرى، والكاتب لا يخبر عن رأيه فيها [٢].

وعلى الكاتب أن يجعل شخصياته نابضة بالحياة ، لا أن تكون مثل قطع الشطرنج يحركها حسب مزاجه وتفكيره[٣]. وسرد صفاتها والتعليق عليها أمر غير مرغوب فيه، والأفضل أن يصور هذه الشخصية وهي تعمل، ومن هذا التصوير تدرك صفات الشخصية المختلفة[٤].

ويرتكز الكاتب على أبعاد مختلفة لإلقاء الضوء على نماذج شخصياته ، ومن تلك الأبعاد : البعد الجسمي الذي يصورها جسدياً، والبعد الاجتماعي الذي يركز فيها على طبقتها الاجتماعية التي تنتمي إليها وعلاقتها مع مجتمعها الداخلي والخارجي ، وثقافتها التي تنتسب إليها. ويعتمد البعد النفسي على طبائعها النفسية وحالتها الانفعالية، وأثر الأحداث ودورها في ذلك، وتصوير آرائها وأفكارها وردودها تجاه آراء الأخرين[٥]، ويكشف البعد الأيدلوجي عن الملامح الأيدلوجية وأثرها في تحديد وعي الشخصية وموقفها[٦].

---

[١]- ألين، أوليتبرند، ، ولويس ليزلي ، الوجيز في دراسة القصص، ترجمة عبد الجبار المطلبي : ص: ١٣٣.

[٢]- نفسه، ص ١٣٣ .

[٣]- جيمس، هنري، نظرية الرواية في الأدب الإنجليزي الحديث ، ترجمة انجيل بطرس: ص ١٧٣

[٤]- قباني، حسين ، فن كتابة القصة، ص ٨ .

[٥]- مريدن، عزيزة، القصة والرواية ، ص ٢٩ .

[٦]- الماضي، شكري، فنون النثر العربي الحديث ، ص ٣٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجدير بالذكر أن فورستر قسم بناء الشخصية من حيث الأنواع إلى مسطحة وأخرى معقدة ، والشخصيات المسطحة أو ذات المستوى الواحد أو الثابتة هي الشخصيات البسيطة في صراعها غير المعقدة، التي تُرسم في أنقى أحوالها وتدور حول فكرة واحدة من بداية النص حتى نهايته ، فالكاتب يقدمها لنا دفعة واحدة حين تظهر جاهزة بصفاتها وسماتها مما ييسر للقارئ توضيحها بجملة واحدة[١].

أما النامية فقد سماها فورستر المدورة ، يقول " أما الشخصية المدورة فتكمن قيمتها في قدرتها على الإدهاش والإقناع ، فإن لم تدهش بتاتاً فهي مسطحة ، تتعاظم وتتضاءل وتحمل مظاهر تجعلها تشبه كائناً بشرياً ما "[٢] ، ولا تعني سطحية الشخصية عدم قيامها ببعد مهم في بعض الأحيان[٣].

وتقوم الشخصية المحورية أو الرئيسية بأعمال مهمة في كل قصة ، " فهي تحرك الأحداث وتدفعها لتتأزم ، وقد تعكس في بعض الأحيان فكر الكاتب ومذهبه ، أو قد تكون الشخصية صورة مستوحاة من المؤلف، وتعمل الشخصيات الرئيسية مع الثانوية ، وقد تمثل الشخصيات الثانوية آراء الكاتب "[٤].

وتبقى الشخصية النامية واضحة الأبعاد ، وتتغير أفكارها بتقدم الأحداث ، وهي تأخذ حقيقتها من ذاتها فتنمو وتتحرك وفق الأحداث، وتظهر الحركة في أقوالها وأفعالها، كما تفسح المجال للتفاعل مع الأحداث بينها وبين العالم التخيلي و"تتمع بأبعاد وصفات عاطفية وانفعالية وفكرية متعددة" . [٥].

رابعاً : دور عناصر السرد في بناء الشخصية :

جدير بالذكر أن دراسة الشخصية بأبعادها المختلفة لا يمكن أن تكون إلا بالنظر إلى عناصر السرد جميعها ، وتعد العلاقة بين عناصر السرد والشخصية متلازمة ،

---

[١]- فورستر، أ.م، أركان الرواية، ترجمة موسى عاصي: ص ٥٤ .

[٢]- نفسه ، ص ٥٥ – ٦١ .

[٣]- نفسه ، ص ٥٥ .

[٤]- هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي، ص ٥٦ .

[٥]- عبدالله، عدنان خالد، النقد التطبيقي التحليلي مقدمة لدراسة الأدب، ص ٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشخصية ركن أساسي ورئيسي في العمل الأدبي، كما تؤثر في سير الأحداث، فعناصر السرد المختلفة توظف لخدمة الشخصية الحكائية.

ويُعد **المكان** الإطار الذي "تدور فيه الأحداث، وتتحرك فيه الشخصيات"[١]، ويتخذ المكان قيمته ودلالته المختلفة سياسية واجتماعية وتاريخية بارتباطه بالشخصية، فتاريخ الإنسان وحياته غالباً ما يرتبط بأمكنة ما، ويؤثر فيهم .

ويشكل المكان مرآة حقيقية لطباع الشخصيات التي تقطنه، فحياة الشخصيات تفسرها طبيعة الأمكنة التي يرتبط بها[٢] وقد يوصف المكان وصفاً معبراً عن سمات الشخصيات، وهو عادة ما يطلق عليه بالمكان النفسي، ويقصد به المكان المصور من خلال خلجات النفس، وتجلياتها، وما تحيط بها من أحداث ووقائع [٣].

و يفرض المكان سطوته على الناس الذين يذهبون إليه، كما يحتوي المكان الاجتماعي على "خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه، ولذا فشأنه شأن أي نتاج اجتماعي آخر يحمل جزءاً من أخلاقية ساكنيه وأفكارهم ووعيهم".[٤]

ويمثل **الزمان** "واحداً من أهم المقولات الأساسية في تجربة الإنسان"[٥]، فبمرور الزمن يمكن لقارئ الحكاية أن يكشف عن تغير الشخصية وانفعالها تجاه المتغيرات.

وفيما يتعلق بحركة الزمن والشخصية في الحكاية، فقد يتشكل بالعودة إلى الماضي، "استذكاراً يقوم به لماضيه الخاص، ويحيلنا من خلاله على أحداث سابقة عن النقطة التي وصلتها القصة"[٦]، أو باستشراف المستقبل، ويتم فيه القفز على مدة ما من

---

[١]- مريدين، عزيزة، القصة والرواية، ص٣٠.

[٢]- القاسم سيزا، بناء الرواية، ص ١١٤-١١٥.

[٣]- النابلسي، شاكر، جماليات المكان في الرواية العربية، ص١٦.

[٤]- النصير، ياسين، الراوية والمكان، ص١٦.

[٥]- كنعان، شلوميت ريمون، التخييل القصصي والشعرية، ترجمة لحسن إحمامه ، ص٦٩.

[٦]- بحراوي، حسن، بنية الشكل الراوئي، ص١٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

زمن القص، وتروي أحداثاً سابقة عن أوانها أو يمكن توقع حدوثها أو التطلع إلى ما سيحصل من مستجدات[١].

ويُسهم **الوصف** مع العناصر الأخرى في الكشف عن الشخصية ومعرفة دواخلها، وللوصف وظيفة تفسيرية تلقى ظلالاً تفصيلية على حياة الشخصية النفسية، وبيان أسباب سلوكها عن طريق وصف بنية الشخصية ومكوناتها. [٢]

ويكون **للحوار** أيضاً دور واضح في تكوين الشخصية، وهو من الأركان المهمة في تصويرها ، ويتحدد الحوار الناجح حينما يصور الصراع في الشخصيات، وحينما يتمكن الكاتب "من التعبير عن هذا الصراع في حواره، كان الحوار أقوى وأجود من الناحية الفنية".[٣]

ويأتي الحوار على ضربين: خارجي وداخلي، أما الأول فهو الأكثر انتشاراً في القص، وتتناوب فيه شخصيتان أو أكثر ضمن إطار المشهد بشكل مباشر[٤]، أما الحوار الداخلي فهو نقل كلام توجهه الذات إلى نفسها، وهو حوار يسعى الكاتب به إلى "تقديم المحتوى النفسي والعمليات النفسية في المستويات المختلفة للانضباط الواعي، أي لتقديم الوعي".[٥]

في حين يتولى **الراوي** وظيفة التصوير والمراقبة "فيمهد لخطاب الشخصيات لكي يتهيأ للعمل الأدبي أن يظهر من خلاله"[٦]

وتظهر وجهة نظر الراوي ضمن أنماطٍ عدة، فقد تكون معرفته كليه، وهو فيها يملك "حرية الحركة والتنقل بين مختلف عوالم الشخوص القصصية، وله القدرة على رؤية وإخبار وحجب ما يراه وما يسمعه القارئ إضافة إلى ذلك يمتلك حرية التعليق

---

[١]- بحراوي، حسن، بنية الشكل الراوئي، ص١٣٢

[٢]- القاسم سيزا، بناء الرواية، سيزا القاسم، ص٨١

[٣]- مريدن، عزيزة، القصة والرواية ، ص٥٤.

[٤]- عبدالسلام، فاتح، الحوار القصصي وعلاقاته السردية، ص٤١.

[٥]- همفري، روبرت، تيار الوعي في الرواية الحديثة، ترجمة محمود الربيعي، ص٤٩.

[٦]- الغانمي، سعيد، أقنعة النص، ص١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على تصرفات الشخوص وتفسير تصرفاتهم"[١]، ويضر مثل هذا الراوي في لعبة الإيهام. [٢]

أو قد تكون معرفة الراوي كلية محايدة، فيلجأ إلى ضمير الغائب، ويكون تدخله غير مباشر، أو قد يظهر دوره بضمير المتكلم، فالراوي يختلف في هذا الموقف عن الشخصية، أو قد يظهر كمشارك باستخدام ضمير الأنا؛ إذ يتساوى في هذا الموقف الراوي مع الشخصية الرئيسية. [٣]

[١]- عبدالله، عدنان خالد، النقد التطبيقي التحليلي، ص٨٦.

[٢]- غنايم، محمود، تيار الوعي، ص٥٥.

[٣]- بارت، رولان، مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص، ترجمة منذر عياش، ص٧١ وما بعدها. ويقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي، ص١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الأول

نماذج من الشخصيات في نثر المعري الحكائي

ويشتمل على:

توطئة في نثر المعري

الفصل الأول: الشخصية الأدبية

الفصل الثاني: الشخصية الرمزية

الفصل الثالث: الشخصية الاجتماعية

الفصل الرابع: الشخصية العجيبة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توطئة: في نثر المعري

شكلّت أعمال المعري النثرية الحكائية نسقاً سردياً متمايزاً، إذ احتكمت في أساسها إلى بنية لغوية خاصة في صياغتها ونظمها؛ فهي من الأعمال التي جمعت عِدة فنون في الرسالة الواحدة، إذ تتضمن إضافة إلى بنائها الحكائي: الحكم، والأمثال، والنوادر، والأشعار، كما تشتملُ على أبعادٍ عِدّة أخلاقية إصلاحية واجتماعية تربوية، وترتكز في جُلّها على تهذيب السُّلطان والعناية بأحوال الراعي والرعية، كما تطرح بُعداً نقدياً خاصاً بالأدب ومسائله المختلفة؛ ولذلك فإن أعماله وما تثيره من قضايا يومية بسيطة، وأخرى عجيبة تنتمي إلى العالم الآخر تختفي وراءها قضايا كبيرة إضافة إلى التجربة الذاتية الخاصة التي تُعدّ من أهم ما تعالجه تلك الأعمال.

ومن الجدير بالذكر أنّ أعمال المعري النثرية كثيرة، ذكرها ياقوت الحموي، وعَدّ كتابه "ديوان الرسائل" مشتملاً على جُلّ أعماله النثرية وهو يقع في أقسامٍ ثلاثة:

أولهما: رسائل طويلة تجري مجرى الكتب المصنفة مثل: "رسالة الملائكة، و"الرسالة السنديّة"[١]، و"رسالة الغفران"، وغيرها.

وثانيهما: رسائل دون تلك في الطول مثل "رسالة المنيح ورسالة الإغريض".[٢]

وثالثهما: رسائل قصار كتلك التي تجري به العادة في المكاتبة. [٣]

---

[١] – نسبة إلى سند الدولة أبي محمد الحسن بن محمد بن ثعبان الكتامي الجَمْيُليّ، وكان أهله من وجوه كتامة، وكان والياً لحصن أفامية، وهو الذي كتب إليه المعري الرسالة السندية في مجلد واحد . (ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، ١/١٩٥).

[٢] – رسالة المنيح والإغريض: رسالتان وجههما المعري إلى شخص واحد، وهو الوزير أبو القاسم المغربي، مدحه فيهما، وأشار إلى حوادث تاريخية وطرف أدبية وضمنهما مسائل في النحو والصرف والعروض، وقد كتبهما قبل رحيله إلى بغداد. (المعري، رسائل أبي العلاء، تحقيق عبدالكريم خليفة، ١/٣-١٢٦).

[٣] – تعريف القدماء بأبي العلاء، مجموعة من المؤلفين، إشراف طه حسين، ص١١١. وجدير بالذكر أن تلك المكاتبات جُمِعَت في النوعين الثاني والثالث في مصنف حمل عنوان رسائل أبي العلاء، وقد تصدّى لتحقيقه غير باحث من مثل المستشرق مرجليوث، وعبدالكريم خليفة، وإحسان عباس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشرح المعري ما غَمُض من رسائله في مصنف وضعه خصيصاً لهذا الغرض بعنوان "خادم الرسائل"، وهو من الكتب الأخرى التي لم تصل إلينا، وقد وصفه الحموي بقوله: "كتاب خادم الرسائل في تفسير ما تضمنته هذه الرسائل مما يحتاج إليه المبتدئون في الأدب".[١]

وتنوعت رسائل المعري في موضوعاتها، ففيها المدائح والتعازي والتهاني والوصف، وتشتمل على تصوير للمجتمع، وفيها وعظ وزهد وأدب.[٢]

ولعل هذا البحث سيرتكز على الرسائل الطوال التي بُنيت بناءً قصصياً كرسالة الغفران والصاهل والشاحج، والملائكة، إضافة إلى الأخبار المبنية بناءً قصصياً كما في الجزء الثاني من رسالة الغفران في الردّ على ابن القارح[٣]، أو تلك الرسائل غير القصصيّة التي اشتملت على نصوص قصصية قصيرة رمزية معبِّرة كما في رسالة الهناء، والفصول والغايات وغيرها من الرسائل التي تقع ضمن المكاتبات.

ولعل من الأسلم منهجياً ألا نتحدث عن أعمال المعري بوصفها عملاً مستقلاً فنيّاً كالفنون الحديثة بمصطلحاتها الفنية، كالقصة، أو الرواية الطويلة، أو المسرحية، فقد أخذت أعماله من كل تلك الفنون بنصيبٍ، من هنا فإنّ أعماله النثرية تتميز بملامح بنيوية واضحة المعالم فيها بُعد سردي حكائي واضح، وآخر درامي مسرحي.

وفيما يلي عرض للشخصيات التي تجلت في نثره:

---

[١] – حسين، طه، تعريف القدماء بأبي العلاء، تحقيق مصطفى السقا وعبدالسلام هارون، ص١١١.

[٢] – عبدالمهدي، عبدالجليل، الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري، ص٤٥٣.

[٣] – سترد ترجمته لاحقاً.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

الشخصية الأدبية

مما لا شك فيه أن المعري استلهم تلك الشخصيات من التراث، وهي شخصيات حقيقية وليست مبتكرة أو خيالية، وحمّلها مخزونه الفكريّ والثقافيّ، وهو حينما ركن إليها في أدبه حاول إعادة إنتاج تصرفها من جديد لتتناسب والحدث، إذ خضعت تلك الشخصيات الأدبية لمنطق السرد القصصي وخصائصه حتى وإن كانت حقيقية مستمدة من التاريخ، وأضحت تلك الشخصيات في الجنة في رسالة الغفران تتصرف وفق الحدث الجديد.

والتراث بطبيعته دائم التشكل، وجوهره في حراك مستمر؛ فهو خاضع لعملية إبداع دائمة[١]، وبهِ يتفاعل الحاضر مع الماضي لصالح التغيير الاجتماعي فيسهل رؤية الحاضر في الماضي ورؤية الماضي في الحاضر[٢]؛ فالاستلهام من التراث لا يعني شيئاً دون "الارتباط الوثيق بينه وبين الواقع المعاصر في حياة الفنان وحياة شعبه وأمته كلها بل الإنسانية جمعاء"[٣].

ثم إن الشخصيات تُعدُّ قوالبَ جاهزة، ومحددة سلفاً فتلك الشخصية تحيل على النص الثقافي بأبعاده المتعددة، وتكون الشخصيَّة التراثية الأدبية محفوظة في ذاكرة المتلقي بمواقف متميزة، وهي قابلة للاشتغال باعتبارها رموزاً لحالات حياتية مشابهة، فطرح الاسم التاريخي ضمن النص يجعلنا نقوم باستحضار الإطار الفضائي الذي يحتوي قصة ذلك الاسم[٤].

ومما يسترعي الانتباه إتكاء المعريّ في نثره على أنماط عديدة من الشخصيات الأدبية المستقاة من التراث. وقد أسهمت تلك الشخصيات بدور كبير في تنمية السياق

---

[١] – جدعان، فهمي، نظرية التراث، ص ٣٧.

[٢] – حنفي، حسين، التراث والتجديد، ص ١٦.

[٣] – شكري، غالي، التراث والثورة، ص ٢٢٦.

[٤] – بنكراد، سعيد، سيميولوجية الشخصيات الروائية (رواية الشراع والعاصفة)، ص ١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المكتمل بمغزى يرتبط بالحياة المعيشية في الحقبة الزمنية التي شهدها المعريّ، فالشخصية التي استدعاها تمثل منطلقاً فكرياً يوافق روح الحدث؛إذ إنها تتفاعل مع الحدث في رسالة الغفران، ولم تبق على هيئتها في الدار العاجلة، فتتجاوز كثيراً مما عرف عنها تاريخياً؛ فتلك الشخصيات تثير تجاربها الخاصة أو الجماعية وترقى بها إلى تجلية اللحظة الراهنة بكل أبعادها. ولعل من أبرز تلك الشخصيات التي ارتكز عليها الخطاب المعريّ: الشعراء، والنحويين، واللغويين، والرواة، والنساخ.

أولاً : الشخصية الأدبيّة في رسالة الغفران :

تقوم رسالة الغفران على رحلةٍ خياليّة بناها المعري، وأسندَ بطولتها إلى ابن القارح[1]، وقد سيّرهُ إلى جنةٍ وجحيم تخيلهما مستنداً في تقديمهما إلى الموروث الديني المتمثل في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وقصة المعراج، وجعل ابن القارح يتنقلُ في الجنان من مكان إلى آخر، وأجرى بينهُ وبين أدباء الجاهلية والإسلام حواراً لغوياً أدبياً؛ وبذلك فقد اشتملت الرسالة على قضايا أدبية ونقدية ونحوية وصرفية.

وفي تلك الرحلة الأخروية يتحدّث ابن القارح عمّن صادفهم من مثل ندامى الفردوس، وينطلق بعد ركوبه نجيباً من نجب الجنة فيلتقي عدداً كبيراً من الشعراء شاعرٍ يجالسهم. وينتهي مجلس الأدباء والغناء بنزاعٍ بين بعض الشعراء فيفضّ ابن القارح بينهم، وينتقل بعد ذلك إلى جنة العفاريت فيلتقي بالجن ويستمع لأشعارهم، ويسألهم أسئلة حول ما رويَ عنهم من أشعار، فيسمع منهم الأعاجيب. ويصل إلى أقصى الجنة فإذا بالحطيئة في كوخ حقيرٍ والخنساء تنظر إلى أخيها صخرٍ في الجحيم، ويرى ابن القارح إبليس وبشاراً وامرأ القيس وعنترة وغيرهم من الشعراء،ويدخل معهم في حوار ومناقشة أدبية تتصف بالعمق والطول.

---

[1] – ابن القارح : علي بن منصور بن طالب الحلبيّ الملقب دوخلة، ويعرف بابن القارح. ويكنى أبا الحسن، وهو شيخ من أهل الأدب في بغداد، يحفظ قطعاً من اللغة والأشعار قؤوماً بالنحو، كانت معيشته من التعليم بالشام ومصر. ويجرى شعره مجرى شعر المعلمين، قليل الحلاوة خالياً من الطلاوة. (الحموي، أبو عبدالله ياقوت الرومي (ت٦٢٦هـ)، معجم الأدباء، ٤/ ٣٣١-٣٣٤).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يلبث أن يعود بعد أن ملّ المكوث بينهم إلى الجنة، فيلتقي آدم -عليه السلام- ويسأله عما نسب إليه من شعرٍ. ويمرّ بأبيات ليس لها سموق (علو وارتفاع) أبيات الجنة فإذا بها جنة الرّجاز، فيلتقي شعراءها، ويتصف اللقاء بينهم بالتنافر وينتهي بنزاع؛ لأن ابن القارح يصف شعرهم بالسفساف من القريض.

وحظيت رسالة الغفران بأهمية كبيرةٍ، وعدّت في باكورة الأعمال الأدبية؛ إذ إنّها "أول قصة خيالية عند العرب"[١]، ولم يستطع الذهبي إغفال مقدرة المعري الأدبية في رسالة الغفران إذ يقول: "وله رسالة الغفران في مجلدٍ واحدٍ، قد احتوت على مزدكةٍ واستخفاف وفيها أدب كثير".[٢]

أ-ابن القارح محطّ السخرية وبؤرة الاهتمام :

يمثل ابن القارح في الغفران الأنساق الثقافية لزمن المعري، ويتجلى فيه روح العصر، فبعرض تلك الشخصية التي عاصرها المعريّ تمركزت الشخصيات المشهورة في اللغة والأدب من حقب زمنية مختلفة.

ويُسرف الراوي في عرض الشخصيات الأدبية في الغفران، وسيلة للتعريف بالعصر وأنساقه المعرفية متمثلة بابن القارح الذي استطاع المعريّ بتقديمه أن يُمثل حالة من الوعي المأزوم بواقع الانحطاط في سؤال التأخر في الأدب والسياسة؛ ففي إطار الواقع الثقافي يثير المعري المشكلات الكامنة في عمق هذا التراث؛ إذ قامت فكرة الغفران على مواقف واضحة وآراء كثيرة، وأسئلة عديدة يلقيها ابن القارح على شخصيات أدبية ثانوية، ويختبئ وراء تلك الإجابة -عادة المعري- المتضمنة رأيه في القضايا النقدية والأدبية، كما في تعريفه الشعر بأنه "كلامٌ موزونٌ تَقبَلُهُ الغَريزةُ على شَرائِط، إن زادَ أو نَقصَ أَبَانَهُ الحِسُّ".[٣]

---

[١] – حسين، طه، تجديد ذكرى أبي العلاء، ص٢٢٤.

[٢] – حسين، طه، تعريف القدماء بأبي العلاء، ص١٨٩.

[٣] – المعري، رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبدالرحمن، ص٢٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي موقف الحشر يشير ابن القارح إلى اهتمام العرب بنظم الشعر، فيقول: "كُنَّا في الدار الذاهبةِ نَتقرَّبُ إلى الرئيس والملكِ بالبيتين أو الثلاثةِ، فنجدُ عِنده ما نحبُّ"[١]

ويُظهر موقفه من الرجز حينما اختار للرُّجاز مكاناً لا يصل إلى ارتفاع الأماكن الأخرى في الجنة، يخاطبهم ابن القارح بغرور واضح، قائلاً: "أقسَمتُ ما يَصْلحُ كلامُكم للثناءِ، ولا يَفضُلُ عن الهناءِ، تَصُكُّونَ مَسامِعَ المُمتدَح بالجَندَل، وإنّما يُطْرَبُ إلى المَندل، ومتى خرجْتم عن صِفَةِ جَمَلٍ. تَرْتُونَ له من طولِ العَمل، إلى صفةِ فَرسٍ سابحٍ، أو كلْبٍ للقَنَص نابحٍ، فإنكم غيرُ الراشدين".[٢]

أما أسئلتهُ حول الشعر الذي قالهُ الشعراء فهي كثيرةٌ جداً، ومن ذلك مثلاً سؤاله لعنترة: "فما أَردْتَ* بالمَشُوفِ المُعْلَم*: الدِّينارَ، أم الرِّداءَ؟ فيقولُ: أيَّ الوَجْهَين أرَدْتَ فهوَ حَسَنٌ ولا يَنْتَقِضُ".[٣]

وتميزت شخصية ابن القارح بحرية الحركة تجاه محيطها مما يبلور الشخصية وأبعادها وفلسفتها الخاصة، ويستحضر ابن القارح الشخصيات المتعاقبة المختلفة بمخزونها الثقافيّ داخل النصّ السردي؛ فقد كان ظهور الشخصيات مرتبطاً بما يشغل ذهنه، فهو محبٌّ للاستطلاع كثير التطفل، ومن هنا فإن السؤال والنظر "يشتغلان كمحركين أساسيين للبناء السرديّ، وإن لم يكن بالضرورة أن ينفتحا على الإجابة بقدر ما ينفتحان على التوريةِ والتلغيز".[٤]

أما ظهور ابن القارح فقد بدا واعياً مقصوداً، كما يُعدّ المدخل الرئيسيّ لتتابع سلسلة من الشخصيات ذات الأنساق الفكرية المختلفة، فابن القارح يقوم بتنظيم الشخصيات وظهورها، فبمجرد أن يخطر في ذهنه أحدهم يجده ماثلاً بين يديه.

---

[١] – المعري، رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبدالرحمن، ص٢٥١

[٢] – نفسه، ص٣٧٧. الهناء: ضرب من القطران (ابن منظور، لسان العرب مادة هنئ)، الجندل: الحجارة ومنه سمي الرجل (نفسه، مادة جندل)، المندل: العود الطيب الرائحة (نفسه، مادة ندل).

[٣] – المعري، رسالة الغفران ، ص٣٢٤.

[٤] – الموسوي، محسن جاسم، سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط، ص١١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو ابن القارح في حركته الفاعلة في العالم الآخر آخذاً بزمام قيادة مجموع الأدباء نحو هدف منشود تقوم عليه رؤية المعري الخاصة، فأحيانا نجده مندغماً في إطار المجموع، أو يشعر بتفوق ذاته وانتصارها في أحايين أخرى؛ فالإجابة التي يصدفها تبدو محمّلة من أصحابها بالتهكم، إلا أنه يتمادى ظناً منه أنه متفوق في معرفة الشعر والأدب وقضايا النحو والصرف، أما ردود الفعل السلبية من الشعراء فما هي إلا لإشعار ابن القارح بتفوق مصطنع يتفذلك به.

ولا يكون هذا التفوق إلا تلميحاً إلى غياب، فالمعريّ ينال من ابن القارح لمّا بعث فيه الحياة وجعله وسط عدد متميز من الأدباء الشعراء أو اللغويين، فحضوره الحقيقيّ في المكان الذي تجمع فيه هذا الحشد من الأدباء تلميح إلى الاستخفاف بقيمته الأدبيّة بينهم في الدنيا، ثم إن ثنائية الحضور والغياب كانت تشغل ذهن المعري، لذلك فقد كان حضور ابن القارح الواضح في الجنان، وما أضفاه عليه من مؤهلات خاصة متفردة ومميزة، غمزاً بطرف خفي إلى غيابه والتقليل من شأنه الأدبيّ، فالسؤال هو: أين ابن القارح إلى جانب تلك الأسماء الحاضرة أبداً!

ومع ذلك فقد بدا النسق الاستعلائيّ للذات حاضراً، حينما كان ابن القارح غير معترف بتنكيره وحشوه وسط هذا العدد الهائل من الأدباء. فهو يظهر معرفة بصنوف العلم والأدب، ويتيح لمعارفه أن تشتغل محفزّاً، ويستغلُّ في ذلك ذاكرته الممتدة إلى الحياة العاجلة.

وإذا كانت السخرية مظهراً من مظاهر النقد؛ فإنّ المعري سلك بها طريقاً خفية فلا "تكاد تبلغه الظنون"[١]، فالتحولات التي طرأت على الشخصيات في الجنة لم تشمل ابن القارح، خلافاً لمن دخل الجنة، فقد احتفظ بخصوصيّة واضحة؛ لذلك بدت ذاكرته قوية الحفظ، بينما أنسى انشغال الأدباء بنعيم الجنة شأن الدنيا وشعرها، وفي هذا تعريض بابن القارح وتأكيد أنّه في غير مكانه الحقيقي الذي يستحقه. فحينما سُئل تميم

[١] – حسين، طه، تجديد ذكرى أبي العلاء، ص ٢٢١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بن أُبيّ[١]عن لفظةِ في شعره فما كان ردّه إلاّ أن قال: "واللهِ ما دخلتُ من بابِ الفَردوس ومَعي كلِمةٌ من الشّعر والرَّجَز"[٢]. ومما عُرف عن الخليل بن أحمد الفراهيدي قوة الحافظة، إلا أنّ سؤاله عن أبيات رقصت عليها الحور يجعله يؤكد نسيانه لها[٣]. ويؤكد الشماخ أن النعيم شغله عن قصيدتيه فلا يذكر بيتاً واحداً منهما[٤]. ويهجر لبيد قول الشعر في الجنة[٥]. وينكر عمرو بن أحمر[٦] على ابن القارح أسئلته حول ألفاظٍ قالها وهو في الدار العاجلة، ويقول له: "ولم تَتْرُكْ فيَّ أهوالُ القِيامةِ غُبَّراً للإنشادِ، أما سَمِعتَ الآية: ﴿ يَومَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرضِعَةٍ عَمّا أرْضَعتْ وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وتَرَى النَّاسَ سُكارَى وَما هُمْ بسُكارَى ولَكنَّ عَذابَ اللهِ شَديدٌ﴾[٧]"[٨]. أما ابن القارح فعلى عكس هؤلاء جميعاً فهو يقول: " ومَعي من الأدبِ مَا هُو كَافٍ، ولا سِيَّما وقد شاعَ النِّسْيانُ في أهلِ أدبِ الجَنَّةِ[٩]".

والملاحظ أنّ ابن القارح يحاول اقتحام حياة الآخرين بحواره المستمر معهم، فهو غالباً يتدخل بأمورهم، ويُجلي ذلك التدخل عدم الانسجام، وكأن في ذلك وصفاً

---

[١] – تميم بن أُبيّ بن مقبل من بني العجلان، شاعر جاهلي أدرك الإسلام، رثى عثمان بن عفان. (الجمحي، أبو عبدالله، محمد بن سلام (ت٢١٣هـ)، طبقات الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، ص٢/ ٢٠، ابن قتيبة، الدينوري، أبو محمد ابن عبدالله بن مسلم (ت٢٧٦هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ص٢/٥٤١؛ ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البيجاوي، ج١/٢٦).

[٢] – المعري، رسالة الغفران، ص ٢٤٧.

[٣] – نفسه، ص ٢٧٩.

[٤] – نفسه، ص ١٣٣.

[٥] – نفسه، ص٢١٦.

[٦] – عمرو بن أحمر : هو عمروبن أحمر بن العمرو (الباهلي) شاعر مخضرم، كان من شعراء الجاهلية وأسلم (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص١/٣١٥–٣١٨؛ المرزباني، الموشح، ص٩٩؛ البكري، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ) سمط اللآلئ، تصحيح عبدالعزيز الميمني، ص ٣٠٧؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة ، ج٥/١٤٠).

[٧] – سورة الحج، آية ٢.

[٨] – المعري، رسالة الغفران، ص٢٤٠–٢٤١.

[٩] – نفسه ، ص٢٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لطبيعة الشخصية غير المنسجمة مع المكان وما فيه. فابن القارح يرى أن عَدياً[١] لا يفهم ما أراده من الأغراض، حين سأله عن بيت استشهد به سيبويه، وهو قوله (من الخفيف):

" أرَواحٌ مُوَدِّعٌ أمْ بُكورُ أنتَ فانظُرْ لأيِّ حالٍ تَصِيرُ

فإنّهُ يَزعمُ أنّ أنتَ " يجوزُ أن يرتفعَ بفعلٍ مُضمَرٍ يُفسّرُه قولُكَ فانظُرْ. وأنا أسْتَبْعِدُ هذا المذهبَ ولا أظُنُّكَ أردْتَه" [٢]. فينكر عليه عدي هذه الأباطيل ويؤكد أنه كان في الدار الفانية صاحب قنص.

وتجري السخرية باتجاه آخر من بداية المشهد حين دخل البطل الجنة، فابن القارح دخل الجنة على ظهر جارية فاطمية، وقد يكون في ذلك إشارة من طرف خفيّ إلى طبيعة الدعوة الفاطمية، إذ تحدّث أصحابها باسم الدين وابتعدوا عن التطبيق الفعليّ له، وفي هذا إشارة إلى ابن القارح الذي كان على دين السلطان، فهو في الجنة يتشدق بلغة لا يفهمها من استحقّ النعيم، أمّا المسّوغ الذي يلجأ إليه لعدم تأثره بما جرى في موقف الحشر ممثلاً في إخلاصه الدعاء في الصلاة، والمدة القصيرة التي مكثها في الحشر، فإنّه ينّم على مبالغة لأنّ هذا الأمر حدث معه دون غيره، يقول: "إنِّي سألتُ ربيّ عَزَّ سُلطانُه، ألاَّ يَحرمَني في الجَنَّةِ تلذُّذاً بأدَبي الذي كنتُ أتلذَّذُ بهِ في عاجلتي، فأجابني إلى ذلك ﴿ولهُ الحمدُ في السمواتِ والأرْضِ وعَشِيّاً وحينَ تُظهرون﴾[٣]"[٤]، ويقول في موطنٍ آخر: "إني كُنتُ أُخلِصُ الدُّعاءَ في أعقابِ

---

[١] – عدي بن زيد بن حماد العبادي من بني زيد، الشاعر الجاهلي المشهور في الطبقة الرابعة من فحول الجاهليين، كان يسكن الحيرة ومراكز الرّيف فلانَ لسانه وسهل منطقهُ، فُحمل عليه شيء كثير، (الجمحي، طبقات الشعراء، ص١٦/٢؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص١٧٦/١–١٨٥).

[٢] – المعري، رسالة الغفران، ص ١٩١. والبيت ورد في مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، الإمام ابن هشام جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف (ت٧٦١هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ٢٥/٢.

[٣] –سورة الروم، آية ١٨.

[٤] – المعري، رسالة الغفران، ص٢٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصلواتِ، قبلَ أن أنتَقِلَ من تلك الدار، أن يُمتِعَني اللهُ بَأدَبي في الدُّنيا والآخرةِ، فأجابني إلى ما سألتُ وهو الحميدُ"[١].

ويقولُ في موطنٍ آخر مؤكداً قوة حافظته: "وكان مُقامي في المَوقفِ مُدَّةَ سِتَّةِ أشهُرٍ من شهورِ العاجلة، فلذلك بَقِيَ عليَّ حِفظي ما نَزَفَتْهُ الأهوالُ، ولا نهَكَهُ تدقيقُ الحسابِ"[٢].

واستعطف ابن القارح في موطن آخر سادن الجنة بالنفاق ونظم قصيدة في المدح، والمعريّ يُعرّض "بحياة صاحبه في القاهرة، وبتملقه للحكام، وباستغراقه في صنوف المتع الحسيّة "[٣].

فشخصية ابن القارح ثمرة للعلاقات بين الأدباء والسُّلطة، فهو يتكسب بالشعر، ويُعدُّ نافذة تكشف عن الواقع الاجتماعي المتداعي والوضع السياسيّ القائم على التملق، فالشعر أحياناً يتبادل الهيمنة بفعل السلطة؛ فهو يضمن لها وجودها بالتملق، وهي تضمن للشاعر المادح الاستمرار بفعل المال.

ب. الصفاء والخلاف بين أدباء الفردوس: النحاة واللغويون والشعراء :

وفي سياق تشدق ابن القارح باللغة وحفظ الشعر ومعرفة قضايا النحو لجأ المعريّ إلى شخصيات نحوية أسهمت بدور واضح في حقب تاريخية ممتدة، فالنحاة غالباً يحاولون أن يتخذوا موقفاً من ذلك العلم بالخلافات التي نشأت بينهم، وتعددت تلك الخلافات بين النحاة في كثير من الأحايين إلى البغض والكراهية والحقد والغلّ، وأدت تلك الخلافات إلى تعقيد النحو. أما النحو عند المعري فهو يمثل واقع الأمة، ومن هنا فإن اضطراب النحاة واختلافهم ينعكس على اللغة وأصحابها.

وهكذا فقد ظهر التصافي والرضى في الجنان بين اللغويين والنحاة على غير المألوف بينهم في الدار العاجلة، وأزال الله مافي نفوسهم وصدورهم من ضغائن

[١] – المعري، رسالة الغفران، ص٢٤١.

[٢] – نفسه، ص ٢٦٢.

[٣] – أمين، فوزي محمد، رسالة الغفران بين التلميح والتصريح، ص ٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"فَصَدْرُ "أحمدَ بنِ يَحيَى"[١]هنالك قد غُسِلَ مِنَ الحِقْد على "محمَّدِ بن يزيدَ"[٢]فَصَارا يَتَصافَيان ويَتَوافَيان كأنهما...، "وأبو بِشْرٍ، عمرُو بنُ عُثمانَ سيبويهِ" قد رُحِضَتْ سُويدَاءُ قلبهِ من الضَّغْنِ على "عليٍّ بن حَمْزَةَ الكسائيّ" وأصحابهِ لِما فعلوا به في مجلسِ البرامكة، و"أبو عُبَيدةَ"[٣]صافي الطويّةِ "لعبدِ الملكِ بن قريْب"[٤] "[٥].

ولذلك كان المشهد الأول للنحاة المتصافين وسيلة للإلمام بالمشكلة الحقيقية، كما يدعو المعري إلى تجريد النحو مما علق به من انحرافات أبعدته عن أداء وظيفته الأولى؛ فهو يتناول " النحاة واللغويين بساخر نقده، فقد أوعروا النحو، وعقدوا مسالكه، وأحالوه طلاسم وألغازاً، بعد أن كان حلو المجتنى يسير التناول يلبي حاجات النطق فلم يكن فيه تجريح متكلف، أو قاعدة مصطنعة يوم كان على يد الدؤلي والخليل ولكن صار صعباً مطلوباً لذاته على يد الأخفش والكسائي والفرّاء وغيرهم وصار له شيع وأحزاب تتناحر وتتشائم، وتقضي الوقت من غير طائل"[٦].

أما الوجه الآخر لأهل اللغة فقد ظهر في موقف جديد، فاللغوي يتسابق لإظهار تفوقه وتميزه على غيره، لذلك فقد ظهرت الشتائم التي توحي بالنزوع إلى حسّ

---

[١] – أحمد بن يحيى أبو العباس المعروف (بثعلب)، إمام الكوفيين، كان رواية للشعر. (السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا، ج١/٣٢٥-٣٢٧).

[٢] – محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، المعروف بالمبرد، صاحب الطبقة السابعة البصرية، له كتب كثيرة. (ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ)وفيات الأعيان،٤تحقيق إحسان عباس، /٣١٣-٣٢٣؛ السيوطي، بغية الوعاة ٢٢٢/١).

[٣] – أبو عبيدة معمر بن المثنى، من أئمة العلم والأدب، استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة ١٨٨هـ(ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥/ ٢٣٥- ٢٤٣).

[٤] – عبدالملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، راوية العرب، إمام الطبقة الرابعة البصرية في النحو. (الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ٤١٠/١٠؛ ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن محمد أحمد الظاهري (ت٤٥٦هـ)، جمهرة أنساب العرب، ص٥٢٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ١٧٠/٣-١٧٦).

[٥] – المعري، رسالة الغفران، ص ١٦٩-١٧٠. رُحضت : الرحض الغسل (ابن منظور، لسان العرب، مادة رحض).

[٦] – العلي، عدنان عبيد، المعري في فكره وسخريته، ص ١٧١-١٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأفضلية، مؤكداً كل منهما تفوق نسقه الفكرى على ما يمتلك غيره من معارف. ويستميت في الدفاع عن فكرته، ويتجلى هذا الأمر حينما اشتدت الخصومة بين المازنيّ[١] والأصمعيّ، ويبدو هؤلاء أيضاً أشقياء في حياتهم الآخرة، فتلك الألفاظ ليست من بيئة الجنة، وأخلاقهم ليست من صفات شخوصها. وهذا كما كشف عنه بجلاء الحوار الآتي:

" يا أبا سَعيد، ما وَزْنُ إوَزَّة ؟ فيقولُ "الأصمعيُّ": " ألَيَّ تُعرّضُ بهذا يا فُصْعُلُ، وطال ما جئتَ مَجْلسي بالبَصْرَةِ، وأنتَ لا يُرْقَع بك رأسٌ؛ وزْنُ إوَزَّة في الموجود إفْعَلَةٌ، ووَزْنُهُا في الأصل إفْعَلَة. فيقولُ " المازنيُّ": ما الدَّليلُ على أنَّ الهمزةَ فيها زائدةٌ، وأنها ليست بأصليَّةٍ، ووزنُها ليس فَعِلَّة ؟ فيقولُ " الأصْمعيُّ": أمَّا زيادَةُ الهمزة في أولِها، فيَدُلُّ عليه قولُهَم : وَزٌّ. فيقولُ " أبو عُثْمَان": ليس ذلك بدَليلٍ على أن الهمزةَ زائدةٌ، لأنَّهم قد قالوا نَاسٌ، وأصْلُهُ أُنَاسٌ، وميْهَةٌ لجُدَرِيِّ الغنَمَ، وإنما هو أمِيهَةٌ. فيقولُ " الأصمعيُّ" : أليسَ أصحابُك مِن أهلِ القِياس يزعمون أنها إفْعَلَةٌ...".[٢]

وتوصف مواقف الشعراء من النحاة بالتوتر والخلاف، ومن هنا فإن أبا علي الفارسي يظهر في موقف الحشر وحوله جماعة من الشعراء يلومونه ويطالبونه، فأحدهم يقول له رويت لي الماءَ مرفوعاً ولم أقل إلا الماءَ، يعني قوله (من الطويل):

"فَلَيتَ كَفافاً كان شَرُّكَ كُلُّهُ وخَيرُكَ عني ما ارتَوَى الماءُ مُرتوي"[٣]

وراجز يقول تأولت عليّ ما لم أقل ووالله ما فعلتُ ولا غيري من العرب، ويعني قوله:

"يـــــا إبِلي ما ذنبُهُ فتأبَيه؟ ماءٌ روَاءٌ ونَصيٌّ حَوْلَيَهْ"[٤]

---

[١] – المازني: بكر بن محمد بن حبيب أبو عثمان المازني، من مازن شيبان أحد الأئمة في النحو. (أبو الطيب اللغوي، عبدالواحد بن علي (ت٣٥١هـ)، مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص١٢٦؛ وابن خلكان، وفيات الأعيان، ١/٢٨٣-٢٨٦)

[٢] – المعري، رسالة الغفران، ص ٢٨٣-٢٨٤. فصعل: من أسماء العقرب، وقد يوصف به الرجل اللئيم (نفسه، ص٢٨٣)

[٣] – المعري، رسالة الغفران، ص ٢٥٤. والبيت ورد في مغني اللبيب، ص٢٨٨.

[٤] – نفسه، ص ٢٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فحرك الياء في فتأبيَه، ورجل يقول: إدعيّت عليّ أن الهاء راجعة على الدرس في قوله (من البسيط):

"هذا سُراقةُ للقرآنِ يَدْرُسُه والمرءُ عنِد الرَّشا إنْ يَلْقَها ذِيبُ" [١]

ثم فقد كان لاجتماع هؤلاء الأدباء من أنماط ثقافية مُختلِفة تبعاً لتغير أزمنتهم أثر في إحداث فجوة بينهم، فإذا كانت صورة النحاة في الجنان متصافين متحابين في مجالس الغفران، فإنه يتحول في أحد المشاهد إلى خلاف عنيف في مجلس منادمة فيه عدي بن زيد والنابغتان وينضمُّ إليهما لبيدٌ، فالشخصيات تتعارف وتلتقي في هذه اللوحة الرمزية لتقديم صورة لطبيعة اللحظة، محافظاً على حيوية الموقف بإضفاء روح حركة الشخصيات في الدنيا. وملامح الصراع لا يمكن أن تكون في الجنة، وفي هذا إشارة إلى تطفل هؤلاء على تلك البيئة، فقلة الانسجام بين تلك الشخصيات، وعدم التوافق بينهم دليل على أنهم لا يستحقون المكان الذي أقحموا فيه، فهذه التصرفات بعيدةٌ عن أهل الجنة، وبهذا الوصف أراد المعري أن يصل بالسخرية إلى قمتها.

ولعل مشهد الصراع في العالم العلوي بين الشعراء خير دليل على ذلك، إذ لا يبدو الانسجام بين المجتمعين، وأصواتهم أقنعة تعكس حقيقتهم الأخلاقية والمفارقات السلوكية، وهم خاضعون لأنساق أخلاقية لم يستطيعوا في الجنان أن يتنصلوا منها، وهنا نلمس مشكلة هؤلاء المجتمعين، فالنابغة الجعديّ يقول للأعشى مشككاً في حقه بدخول الجنة :

" اسكت يا ضُلَّ بن ضُلَّ، فأُقسِم أنَّ دخولكَ الجنّة من المنكَرات، ولكنَّ الأقضِيَة جَرَت كما شاءَ اللهُ! لحَقُّكَ أن تكونَ في الدَّرَكِ الأسفَل من النار، ولقد صَليَ بها مَنْ هو خيرٌ منك، ولو جَازَ الغَلَطُ على رَبِّ العِزَّةِ، لقُلتُ: إنَّك قد غُلِطَ بك"[٢]. ويثب نابغة بني جعدة على أبي بصير ويضرب الأعشى بكوز في يده فيتدخل ابن القارح، ويقول :

---

[١] – المعري، رسالة الغفران، ص ٢٥٥.

[٢] – نفسه، ٢٣٠-٢٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" لا عَرْبَدَةَ في الجِنان، إنما يُعْرَفُ ذلك في الدارالفانَيةِ بين السَّفَلةِ والهَجَاج"[١].

وهكذا فإن الأدباء لم يسلموا من نقد المعريّ؛ "لأن أبا العلاء ربط الأدب بعجلة الأخلاق، وسار على نهج أخلاقيّ فدعا إليه وحدّد مسار أدبه ومضامينه فآثر الصدق".[٢]

ج-شعراء أدباء وعلماء في الجنة والجحيم:

أما الشعراء الذين عرض لهم المعريّ في الغفران فكانوا ممن عاش في الجاهلية وصدر الإسلام، وأقصى من عالمه الأخروي المحدثين لأنهم لا يستشهد بشعرهم وعنّ لابن القارح صنع مأدبة يجمعُ فيها الشعراء من الخضرمة والإسلام فقط، لدورهم في حفظ اللغة، يقول المعري: "ويَبْدو له -أيّدَ اللهُ مجدهُ بالتأييدِ- أن يَصنعَ مأدُبةً في الجِنان، يَجْمَعُ فيها مَن أمْكنَ من شُعَراءِ الخَضْرَمَةِ والإسلام، والذين أصَّلُوا كلامَ العَربِ، وجعلوهُ محفوظاً في الكُتُب، وغيرَهم ممَّنْ يَتأنسُ بقليلِ الأدَبِ"[٣].

وترمز كل شخصية إلى فكر وأنساق ثقافيّة مُستقاة من البيئة الزمانية والمكانية التي شهدها الأديب، وليس من النادر " أن نجد إشارة إلى واقعةٍ في حياتهم الخاصّة تتصل بفضائلهم أو ذنوبهم أو فقرة من أشعارهم توضح المصير الذي انتهوا إليه في عالم الآخرة".[٤] ومن ذلك اللمز الذي يحصل بين الحاضرين في المجالس إذ يكون وسيلة لتقديم شيء عن أمور خاصة بالشخصية؛ فالأعشى يقول للجعدي: "قد طالَ عُمُركَ يا أبا ليلى، وأحسبُكَ قد أصابَك الفَنَدُ، فبقيتَ على فَنَدِكَ إلى اليوم"![٥] ويجيبه مستاءً: "أتكلمُني بمثلِ هذا الكلام يا خليعَ بني ضُبيْعة، وقد مُتَّ كافراً، وأقررْتَ على نَفسِكَ بالفاحشةِ"[٦].

---

[١] – المعري، رسالة الغفران، ص ٢٣١. الهجاج: ركب رأسه (ابن منظور، لسان العرب، مادة هجج)

[٢] – العلي، عدنان عبيد، المعري في فكره وسخريته، ص ١٨٢.

[٣] – المعري، رسالة الغفران، ص٢٦٨.

[٤] – فضل، صلاح، تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي، ص ٧٤.

[٥] – المعري، رسالة الغفران، ص ٢٢٧. الفند: الخرف (ابن منظور، لسان العرب، مادة فند).

[٦] – المعري، رسالة الغفران، ص ٢٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما سر دخول الأعشى –الذي أدرك الإسلام وحين مضى يطلبه صدته قريش– الجنان؛ فيعود إلى داليته التي شفعت له في الموقف العظيم، والزبانية جعلته في موقف الحشر يصرخ حين سحبته إلى سقر"يا مُحمدُ أغِثْني فإن ليَ بكَ حُرْمة! فقال: يا عليّ، بادِرْهُ فانْظُرْ ما حُرْمتُه؟ فجاءَني "عليٌّ بنُ أبي طالب" صلواتُ اللهِ عليهِ وأنا أُعْتَلُ كي أُلقَى في الدَركِ الأسفل من النَّار، فزَجرَهُم عني، وقال: ما حُرْمَتُكَ؟ فقلتُ: أنا القائل (من الطويل):

ألا أيُّهذا السائلي أينَ يَممَّتْ فإنَّ لها في أهل يَثربَ مَوْعِدا

فآليتُ لا أرثي لها من كَلالةٍ ولا مِن حفِي حتى تزورَ مُحمَّدا"[١]

أو قد يكون الشعر الذي نظمه أحدهم وسيلة للتعجب من الحال الذي وصل إليه، فكأنه لم يقله في الدار الفانية لتغير حاله في الجنة؛ فابن القارح يقول للبيد: "كأنك لم تقل في الدار الفانية (من الكامل):

ولقد سَئِمتُ مِنَ الحياةِ وطولِها وسُؤَالِ هذا الناس: كيفَ لَبيدُ؟!" [٢]

كما يتخذ ابن القارح من الحوادث التاريخية التي مرَّ بها الشاعر طريقة للتعريف به، فهو يسترجع أشعارهم، ويعرض أقوال الرواة فيها، أو مواقفهم من المرأة والخمر كما في حواره مع الأعشى.[٣]

وليس غريباً أن يكون المعيار الذي اتكأ عليه المعري في توزيع الشخصيات على الجنة أو الجحيم يمتاز بالرحمة والسعة وتحرر النظرة، فقد غُفر لشخصيات غير مؤمنة لعمل منهم صالح أو قول حسن[٤]، فثمة انفصال واضح بين النسق الفرديّ والنسق الجماعي السائد، ويمثل هذا الأمر انقلابا على القيم الاجتماعية السائدة، فالأعشى والنابغة وغيرهم في الجنة؛لأنهم يحيلون إلى أفكار أخلاقية في أشعارهم، فابن

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص ١٧٨. أعتل: جذبه وجره بعنف. (ابن منظور لسان العرب: مادة عتل).
الأبيات وردت في ديوان الأعشى الكبير ، ص١٣٥.

[٢]– المعري، رسالة الغفران، ص ٢١٥.

[٣]– نفسه، ص٢٣٣.

[٤] – فضل، صلاح، تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي، ص ٧٤؛ الهنداوي، خليل، بين المعري في رسالة الغفران ودانتي في الكوميديا الإلهية، مجلة العربي، ع ٢٣، الكويت، ١٩٦٠، ص ١١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القارح يعجب من وجود بعضهم في الجنّة، ومنهم عبيد بن الأبرص[١] الذي بيّن له أنّ باب رحمةِ الله وسع كل شيء، لذلك كانت أبواب الجنة مفتوحة له لبيت شعر استشعر فيه وجود الله عزوجل، يقول في تأكيد ذلك " لعلّكَ تريدُ أن تسألني بمَ غُفرلي، فيقولُ: أجَلْ، وإنَّ في ذلك لعَجباً ! أألفَيْتَ حُكماً للمغفرةِ موجِباً، ولم يكنْ عن الرحمةِ مُحجِّباً؟ فيقولُ "عَبيدٌ": أُخْبِرُكَ أنّي دخلتُ الهاوية، وكنتُ قلتُ في أيامِ الحياةِ (من مخلّع البسيط):

مَنْ يسألِ النَّاسَ يَحرْمُوهُ وَسائلُ اللهِ لا يَخيبُ

وسار هذا البيتُ في آفاقِ البلادِ فلم يَزَلْ يُنْشَدُ ويَخِفُّ عنّي العذابُ حتى أُطلقتُ من القُيودِ والأصفادِ، ثم كُرِّرَ إلى أن شَمِلتْني الرحمةُ ببركةِ ذلك البيتِ، وإنّ ربَّنا لغفُورٌ رَحِيم "[٢].

والحطيئة الذي أشهر لسانه على الناس بالهجاء، غفر له ببيت صدق فيه بهجاء نفسه، ويتمثل في قوله (من الطويل):

أبَتْ شَفَتَايَ اليَومَ إلاَّ تَكلُّماً بهُجْرٍ، فمَا أدريْ لِمَنْ أنَا قائِلُهْ

أرَى لِيَ وَجْهَاً شَوَّهَ اللهُ خَلْقَهُ فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهٍ، وقُبّحَ حامِلُه"[٣]

فالمغفرة شملت شعراء لا يبدو أنّهم ممن يستحقون أن ينالوها، إلا أنهم نالوها بعد معاناة طويلة في إثبات التوبة، كما سعوا جاهدين لطلب الشفاعة. وهذا الأمر نفسه حدث مع ابن القارح الشخصية الأساسية المحركة للأحداث، ويبدو أنّ إدخال تلك الشخوص الجنة كان طريقة للنيل من ابن القارح، الذي حاله في حقيقته لا يُعطي انطباعاً أنه يستحقّ الجنة، وهذه الفكرة كانت محطَّ اهتمام المعري، لذلك اكدها كلما سنحت له الفرصة.

---

[١] – عبيد بن الأبرص : من دهاة الشعراء في الجاهلية، عاصر أمرأ القيس، وله معه مناظرات ومناقضات (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص١/١٢٤-٢٢٧).

[٢] – المعري، رسالة الغفران، ١٨٥-١٨٦. وقد ورد البيت في ديوان عبيد بن الأبرص، ص١٣.

[٣] – المعري، رساله الغفران، ص ٣٠٧. وقد وردت الأبيات في ديوان الحطيئة،ص ٢٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الرواة البغداديون فقد ظهروا بصورة شائنةٍ، فهم يُحوّرون الحقائق ويسيئون التعامل مع رواية الشعر، ويحفظون في ذاكرتهم علماً ملوثاً فيه من الدسائس الكثير، لذلك نجد امرأ القيس ينفر من روايتهم لشعره، فيقولُ: "يا أبا هند، إنَّ رُواةَ البَغْدادِيينَ يُنشِدونَ في (قِفا نَبْكِ) هذه الأبياتَ بزيادَةِ الواوِ في أوّلِها : أعْني قولكَ (من الطويل):

* وكأنَّ ذُرَى رَأسِ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً*

وكذلك :

* وكأنَّ مَكاكِيَّ الجِواءِ*

* وكأنَّ السِّباعَ فيهِ غَرْقَى*"[١]

فيقول: أبعْدَ اللهُ أولئك! لقد أساؤوا الروايةَ، وإذا فَعَلوا ذلك فأيُّ فَرْقٍ يَقَعُ بين النَّظْمِ والنَّثْرِ! وإنما ذلك شيءٌ فَعَلَهُ من لا غَريزَةَ له في مَعْرِفةِ وَزْنِ القَريض، فظنَّه المُتَأخِّرون أصْلاً في المَنْظُوم، وهَيْهاتَ هَيْهات"!.[٢]

وبعيداً عن الجنة، في الجحيم يُظهر الحوار المتبادل مع ابن القارح واقع ثقافة الشاعر الجاهليّ في إطار النسق الكليّ، ومما يسترعي النظر الموقف الجديد من قصة نكاح الغيلان[٣] التي كانت معروفة في ثقافة الأديب الجاهلي، وتكشف تلك القصة التحول في الفكر الإنسانيّ في البعد المكاني الجديد (الجحيم) فأصبحت مرفوضة وغير مصدقة لأنها خارجة عن نطاق العقل، فسؤال تأبط شراً" أحَقٌّ ما رُوِيَ عنكَ مِنْ نكاحَ الغِيلانِ "[٤]. يجعله يجيب: " لقد كنا في الجاهِلِيَّةِ نَتَقوَّلُ ونَتَخرَّصُ، فَما جَاءكَ عنا مِما

---

[١] –المعري، رسالة الغفران، ص٣١٣. وقد رد البيت في ديوان امرئ القيس، ص١٢٢.

[٢] – المعري، رسالة الغفران، نفسه، ص ٣١٣، ٣١٤.

[٣] – والغيلان: مفردها الغول وهو اسم لكل شيء من الجن يعرض للسّفار، ويتلّون في ضروب الصور، فالعرب تزعم أنها تتصور في أحسن صورة، وأكثر كلامهم على أنها أنثى كما أنّ شق عينها بالطول، ورجلها رجل حمار، (الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ)، الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، ج١٥٨/٦)، وجدير بالذكر أن خرافات الغيلان كانت منتشرة بكثرة في الجزيرة العربية ويُنسب إلى تأبط شرا أنه قتل غولة بضربة واحدة من سيفه فقتلها، وأنّ الغولة عندما ضربها أول ضربة، طلبت منه أن يضربها ثانية، لكنه رفض (عبدالحكيم، شوقي، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، ص٢٦٥).

[٤] – المعري، رسالة الغفران: ص، ٣٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يُنكرُه المعقولُ، فإنّه من الأكاذيب، والزَّمَنُ كُلُّه على سَجَّية واحدةٍ، فالذي شاهدَهُ "مَعَدُّ ابنُ عَدنَان"[١]، كالذي شاهد نُضَاضَةُ وَلَدِ آدم ".[٢]

وفي لقاء ابن القارح بالحارث بن حلزّة اليشكري، يذكر له عادات جاهلية أكدّها في شعره، لم يثبتها التحول إلى العالم الآخر حيث تبدت الحقائق من الأكاذيب التي لا تَسْتَنِدُ إلى دليل، يقول ابن القارح معلقاً على تلك العادات :

" وقد كانوا في الجاهليَّةِ يَعكِسون ناقة المَيت على قبرِهِ، ويزْعُمونَ أنّه إذا نَهَضَ لِحَشْرِهِ وَجَدها قد بُعِثتْ له فيركَبُها؛ فلَيْتَهُ لا يَهصُ بثقلِهِ مَنْكِبَها. وهَيهات! بل حُشِروا عُراةً حُفاةً بُهْماً، أي غُرْلاً...". [٣]

وجدير بالذكر أنّ ابن القارح كان قد التقى في عالمه الأخروي: الجنة والنار بعددٍ كبير من الأدباء، ففي الجنة لقي الأعشى، وزهيراً، وعبيداً، وعدياً، والنابغتين، وحسّان، ولبيداً، وأبا عمرو بن العلاء، والمازني، وعوران قيس[٤]وأبا ذؤيب، والحطيئة، والخنساء.

أما الشعراء الذين التقاهم في النار فهم: بشار، وأمرؤ القيس، وعنترة، وعلقمة الفحل، وعمروبن كلثوم، والحارث اليشكري، وطرفة، وأوس بن حجر، وصخر، والأخطل، ومهلهل، والشنفرى، وتأبط شراً، وغيرهم.

ومما يسترعي الانتباه أنّ موقع ابن القارح يتخذ وجوداً قوياً وحضوراً واضحاً في النار، إلا أنّ حواره قد بدا سريعاً أحياناً يتسم بالإيجاز والقصر، فهو يتأسف

---

[١] – معد بن عدنان بن آدّ بن آدد من أحفاد إسماعيل عليه السلام، جد جاهلي من سلسلة النسب النبوي. (ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص ٩ وص ٤٣٤).

[٢] – المعري، رسالة الغفران، ص٣٥٩. والنضاضة آخر ولد الرجل (نفسه، ص٣٥٩).

[٣] – نفسه، ص ٣٣٣ – ٣٣٤. عكس: عكس الدابة حبس الدابة على غير علف. (ابن منظور، لسان العرب: مادة عكس). وهص: كسر الشيء ودقه (نفسه: مادة وهص). غرل: الصبي لم يختن (نفسه: مادة غرل).

[٤] – وهم: تميمُ بن مقبل العَجْلانـيّ، وعمرو بُن أحَمْرَ الباهلي والشّماخ مَعْقِل بنُ ضِرارٍ، أحَدُ بني ثعلبة بن سَعْدِ بن ذبيانَ، وراعي الإبل عبيد بن الحُصين النميريّ وحميد بن ثور الهلالي.(وستأتي ترجمة بعضهم فيما بعد).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لحالهم، ولعلّ إحساس أولئك الشعراء باستحالة الشعور بالراحة جعلهم يسترجعون مخزونهم الفكري تخفيفاً من شقاء جهنم المستمر، فيضع بعضهم حدوداً للبكاء والعويل باستمرار الحديث، في حين يخضع بعضهم له، ويبدو سئماً متضايقاً قليل الكلام، فأبو كبير الهذليّ [١]يقول لابن القارح: " كيف لي أن أقضَم على جَمَراتٍ مُحْرِقات، لأردَ عِذاباً غَدِقات؟ وإنّما كلامُ أهَلِ سَقَرَ ويَلٌ وعويلٌ، ليسَ لهم إلاّ ذلكَ حَويلٌ"[٢].

وابن القارح في ذلك الوسط يحاول أن يُخّفف من مصابهم، مستلهماً من تراثهم الشعريّ وأخبارهم وسيلة لاختراق عزلتهم ولإحداث التواصل بينه وبينهم، فيدعو لطرفة أن يخفف عنه وكذلك للمرقش الأكبر[٣]" خَفَّفَ اللهُ عنك أيُّها الشَّابُّ المُغتَصَبُ، فلَمْ أزَلْ في الدار العاجلةِ حزيناً لما أصابكَ به الرجُلُ الغُفَليُّ".[٤]

ويدور حوار بين شعراء الجحيم وابن القارح فيه إشارات نقدية وأدبية وتاريخية واضحة، فالأخطل مثلاً كان مشتاقاً لأيام يزيد (الخليفة الأموي)، ويروي ذكرياته الحميمة معه؛ مما يجعل ابن القارح يقول: "عليكَ البَهْلَةُ! قد ذهَلَت الشعرَاءُ من أهِل الجنَّةِ والنَّار عن المَدح والنَّسيبِ، وما شُدِهْتَ عن كُفْرِكَ ولا إساءَتِك".[٥]

---

[١] – أبو كبير الهذلي عامر بن الحليس الهذلي، شاعر جاهلي أسلم، وله أربع قصائد، افتتحها جميعاً بقوله : أزهير هل عنْ شَيْبَةٍ من مَعْدلِ أم لا سبيل إلى الشَّباب الأوّل.(ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص٦٥٢/٢-٦٥٧).

[٢] – المعري، رسالة الغفران، ص ٣٤٤ . غدقات : غزيرات، (ابن منظور، لسان العرب، مادة غدق). حويل: تحول من حال إلى حال (نفسه، مادة حول).

[٣] – المرقش الأكبر هو ربيعة بن سعد بن مالك، وهو أحد عشاق العرب المشهورين بذلك، وصاحبته أسماء بنت عوف بن مالك. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص١٦٢/١-١٦٥؛ ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص٣١٩-٣٢٠).

[٤] – المعري، رسالة الغفران، ص ٣٥٥. وجدير بالذكر أن أبا أسماء زوَّجها رجلاً من مُراد، والمُرقش غائب، فلما رجع أخبر بذلك، فخرج يريدها، ومعه عَسيفٌ له من غُفلة، فلما صار في بعض الطريق مرض، حتى ما يُحمَلُ إلا مَعروضاً، فيتركهُ الغُفليُّ هناك في غارٍ، وانصرف إلى أهله، فخبرّهم أنه مات، فأخذوه وضربوه حتى أقرَّ فقتلوه. أو يقال: إن أسماء وقفت على أمره فبعثت إليه فحُمل إليها، وقد أكلت السِّباع أنفَه. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص١٦٤/٢-١٦٥).

[٥] – المعري، رسالة الغفران، ص٣٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينتقد عنترة شعراً سمعه لأبي تمام ويقول فيه: "أَمَّا الأصلُ فعربَيٌّ، وأما الفَرْعُ فنَطَقَ به غبيّ، وليس هذا المَذهَبُ على ما تَعرِفُ قبائلُ العَربِ".[١]

ويستمع المهلهل لأقوال النحاة حول بيته (من الخفيف):

"أَرْعَدوا ساعة الهياج وأبْرَقـ نا كما تُوعِدُ الفُحولُ الفُحولا

فسأل عمّا أنكروا منه، فيقول له ابن القارح: "زَعَمَ "الأصمَعيُّ" أنَّهُ لا يُقالُ أرعدَ وأبرقَ في الوعيدِ ولا في السَّحابِ. فيقولُ: إنَّ ذلك لخَطأٌ من القول، وإنَّ هذا البيتَ لم يَقُلْه إلاّ رَجُلٌ من جِذْمِ الفَصاحةِ: إمّا أنا وإمّا سِوايَ، فخُذْ به وأعرِضْ عن قولِ السُّفهاءِ".[٢]

أما غياب المرأة الشاعرة فبدا واضحاً مقارنة بالأدباء من الرجال وهو يعكس حالة من التصور الذي انعكس في وعي المعري حول المرأة، فالمرأة الشاعرة التي يصدفها ابن القارح في أقصى الجنة قريبة من المطلع هي الخنساء تبحث عن أخيها صخر فرأته كالجبل الشامخ والنار تضطرم في رأسه[٣]. وما عدا الخنساء ظهرت المغنيات ممن قضيت لهن التوبة، ومن هؤلاء: الجرادتان[٤]، وبصبص[٥] ودنانير[٦] وعِنان[٧].

---

١ – المعري، رسالة الغفران، ص٣٢٤.

٢ – نفسه، ص٣٥٤–٣٥٥. ورد البيت في ديوان المهلهل، ص٦٣؛

٣ – المعري، رسالة الغفران، ص٣٠٨.

٤ – الجرادتان: قينتان مشهورتان بالغناء الجميل كانتا لمعاوية بن بكر الجرهمي، غنتا لوفد عاد حين جاء إلى مكة يستسقي في قحطها، (الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد (ت٥١٨هـ)، مجمع الأمثال، ١٣١/١ و٢٣٠/٢).

٥ – بصبص: هي قينة جميلة الوجه والغناء، اشتراها المهدي من ابن نفيس. (الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ)، الأغاني، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، م١٥/ ٢٤–٢٩)

٦ – دنانير: هي قينة ليحيى بن خالد مشهورة بظرفها وجمالها. (نفسه، ج١٨/١٤).

٧ – عنان: قينة ومغنية مشهورة، كان فحول الشعراء يساجلونها ويعارضونها فتنتصف منهم. (نفسه، ج٢٢/٥٢١).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي موطن آخر تغني القينة وتجيد الغناء فإذا "عجبت الجماعةُ من دقة إحسانها وإصابتها قالت: أتَدْرُونَ مَنْ أنا؟ فيقولون: لا واللهِ المحمودِ! فتقولُ: أنا "أمُّ عَمرو" التي يقولُ فيها القائلُ (من الوافر):

تَصُدُّ الكأسَ عَنّا أمُّ عَمْرِو وكان الكأسُ مَجْراها اليَمِينا

وما شَرُّ الثلاثةِ أمَّ عَمْرِو بصاحِبِكِ الذي لا تَصْبَحِينا"[١]

د-الشخصيّة الأدبية وعلاقتها بالرسل وآل البيت:

لا غرو أن تمثل الشخصيّة الدينية محوراً أساسياً في الغفران، فأجواء الغفران توحي بالامتلاء بشخوص دينيّة، بيد أنّ المعري لم يكثف من وجودهم، كما بدت صورة تلك الشخصيّة باهتة ومواقفها مقتصرة على الشفاعة في المحشر .

وجدير بالذكر أنّ المشاهد في مجملها ترتكز على آل البيت وآل علي جاعلاً لهم "حقوقاً في الشفاعة ليست لسواهم"[٢] ، وتظهر الشخصيّة الدينية مصدراً للخير كله، فهم لا يردون من يلوذ بهم خائباً، فابن القارح في رحلته لينال الشفاعة والتوبة يسعى حثيثاً وراءها؛ ذلك أن حسناته كانت قي موقف الحشر قليلة " كالنُّفَأِ في العام الأرمل- والنُّفَأ الرياضُ، والأرملُ قليل المطر-"[٣] كما يصفها .

ولذلك فإنّ ابن القارح يلاحق الشخصيات الدينيّة، وهي مُحاطةٌ بهالةٍ من القداسة وأجواء من الهيبة، كفاطمة -رضي الله عنها- ورفاقها علي بن الحسين وابنيه: زيد ومحمد وغيرهم من الأبرار الصالحين[٤].

ويمثل موقف الشفاعة نقداً لاذعاً لأفعال ابن القارح، فهو يمثّل الشخصيات الأدبية التي استبدت بها الذنوب، وتهافتت على حُطام الدنيا، كما تكشف تلك المواقف عن طبيعة الشخصيات السابقة، فابن القارح يبدي الفزع والجزع ويلهث وراء التوبة

---

[١] - المعري، رسالة الغفران، ص٢٧٧-٢٧٨. وردت الأبيات في شرح القصائد العشر للتبريزي، ص٢١١.

[٢] - عبدالرحمن، عائشة، رسالة الغفران، ص ٣٣٤

[٣] - المعري، رسالة الغفران، ص ٢٤٩.

[٤] - نفسه، ص٢٥٨-٢٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لسوء أفعاله في الدنيا، ويحاول أن يشهد على توبته قاضي حلب أيام شبل الدولة[١]، ويذكر لعليّ كرم الله وجهه شاهده بالتوبة ويظهر هذا في الحوار :

" فأظهرتُ الولهَ والجَزَعَ. فقالَ أميرُ المؤمِنين: لا عليكَ، ألكَ شاهدٌ بالتَّوْبةِ؟ فقُلتُ: نعم، قاضي حَلَبَ وعُدولُها. فقال: بمن يُعرَف ذلك الرجلُ؟ فأقولُ: "بعبد المنعم ابن عبدالكريم" قاضي حَلَبَ، حَرَسها اللّهُ، في أيَّام "شِبْل الدَّوْلةِ"، فأقامَ هاتِفاً يَهتِفْ في المَوقِف: يا "عبدَ المنعِمِ بنَ عبدِ الكريم"، قاضيَ حلبَ في زمَانِ شِبل الدَّولةِ، هل مَعَكَ عِلمٌ من تَوْبةِ عليٍّ بن منصور بن طالبٍ، الحَلَبيّ الأديبِ ؟ فلم يُجِبْهُ أحَدٌ. فأخَذني الهَلَعُ والقِلُّ، أي الرّعدة، ثم هَتَفَ الثانية، فلم يُجِبْهُ مُجيبٌ. فلِيحَ بي عندَ ذلك، أي صُرعتُ إلى الأرض. ثم نادى الثالثة، فأجابهُ قائلٌ يقولُ: "نَعَم، قد شَهدِتُ تَوْبةَ عليٍّ بن منصورٍ وذلك بأخَرَةٍ من الوَقتِ، وحَضَرَتْ متَابَهُ عِندي جماعةٌ من العُدُول، وأنا يَومَئِذٍ قاضي حَلَبَ وأعمالِها، واللهُ المُستَعانُ". فعِنْدها نَهَضْتُ وقد أخَذْتُ الرَّمقَ، فذكَرتُ لأميرِ المؤمنين، عليه السَّلام، ما ألتَمِسُ فأعرَضَ عنّي وقال: إنّك لتَرُومُ حَدَداً مُمتنعِاً، ولك أسْوَةٌ بوَلَد أبيك آدَمَ".[٢]

ويتضح مما سبق أن دخول ابن القارح محاط بالأسئلة وتلفه أصابع الاتهام، فهو على مايبدو لا يستحق تلك الشفاعة ودخول الجنان، فقد تعلّق بالركاب في الزحام، ثم توسل بأن يتماسك على الصراط، وهو يصف نفسه في تلك اللحظات العصيبة، بقوله: "فوَجدتُني لا أستمسِك. فقالت "الزَّهراءُ"–صلى الله عليها– لجاريةٍ من جَواريها: يا فُلانةُ أجيزيه. فجَعلتْ تُمارُسني وأنا أتَساقطُ عن يَمينٍ وشمال، فقلتُ: يا هذه، إن أرَدتِ سَلامتي فاستَعمِلي معي قولَ القائل في الدار العاجلة (من مجزوء الرمل):

---

[١] – شبل الدولة : أبو كامل نصر بن صالح بن مرداس، مَلَكَ حلب بعد قتل أبيه، بقي فيها إلى سنة٤٢٩هـ. (ابن العديم، كمال الدين أبوالقاسم عمر بن هبة الله، تحقيق سامي الدهان، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٢٣٢/١)

[٢] – المعري، رسالة الغفران، ٢٥٦ –٢٥٧، الحدد: الممنوع الذي لا يحل ارتكابه (ابن منظور، لسان العرب، مادة حدد).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سِـتٍّ إنْ أعْيَـاكِ أمْـــري فـاحْمِلِـيـنـي زقَـفُـونَـــةْ"[١]

وطالما كانت الجنة مفتوحة لابن القارح فقد استحقها غيره من الأدباء، ففكرة الغفران قائمة على سؤالين : هل غفر لك ؟ وبِمَ غفر لك؟ ويتكرران في غير مشهد ومع عدد من الأدباء، ففي مشهد تصويري يظهر الشعراء متخذين من أشعارهم وسيلة عبور إلى الجنة، فالأعشى يطلب الشفاعة من محمد –صلى الله عليه وسلم– وعلي رضي الله عنه، فشفع له بأبيات نظمها في الحياة الدنيا كان مؤمناً فيها بالحساب مصدقاً بالبعث. وأما عدي بن زيد فكانت سلامته على الصراط لأنه كان على دين المسيح، فيقول:" إنّي كنتُ على دين "المسيح" ومَنْ كان من أتباع الأنبياءِ قبلَ أنْ يُبْعَثَ "مُحمَّدٌ" فلا بأسَ عليه، وإنما التَّبعةُ على من سَجَدَ للأصنام، وعُدَّ في الجَهَلَةِ من الأنامَ"[٢] .

ويتبين من علاقة حسان بن ثابت مع النبي –صلى الله عليه وسلم– رفعة خُلقه وسماحته عليه السلام؛ ذلك أن المجلس المحتشد سأله: "أين هذه المشروبةُ من سِبيئتِك التي ذكرتها في قولكَ؟ (من الوافر):

كـأنَّ سبيئةً من بيتِ رأسٍ يكونُ مِزاجَها عَسَلٌ وماءٌ

على أنيابِها، أو طَعْمَ غَضٍّ من التّفاح هَصَّرَه اجتناءُ

....

وَيحَكَ! ما استحيَيتَ أن تَذكُر مثلَ هذا في مِدْحَتِكَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم؟ فيقولُ: إنَّه كان أسَجَحَ خُلقاً مِمّا تَظنُّون..."[٣]

---

[١] – المعري، رسالة الغفران ، ص ٢٦٠، زَقفُونَه : أن يَطرحَ الإنسانُ يديه على كتفَي الآخر، ويمسك الحاملُ بيديه ويحملهُ وبطنهُ إلى ظهره (نفسه، ص٢٦١).

[٢] –نفسه، ص ١٨٦.

[٣]– نفسه، ص٢٣٤–٢٣٥. وردت الأبيات في شرح ديوان حسان بن ثابت ص٥٦.

المشروبة والسبيئة: الخمر (ابن منظور، لسان العرب: مادة شرب وسبأ). بيت رأس: اسم لقريتين لكل واحدة منهما كروم كثيرة ينسب إليها الخمر (الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت (ت٦٢٦هـ)، معجم البلدان، تحقيق عبدالعزيز الجندي، ٦١٦/١).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الشخصيات الدينية آدم عليه السلام، إلا أنّه لم ينفك عن الأدب وقضاياه، فصوته يجلي حنقاً على أخطاء بني البشر، كما يبدو متأذياً من أقوالهم القائمة على أباطيل، إذ إن سلوكهم في وعيه مبنى على الكذب، والمكان الذي فيه الآن الجنة يُفترض فيه قول الحقيقة وبيانها بصدق. وهنا ينكر آدم –عليه السلام– ما تناقله الرواة عنه من شعر لما قَتَلَ قابيلُ هابيلَ، يقول:

"أعْزِزْ عليّ بكم معشر أَبَيْنِيَّ! إنكم في الضلالةِ مُتَهَوِّكون! آليتُ ما نَطقتُ هذا النَّظيمِ ولا نُطِق في عَصري، وإنّما نَظمَه بعضُ الفارغين، فلا حولَ ولا قوةَ إلا بالله! كذبتُم على خالِقِكم ورَبِّكم، ثم على آدمَ أبيكُم، ثم على حوّاءَ أمِّكم، وكَذبَ بَعضُكم على بعضٍ، ومَآلكم في ذلك إلى الأرض". [١]

ثانياً: الشخصية الأدبية في رسالة الصاهل والشاحج [٢]

لا تمثل هذه الشخصية عناصر أساسية في السرد، وإنما وردت أخبارها على ألسنة الحيوانات، لذا كان الحوار بين الصاهل (الحصان) والشاحج (البغل) والثعلب والضبع والجمل يدور حول الشعر والشعراء والنحاة والنحو والرواة والنساخ.

ثم إنّ الكاتب يُسقط عدداً من الصفات الأخلاقية والفكرية على الشعراء، وقد استوحى هذا الأمر من واقع الشخصية التاريخّي، فالفرْزدق نظم أشعاراً تُحملُ على التقديم والتأخير، وقد جاء هذا الأمر تعقيباً على تصرف الجالية ووضعها متاعها في حال الدّهش، واختلاط الأشياء ببعضها، وهذا يُذكّر بالفرزدق في شعره فهو يمتلك قدرات تجعله معروفاً بمنحى فكري في باب الشعر، إذ يضع الكلام في غير موضعه ومن ذلك قوله (من الكامل):

ضلّت أميّـَةُ من سفاهةِ رأيها فاستجهلت سُفَهاؤها حُلماؤها

حَرْبٌ تُسَعَّرُ بينهم بتشاجُرٍ قد كفَّرتْ آباؤها أبناؤها" [٣]

---

[١] – المعري، رسالة الغفران، ص٣٦٤. تهوك: تحير في الأمر وارتبك (ابن منظور، لسان العرب، مادة هوك).

[٢] – سيأتي التعريف بها لاحقاً.

[٣] – المعري، رسالة الصاهل والشاجح، تحقيق عائشة عبدالرحمن، ص٦٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يُعنى المعري بالقيم الأخلاقية التي ارتبطت بغير أديب، وهكذا فإن الثعلب يتمثل بالشعراء في حديثه عن زعيم الروم وصفاته السلبية ونشأته على الغدر والخيانة، فهو يستنكر عليه تصرفه الذي شبَّ عليه، فيقول:

"فوَيْحَه، ألا فَعَل فِعْلَ "عامرِ بن جُوَينٍ الطائيِّ"[١] مع "امرئ القيس بن حُجْرٍ"؟ وذلك أنَ امرأ القيس لمَّا قُتِلَ أبوه وتشتتَ مُلْكُ بني آكلِ المُرَار، جاوز جَبَلَي طيِّء فنزل بـ "عامرِ بن جُوَيْن" وهو بالجَزْع. ومع امرئ القيس يومئذ جِهازٌ وأثاثٌ من بقايا المملكةِ، وعلى نسائِه حُلِيٌّ ونظام. فكانت امرأةُ عامرِ بن جُوينٍ ترى على نساءِ امرئ القيسِ من الحليُّ واللباسِ مالا تَصِلُ إلى مثلِه، فجعلتْ تُحَسَّنُ لِعَامرِ الغَدْرَ به حتى همَّ بذلك وتردَّدَ في نفسهِ. إلا أنه تهيَّبَ الغدرَ فيُقالُ إنّه لمّا طالَ عليه يَعْتَلجُ في صدرِه من حديثِ الغدرِ والوفاءِ، أتَى موضعاً بالجَزْعِ وهو خالٍ من الناس فصاحَ بأعلى صوته "غَدَر عامرُ بن جُوَيْن" فأجابه الصَّدَى: غَدَر عامرُ بنُ جوين. فقال لنفسه: هاتَا أحسنُهما. ثُمَّ انصرفَ إلى امرأتِه فأخبَرها أنّه لا سبيل له إلى الغَدْر بامرئ القيس".[٢]

ويستشهد في مَعرض الحديث عن التأسي بالشدائد بالخليل بن أحمد كاشفاً بُعداً أخلاقياً اتصف به الخليل، إذ رُوي "أنه كان يمشي مع "ابنِ مُناذرٍ"[٣] الشاعر، فانقطع شِسْعُ نعْل "ابنِ مناذرٍ" فنَزَعَ نعلَه. فلما رآه "الخليلُ" فَعَلَ مثلَ ما فعلَ، فقال له "ابنُ مُناذرٍ": ما هذا يا أبا عبدِالرحمن؟ قال: أرَدْتُ أن أساويكَ في الحَفَاءِ".[٤]

---

[١]- عامر بن جوين الطائي: ابن عبد رُضاء بن قمران الطائي، شاعر وفارس، من أشراف طيّء في الجاهلية، من المعمرين، كان فاتكاً مستهتراً، تبرأ قومه من جرائره، وله حكاية مع امرئ القيس، قتله بعض بني كلب. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص١/٦٥).

[٢]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٥٥٨-٥٥٩. الجزع: موضع بأرض طيء (الحموي، معجم البلدان، ١٥٥/٢)

[٣]- ابن مناذر: محمد بن مناذر اليربوعي كان من العلماء بالأدب واللغة، وتفقه وروى الحديث، وتزندق فغلب عليه اللهو والمجون. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٢/ ٨٤٥؛ المرزباني، الموشح، ص٣٣٥؛ ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص٢٢٥، ٢٦٦).

[٤]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٥٠١-٥٠٢. شسع: سير يمسك النعل بأصابع القدم (ابن منظور، لسان العرب: مادة شسع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن القيم الأخرى جهل الرواة وفساد رواياتهم، ولا ينأى عن هذا الخلل النساخ وعدم تحليهم أحياناً بالأمانة، ومما حكي عن فساد الرواة ما قيل عن محمد بن سلام[١] عن يونس بن حبيب[٢] أنه قال "عجِبتُ لِمن يأخذُ عن "حمّادٍ " وهو يَلْحَن ويكذبُ ويكِسرُ"[٣].

وصور الرواة يبالغون أحياناً في بيان أثر الشعراء في مجتمعهم ودورهم في التاريخ ووحدة الوجود والاندماج في المجموع بصورة مثيرة للغرابة، فمن الأمثلة الغريبة الدالة على تدمير الذات المتفردة في مقابل المجموع من منطلق الشعور المفرط بأهمية الآخر ما فعله معد بن نزار الشاعر حينما نزل به ركب في سنة مجدبة ذبح لهم ابناً له[٤].

وخلاف ذلك، بعيداً عن مبالغة الرواة وانحرافهم، يظهر التمرد على منظومة النسق الفكريّ السائد، فيواجه الفرد معضلة أساسيّة عندما يخضع للمفاهيم المتعارفة في الطيرة، إلا أنّ نفراً يمهُد أرضية جديدة تمنحه القدرة على المواجهة والتصدي ورفض المألوف؛ فعقلاء العرب في الجاهلية كانوا يعيبون الطيرة وأهلها؛ إذ رُوي أنّ النابغة الذبيانيّ وزبّان بن سيار".[٥]خرجا في سفر فلقيَتْهما جَرادةٌ فتطيّر "النابغة" فرجع، ومضى "زَبّانُ" لوجههِ فأصاب خيَراً"[٦].

وتهمين على الشخصيّة الأنساق الفكرية وتستبّد، انطلاقاً من سياق اللغة المتمثل في أمثال العرب، ومن ذلك قولهم "لا تَسْخرْ مِنْ شيءٍ فيحورُ بكَ"، فالذات المستعلية

---

[١] – محمد بن سلام=أبوعبدالله الجمحي .

[٢] – يونس بن حبيب: أبو عبدالرحمن الضبي من أكابر نحاة البصرة (القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، أنباه الراوة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٤٣/٣-١٤٥؛ السيوطي، بغية الوعاة، ٣٥٦/٢).

[٣] – المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص٥٤٢-٥٤٣.

[٤] – نفسه، ص ٢٦٨.

[٥] – زبّان بن سيّار بن عمرو الفزاريّ شاعر جاهلي (ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص٢٤٦).

[٦] – المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ٢٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعترف يوماً بالضعف لأنها أنكرت قيمة غيرها، ومن هذا ما زعمه الرواة من أنّ الأخطل لما بلغه قول "جرير" (من الكامل):

جارَيْتَ مُطَّلَعَ الرِّهان عَشِيَّةً رَوْقاً شَبِيَبتُهُ وعُمْرُكَ فان

قال "أُديلَ واللهِ مني النابغةُ الجعديُّ " وذلك أنهما تهاجيا والنابغةُ شيخٌ والأخطلُ شابٌّ فعيّره الأخطلُ سِنَّه، قال (من الوافر):

لقد جارَى أبو ليْلى بقَحْمٍ وُمُنْتِكَثٍ عن التقريب وانٍ "[١]

وقد يمثل الشعراء ركيزة للسيرورة والتحول "فَغيرُ آمنٍ أخو الحِلْم أن يُزيلَ حِلْمَهُ أمرٌ من القدرِ غيرُ مردودٍ"[٢] والجمل في حديثه هذا يأخذ ظاهر كلام الشاحج حول علي –كرم الله وجهه– دون أن يلتفت إلى التورية المقصودة؛ لذلك فقد اتهم الشاحج بالاضطراب في الرأي بعد حلمه من طول العمل ومشاقه. وهنا يعطي أمثلة استقاها من الموروث الأدبي لشعراء لم يبق عليهم عقلهم، إذ تعرضوا لطارئ مفاجئ تمثل في: طول عمرٍ أو مرضٍ فتجلّت مفاهيم سلوكية جديدة في تصرفهم تنبع من حالة التغيير، بعد أن كانوا من الشخصيات المتميزة في أقوامهم، كالنمر بن تولب،[٣] ومساور بن هند[٤]، والجمل يركز في وصف الشخصية على ما كانت عليه من الحكمة وبُعد النظر وما انتقلت إليه من عُزلة ووحدة وخَرف، فمساور بن هند بن قيس بن زهير لم يبق على هيئته السابقة في الماضي إذ كان "سيداً من سادات غطفان وشاعراً من شعرائها، فأُهترَ وعُزِلَ في بيت، وجُعِلت معه امرأة تحفظه. فنظرَ إليه رجلٌ في بعضِ الأيام وقد أخذ بَعرتين، فأرسلهما من يدَه وقال: " أُرْسِلت الحَوّاء والبَلَنْدَحُ "

---

[١] – المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ٥٦٣. ورد البيت الأول في ديوان جرير، ص٧٢٣.

[٢] – المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٢٧٧.

[٣] – نمر بن تولب: هو من عُكلٍ. وكان شاعراً جواداً، ويُسمى الكيّس، (الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص١٥٩–١٦٤)

[٤] – مساور بن هند بن قيس بن زهير وكنيته أبو الصَّمْعَاء" وهو المساور بن هند بن قيس بن زهير بن جَذيمة العبسي عمّر طويلاً. (العسقلاني، الإصابة ٨٩/٦).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكأنَّ الحَوّاءَ والبَلندحَ في الأصل اسمان لناقتين أو فرسَيْن. فجاءَتْ المرأةُ التي قد وُكِّلتْ به لِتَردَّه إلى البيتِ، فلما رآها عادَ إليهِ مُسْرعاً، وقال: سَوِّي لي لُعَيقَةً إمِّا لا"[١]

وقد يكون الشاعر مُرسِلاً محفزاً حينما أنطق الشجرة التي يشرب تحتها ملوك الحيرة، وقد جاء الشاحج بهذا المثال رداً على سخرية الصاهل من صوته فيعجب من قلة عقله، فصوته أولى بالتفريع، يقول: "فكيف تمنعُ صوتي وهو يتصرَّفُ فيكونُ الرقيقَ والغليظَ والخَوَّارَ، ويطولُ ويقصُرُ وينقطِعُ ويتألفُ..."[٢]، في حين أوّل عدي بن زيد العبادي الشاعر صمت الشجرة في لقاء جمعه بالمنذر بن ماء السماء، وإنما كان ذلك لتخليص السلطة من الشعور الدائم بالوجود، فارتقى بالشجرة إلى درجة الرمز وأسقط عليها وضعاً إنسانياً قابلاً للتصور، فجعلها ناطقة تتحدث، إذ يقول للمنذر:

رُبَّ شَرْبٍ قد أناخوا حولنا يشرَبون الخَمْرَ بالماءِ الزلال
ثُم أضْحَوا لِعِبَ الدهرُ بهم وكذاك الدّهرُ حالاً بعد حال" [٣]

وقد يتحول المدح والهجاء إلى ذاكرة حافظة للفعل الإنسانيّ، ويكاد يكون أثرهما واضحاً في نسيج الفكر العربيّ، إلا أن المعري يرى أن الشاعر غيرُ صادق في المدح ولا الهجاء؛ فهما يكونان لمن عُرف وشهر، ويرى ذمهم دالاً على فضلهم مثلما دل المدح عليهم، وفي هذا المضمار يظهر عدد من الشعراء الذين لم يكن مدحهم لمن حولهم أو ذمهم لهم بمؤثر عليهم وإنما ارتفاعهم أو انتقاص شأنهم بفعلهم لا بفعل الشعر، ومثال ذلك :

---

[١] – المعري، رسالة الصاهل والشاجح، ص ٢٧٧.

[٢] – نفسه، ص ١٩٣.

[٣] – نفسه، ١٩٢-١٩٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"جرير لم ينقص شرف دارم[١] مع كثرة أشعاره فيهم"[٢]، و"لم يُصدَّق "البرجمي"[٣] أنّ المرأة بالكلب زنّي"[٤]، ولم يرزأ علقمة[٥] فتيّلاً عن مجد ما قاله أعشى قيس بن ثعلبة[٦]، "وما الذي أفاده النبي لمّا امتدحه كعب وحسّان" [٧]، وما نُظِم في النعمان لم يُنْجِه من الموت ولم يثبت له منقبة[٨].

---

[١] – دارم : قوم الفرزدق من سادات تميم.

[٢] – المعري، الصاهل والشاجح، ص ١٧٦.

[٣] – البرجمي: ضابئ بن الحارث بن أرطأة من بني غالب بن حنظلة من البراجم (الجمحي، طبقات الشعراء، ص١٧١؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص٣٠٩/١-٣١٢؛ ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص٢٢٣). وينظر حاشية الصاهل والشاحج، ص١٧٦.

[٤] – المعري، رسالة الصاهل والشاجح، ص ١٧٦، وكان ضابئ قد استعار كلباً من بعض بني جَرْوَل بن نهشِ، فطال مكثه عنده، فطلبوه فامتنع عليهم، فعرضوا له فأخذوه منه فَغَضِبَ ورمى أمهم بالكلب واسم الكلب مرجان (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص١٦٧/١).

[٥] – علقمة بن علاثة، تنازع الرياسة مع عامر بن الطفيل وتنافرا، وتعصب الأعشى لعامر وهجا علقمة (الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص١١١-١١٢؛ وابن قتيبة، الشعر والشعراء، ٢١٦/١- ٢٣٥).

[٦] – الصاهل والشاجح، ص ١٧٧.

[٧] – نفسه، ص١٧٨.

[٨] – نفسه، ص١٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الشخصية الرمزيّة

اتكأ المعري على الحيوان في نثره بشكلٍ واضحٍ، واتخذت تلك القصص شكلاً فنياً مستقلاً مترابطاً تارةً، وتارة كانت ترد في وحدات قصصيّة صغيرة داخل سرد غير قصصي. وتوفر تلك القصص الحيوانيّة أرضية مريحة للانطلاق، وهي "ليست قصصاً واقعية من سلوك الحيوانات إنما هي أمثولات يتحدث فيها الحيوان مثل البشر، ويكون فيها قناعاً لمنطق إنسانّي"[١]

ولعل من أهمّ الوظائف التي تقوم بها قصص الحيوان، الوظيفة الرمزية وهي قناع مناسب لنقد السلطة وتعرية مفاسدها، كما تعدُّ إطاراً مناسباً تاريخياً وحضارياً لنقد نظام الحكم وما ينطوي عليه، فالقصة "القناع على لسان الحيوان تتيح الفرصة للكاتب أن يَخرق المحظور فلا يُؤاخذعليه".[٢]

وتسّهل مثل هذه النماذج القصصيّة الحيوانيّة معرفة الأوضاع السياسيّة ومعرفة حقيقة المخاطب الذي وجهت إليه تلك الرموز، فالمتكلم يستعمل الرمز في كلامه " فيما يريد طيه عن كافة الناس أو الإفضاء بهِ إلى بعضهم ". [٣]

ويخفى المعري وراء شخوصه الرمزيّة؛ كي يبثّ خطابه السياسي والاجتماعي الإصلاحي؛ لأنّ السّوء يتضاعف وتضيق مساحة الحرية، فقد عاش المعري في عصر " كثرت فيه الفتن واشتّد فيه الظلم، وانتشر فيه الفساد، وشاع فيه الكيد، واختلفت

---

[١]- غزول، فريال، قصص الحيوان بين موروثنا الشعبي وتراثنا الفلسفي، فصول ، م١٣ع٣، ١٩٩٤، ص١٣٦

[٢]- النجار، محمد رجب، حكايات الحيوان في التراث العربي، عالم الفكر، م ٢٤، ع١+٢ ، ١٩٩٥، ص ٢٠٨.

[٣]- ابن وهب الكاتب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم (ت ٣٣٥هـ)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ص ١٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على وطنه الدول، فلم يبسط عليه السلطان، ولم ينله بأذى على كثرة ما نعى على الملوك والأمراء سراً وجهراً" .[١]

أولاً: الشخوص الرمزيّة في رسالة الصّاهل والشاحج:

تقدم رسالة الصاهل والشاحج – القصة المترابطة في مشاهدها– نقداً واضحاً؛ لسوء السّلطة وفسادها ومعاناة الرعية وسلبيتها؛ إذ توجه بها المعري إلى "عزيزالدولة[٢] وتاج الملة أمير المؤمنين" .

تجمع هذه القصة بين الصاهل (الفرس) والشاحج(البغل) الذي قدم من مصر قاصداً حلب، ويدور حوار طويل بينهما حول ظلم الدنيا وما يلاقيه الشاحج من شدائد تحت سطوة الحضور الإنساني، فيطمع الشاحج في أن يُحمّل الصاهل تظلمّه إلى عزيز الدولة شعراً يبين فيها الإساءات المتكررة من بني البشر، وتكمن رغبته في إيصال الرسالة عن طريق الصاهل لارتباطه معه بعلاقة الخؤولة، إلا أنّ الصاهل يأنف من انتساب الشاحج إليه، فيسخر من صوته ويقلل من قدره وينكر عليه ادعاء نظم الشعر، فيثير ذلك الكلام حفيظة الشاحج فيردّ عليه مؤكداً خطأه في رؤيته فهو غير مناسب لرفع مظلمته، ويفضي كلامه إلى خصومة، فيطلب الصاهل الاحتكام إلى فاخته(نوع من الحمام) من شعراء الطير، فيرفض الشاحج ذلك؛ لأنّ الفاختة مشهورة بالكذب والحمق والخفّة، ويريد الشاحج الاحتكام إلى أبي أيوب (الجمل)، فينكر الصاهل عليه ذلك لِما عُرف عن الإبل من الحمق، فتسرع الفاختة مغتاظة إلى أبي أيوب

---

[١]–حسين، طه، مع أبي العلاء في سجنه، طه حسين، ص٦٩ ، وقد كثر الحديث عن عصر المعري، إذ كان عهد استبداد وتفرد بالحكم، ويعتمد فيه الحكام على القوة والبطش، ومن هنا فقد رفض المعري أي تيار سياسي قائم في عصره وجعل همه ما يحيط مجتمعه من تمزق وضياع، (زيدان، عبدالقادر، قضايا العصر في أدب ابي العلاء المعري، ص ٢٥٥). وبذلك فقد تعرضت المعرة لأحداث كرهها المعري وقد أصبحت فيها كالكرة يتقاذفها الفاطميون والأعراب والروم. ولذلك فقد أثرت تلك الأحداث في أدبه وشاع فيه روح السخرية (الكيالي، سامي، المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري، ص١٨٣).

[٢] – عزيز الدولة: كان عزيز الدولة لبنجوتكين مولى العزيز صاحب مصر. وكان بنجوكتين شديد الشغف به؛ وكان أديباً عاقلاً كريماً كبير الهمة. فولاه الحاكم حلب وأعمالها؛ ولقبه أمير الأمراء، عزيز الدولة، وتاج الملة. (ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص٢١٦/١). وصنف له أبو العلاء رسالة الشاحج وكتاب القائف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقلب كلام الشاحج، فيغضب الجمل ويهتاج ويعـضّ شـفة الشـاحج، إلا أنـه سـرعان مـا تتكشف مكيدة الفاختة، فيطلب أبو أيوب من الشاحج أن يُحمّلـه رسـالة نثريـة إلـى عزيـز الدولة تكفيراً عن ذنبه لإساءته إلى الشاحج، ولكنّه لم يفهم مـا فيهـا مـن إلغـاز وتوريـة، فيرى الشاحج أنّه غير مؤهل لحمل رسالته.

ثُمَّ ترد الضبع فيسخر منها الشـاحج لعلمـه بأنهـا أغبـى الحيوانـات، ويهـزأ مـن حمقها، وتُلقي على الشاحج سؤالاً يحمله على السخرية منها، خادعـاً إياهـا بأنهـا هـي مـن ذكرها الشعراء بكُنى (أم عامر) و(أم عـويمر) و(أم عمـرو) فـي الغـزل مـن أشـعار الشعراء، وتعرض مساعدتها في حمل حاجته مـع صـديق لهـا مـن كـلاب حلـب، إلا أنّ الشاحج يشكرها ويُبدي يأسه من إرسال تلك الرسالة وبلوغ مآربه.

ويدور حوار بين الثعلـب والشـاحج ينتهـي إلـى مـودة وصـداقة حميمـة بينهمـا، ويكون الثعلب عالماً بحاجته، وينشـأ بينهمـا حـديث حـول الجفلـة بسـبب غـزو الـروم المتوقع، فيطلب الشاحج منه أن يأتيه بأخبار الجفلة بمـا فيهـا حلـب وأهلهـا؛ لأنـه يتمتـع بالحرية التي يفتقدها الشاحج؛ فعيونه معصوبة وحركته محدودة، ويغيـب الثعلـب مـدة مـن الزمن فيبتهج الشاحج لعودته ويتبادلان الحـديث عـن أخبـار الجفلـة والجـالين الهـاربين وعودتهم وأخبار زعيم الروم وعزيز الدولة.

جدير بالذكر أن أقـوال البـاحثين حـول سـبب تـأليف هـذه الرسـالة قـد تعـددت وتباينت، فرأى طه حسين أن المعري ألفها إلـى عزيـز الدولـة بقصـد دفـع الحكـام عنـه بكتب في اللغة يعنونهـا بأسـمائهم فيتخـذ مـنهم أصـدقاء.[١] فـي حـين عـدت عائشـة عبدالرحمن "أن الكتاب رسالة وجهها على سبيل التطـوع والإهـداء لا علـى وجـه التزلُّـف والتقيّة والمداراة كما ذهب طه حسين، بل أملاها تحـت ضـغط وإلحـاح مـن أبنـاء أخيـه لكي يرفع مظلمتهم إلى والي حلب "عزيز الدولة" وهي تتعلق بـأرض قاحلـة، رفـع الجبـاة إلى والي حلب العزيز أن عليها مالاً ينبغي أن يـؤدوه إلـى بيـت المـال"[٢]، أمـا صـلاح

[١] – حسين، طه، تجديد ذكرى أبي العلاء، ص٢٨٨.

[٢] – المعري، رسالة الصاهل والشاحج، مقدمة المحققة عائشة عبدالرحمن ، ص٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فضل فيرى أن سبب تأليف هذه الرسالة لم يكن طلب الشفاعة لأبناء أخيه فقط، وإنما ينظر من هذه الرسالة إلى منصب استشاري أو وزاري أو يبحث عن مكانة علمية تليق به أو أن يجد مكاناً في مجلس عزيز الدولة،[١] في حين رأى إبراهيم السامرائي "أن رفع المظلمة لم يكن سبباً في إملاء هذه الرسالة؛ وذلك لأن أبا العلاء حشر هذه المظلمة في أول رسالته مستجيباً لأبناء أخيه، وإلحافهم الشديد، ثم انصرف إلى مادته وهي أشياء ذات خطر عظيم وهي الغرض من هذه الرسالة، فَعرض للأحداث والمخاطر التي تتهدد الرعية". [٢]

لذلك فإنّ اللحظات الأولى للقاء الصاهل بالشاحج كانت محمّلة بالتوتر، فمحنة الشاحج تبدأ، ومشكلة الصّاهل تظهر منذ أن دار نقاش مطول بينهما حول النسب، فالصاهل يأنف من الخؤولة مع الشاحج ويغضّ من قيمته، وبدت هذه الإشكالية منطوية على علاقة التضاد؛ ممثلة بالإحساس بالسيد في مقابل العبد القائمة على العصبيّة ، وهي بداية الانهيار وخلق الخصومات، كما تكشف علاقة الصاهل بالشاحج عن حالة من التمحور حول الذات التي تنحرف انحرافاً حاداً، فالصاهل لا يهمه سوى نفسه، ونزعته الذاتية تتحكم به، ويمارس أنانيته على حساب مشاعر الآخرين وسعادتهم، يقول الشاحج :" أمّا أنَفتُك من خُؤولتي . فإنّ الأنَفَ أخو الشَّنَفِ. وكلٌّ متكبرٍ مَقِيتٌ ، ورُبّ عبدٍ هو أزكى من سيده. وأمَةٍ برئتْ من الآمَة، أفضلُ من الحُرَّةِ لحِقتْ بها المَلامة، وأنسابُ الحيوان أمرٌ مخبوء، وما يدريكَ لعل " المرتجِزَ" " خالي، و" الدُّلْدُلَ " من أسرتي ويعفوراً" أبي أوعَمِّي". [٣]

أما محنة الشاحج الأخرى فتظهر في العُصابة التي تُغطي عينيه، وهذا السلوكُ يخفي غلياناً في باطنه وإرهاصاً لهذا الغليان، وتنطوي عليها محاولة لتفادي

---

[١]- فضل، صلاح، نثر أبي العلاء المعري (دراسة فنية)، ص١٦٢-١٦٣.

[٢] – السامرائي، إبراهيم، ، مع المعري اللغوي، ص ١٠٤

[٣]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، المعري، ص١٦٧؛ الآمه: العيب، (ابن منظور، لسان العرب، مادة أم) المرتجز : فرس كان للنبي عليه السلام(نفسه، مادة رجز)، الدلدل: بغلته (نفسه، مادة دلل)، يعفور: حمار النبي عليه السلام (نفسه، مادة عفر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رؤية الأوضاع والعيوب المحيطة، كما تعبر عن الظلم الشامل واليأس من تلك الأوضاع، إلا أنّه في حقيقة الأمر يشعر بها شعوراً عميقاً وينتقد الفساد، فالعيون المعصوبة ستفتح على فاعلية أكبر وتعثر على ضالتها البصرية بالشعور والإحساس، ولعلّ الحوار الذي يدور بين الصاهل والشاحج يحمل تلك الأبعاد:

فيقولُ الشاحجُ، بفضلِ الحسُّ:

"من أين طرأ علينا الكريمُ؟

فيقولُ الصاهلُ :

– ومن أين علمتَ بالكرمِ، ومن دونِ عَينكِ حجابٌ قد شُدَّ، لو كان دون العينِ النابعة لما فارتْ، أو العينِ الطالعة لما أنارت "؟

فيقولُ الشاحجُ:

عرفتُ كرمَكَ في وَطْئِكَ وصوتِك، لأنّ الرائعَ قموصُ الرِّجل، بحِجْلٍ كانت أو بغير حِجْل. ولأن جُشَّةَ في الصهيل تكون بعْتِق الفرس أبْيَنَ دليلٍ"[١]

والشاحج يمتلىء بالمشاعر والانفعالات الإنسانيّة، فيحيل إلى النظام الاجتماعي وفساده والسلطة وتعقيداتها العديدة، وليلأم الصدعَ الذي شقه المجتمع بنفاقه وتملقه، ينخرط الشاحج في المجموع، فهو وإن كان يبدي أحياناً توافقاً ظاهرياً مع الواقع؛ إلا أن نفسه ترفض ما يغرق فيه الناس من نفاق، فتكيفه مع بيئته ما هو إلا تكيف المُلمّ بالأوضاع وليس الغافل عنها، فهو يريد أن يرسل مظلمة إلى عزيز الدولة، وتحمل تلك المظلمة الشعور المستمّر بالمرارة والظلم والقهر، وكما توحي علاقة الشاجح بالسلطة بعلاقة التابع بالمتبوع ، فإذا ظفر بتلك النظرة تحققت مآربه وبلغ مراده، ومن هنا فقد كان كلام الصاهل عن كرم عزيز الدولة وعدله الذي عمَّ البلاد فيه مبالغة كبيرة فلو كان مطراً كما وصفه لانتفع منه الشاحج وعمّهُ خيره، ويشي ردّ الشاحج على الصاهل بتفرد عزيز الدولة عن الملوك باهتمامه بالعلم والأدب، إلا أنه في حقيقة الأمر منشغل عن قضايا الناس بالأدب والشعر، يقول الشاحج :

---

[١]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٩٢–٩٣. قموص: وثابّه (ابن منظور، لسان العرب، مادة قمص).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" – فإلى أين المَحْرَدُ؟

فيقول الصاهل:

– إلى حضرةِ مُواسٍ آسٍ ، قَدْ بَسَط آمالَ الناس،أديبٍ آدبٍ، ما هو بجَديب ولا جادِب. كاد يكونُ عَدْلُه في الآفاقِ مَطَراً، وتأرَّجت البلادُ بثناءٍ عليه، فَهَمَّ الجَوُّ أن يكونَ عِطراً. أقام السوقَ للفصاحةِ، وأذْكَى القلوب بالتذكِرَةِ، وأيقظَ العيونَ من طولِ الرقدةِ .

فيقولُ الشاحجُ:

– صَدَقَ زاعمٌ فيما زعَم، إنه لكَما تَصِفُ وأنعم، وهو على إدراكِه جدَّ العُظماء، ضاربٌ بالسَّهم الفائزِ من سِهام العلماءِ. وليس كذلك جماعةُ الملوك؛ لأنهم يُرْهَبون فلا يُؤدَّبونَ، وإذا كان أحدُهم صغيراً، كان في الباطلِ واللعبِ مُغرِياً ، حتى إذا كَبرَ أنِفَ فلم يَستأنِف" [١]

إلا أنّ إيحاءات كلام الشاحج تبدو مسلطة على كل ما من شأنه أن يمثل اعتداء عليه وانتهاكاً لكرامته، فالشاحج مسكون بروح التمرد لقناعته الخاصة، فينبه إلى ما يعانيه المجتمع من اهتراء وما يعانيه هو ذاته من انتهاك يوميّ من المزارع وشريكه وأصدقائهما، وهذه المعاناة لا تنسجم والعدل الذي تحدث عنه الصاهل، فالظلم موجود في كل شيء، حتى في طريقة معاملة الحيوانات، يقول :

" إني مع الذي ألاقيه من قلة الدَّعَةِ وعُنْفِ السياق، يسوسني أجيرٌ كسلانُ إذا سأله المُلاَّكُ: أأرويتَه من سُوَيد ؟ قال: نعم. أحَشَشْتَه بعد ذلك؟ أأوسعتَ له من الحَسِيكِ؟ أتفقَّدتَه من آثارِ الأبرار ؟ قال: أجلْ نعم ، حَوْب![٢]"

---

[١]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٩٥؛ المحرد: القصد(ابن منظور، لسان العرب: مادة حرد)

[٢]– المعري، رسالة الصاهل و الشاحج ، ص٩٨، السويد : الماء (ابن منظور، لسان العرب، مادة سود)، أحشى الدابة: ألقى إليها الحشيش (نفسه، مادة حشي)، الحسيك : نبات تُعلَّق ثمرته بصوف الغنم ورقه كورق الرجلة ، وأحسك الدابة : أقضمها (الفيروزأبادي، القاموس المحيط، مادة حسك)، الأبرار : جمع بر الفأرة والجرذ (ابن منظور، لسان العرب، مادة برر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أمّا القول: إنّ الشاحج كان يُعاني صراعاً في هذا المشهد، فاضطر إلى تفريغ هذا بالثرثرة فيما ينفع وفيما قد يضرّ، وتمثل ذلك بالعوامل النفسيّة، فهو "يُصارعُ الملل بالتسلي من خلال عينيه المحجوبتين حتى لا يرى حقيقة نفسه الخارجية وهو يثرثر حتى ينسى حقيقة نفسه الداخلية من زاوية أنّه (بين بين) فلا هو حصان ولا هو حمار"[1] ، فإن فيه شيئاً من المبالغة والتجني على الشاحج . فحالة الاستياء ومرحلة الاشمئزاز التي وصل إليها إنّما هي نتيجة لانفعاله بالأحداث الخارجيّة، فالشاحج بالمعطيات التي تمثل بها في المشاهد المختلفة امتداد لحقيقة المعري، والسمات المشتركة بينهما تكاد تكون واضحة ، فكلاهما يُعاني الظلم والعزلة، وكلاهما يُعاني الحرمان وفقد البصر، وكأنّ المعري يؤرخ لنفسه تأريخاً خاصاً باللجوء إلى الشاحج؛ فالشاحج يحمل شيئاً من صفات المعري ويحتضن الصفات الخاصة به، فهو لا يُخفي قلقاً كان يسيطر عليه وهو يقف من مسائل السيادة والسلطة، كما أنه كان مهتماً بتحسين الوضع الاجتماعي وإصلاحه، وتمثل هذا في تعبيره عن الجفلة الذي جاء مليئاً بالإيحاء؛ ولذلك فالشاحج كان الشخصية التي تطرح آراء المعري ومواقفه، ومن هذا المنطلق فقد ظهر حضوره من بداية الأحداث إلى نهايتها، فكان الشخصية المركزية التي سُلطت عليها الأضواء.

وبعيداً عن ذلك، فإنّ مرواغات الرعية تظهر واضحة، فقد وطنوا النفس على ممالأة السّلطة، إذ لم يعودوا يرون غير ما ترى، ويكشفون بدعائهم المتكرر في غير مشهدٍ عن وجهٍ قبيح لمنْ وهبوا أنفسهم لخدمة أغراضهم ، ويشير تصرفهم المتكرر إلى الوجه الآخر للسّلطة فهي تقوم على القمع، فالعامة ينسحقون في ظل السُّلطان الفاسد، وأهل حلب يحبون عزيز الدولة ويشفقون عليه إشفاق الجبناء، وهل للجبان المتخاذل أن يشفق! وبما أنَّ الرعية لا تشكل خطراً على عزيز الدولة أي السّلطة، فإن غَيْرة حكماء الرعية – والشاحج أحدهم – تنصرف إلى تحذيره ممن يحيطون السّلطان في قصره. والخوف – بطبيعة الحال– من صديق مخادع، فالسّلطان " خلَّد

[1]– سلام، أبو الحسن، الظاهرة الدرامية والملحميّة في رسالة الغفران ، ص ٢٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللهُ مُلْكَه- يتبَدَّلُ تبدُّلُ الشُجّعان، ورعيَّتُه يُشفِقون عليه إشفاقَ الجُبَناء إنما ينبغي أن يقعَ الاحتراسُ من صديقٍ هو معه مِثْلُ الذئبِ مع "هَمَّام بن غالبٍ".[١]

وقد بدا موقف المعري من عزيز الدولة غامضاً، فالمدح المبطن على لسان الجمل للشاحج عن حبِّ أهل حلب لعزيز الدولة يوحي بالحرص والرغبة في إصلاحه، حين قال: "فإنّ حُبَّ السيدِ عزيزِ الدولةِ أميرِ الأمراءِ "أعزَّ اللهُ نصرَه" قد غَمرَ قلوبهم وغَطَّى أعيُنَهم. ومن الكلام القديم: حُبُّكَ الشَيءَ يُعْمِي ويُصِمُّ".[٢] فهو أقرب إلى المدح بما يشبه الذم

وإذا كانت الرعية تبارك أعمال السُّلطة لضعفها ، فإنّ السّلطة تتمادى في إساءاتها، وكلما زاد ضعف الرعية زادت السلطة في غيها؛ فمعاناة الرعية التي لا حدود لها تختبئ السُّلطة وراءها فيتّضح تواطؤ الحكام مع العدو دون خجل أو تورع، إذ تُعقَد الاتفاقيات مع العدو سراً وعلناً ، فسماع الشاحج لخبر قدوم الروم إلى أرض المسلمين كذب تنكره الاتفاقيات المبرمة بين حاكم حلب وملك الروم ، يقول الشاحج مكذباً قدوم زعيم الروم مشيراً إلى تلك الاتفاقيات :

" وإني لأحسَبُ هذا الخبرَ كذباً إن شاءَ اللهُ؛ لأنّ مَثَلَ السيدِ "عزيز الدولة وتاج المِلّة أميرِ الأمراءِ "، أعزّ اللهُ نصرَه، ومَثَلَ زعيمِ الروّم، مثَلُ بازيَيْنِ لكُلٍّ واحدٍ مِنْهما فِرَقٌ من الطيرِ تَحمِلُ إليه الإتاوةَ، وقد تعاقد البازيانِ ألاّ يَعرِضَ واحدٌ منهما لما في حَيِّزِ الآخرِ من الخَشاشِ".[٣]

وبما أنّ أي صراع بين طرفين ستكون نتيجته غالباً ومغلوباً، فصراع المسلمين مع الروم محسوم قبل خوض المعركة، إذ إن وضع المسلمين يوحي بالضعف والتخاذل؛ لذلك فإنّ الهدية التي أرسلها زعيم الروم إلى حاكم حلب وهي مجموعة من الغلمان، وردوا من بلاد الروم إلى الحضرة العالية كانت لحقن الدماء. وقد حارت

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ٧٠٢-٧٠٣ ، همام بن غالب = الفرزدق.

[٢] - نفسه، ص ٣٧٦.

[٣]- نفسه، ص ٤١٥، الخشاش : شرار الطير (ابن منظور، لسان العرب، مادة خشش)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرعية في شأنها فتساءلوا هل هم هدية، أم اشتراهم عزيز الدولة بماله؛ وبذلك تحرص السُّلطة على إظهار مواقف مزيفة للخداع، فأيّ رأفة ستحلّ بالرعية بعقد الاتفاقيات مع العدو وتبادل الهدايا، ثم إنّ الهدية مسألة شكلية للحفاظ على أمن الرعية كما تدّعي السُّلطة، إلا أنّ حقيقة الأمر تتمثل في إغراء السُّلطة الذي يجعل عزيز الدولة غير مهتم بأيمّا شيء إلا المحافظة على عرشه، يقول الشاحج ساخراً من الهدايا المتبادلة بين الطرفين:

" وقد حَمَلَ "السيدَ عزيزَ الدولةِ" – خلَّدَ اللهُ مُلْكَه – ما فيه من الكرم والرأفة بالرَّعيَّة، الرغبةِ في حَقْن الدّماءِ، على أنْ بَعَثَ هدَّية سَنِيَّة أَشَبَهتْ شرَفَ قدْره وعزوفَ نفسِه، والهَدَّيةُ مَثَلها مثَلُ "ما" التي تُكفُّ العاملَ عن العَمل". [١]

ويشي كلام الشاحج بالموافقة وتبني مواقف السُّلطة والتسليم بحسن النوايا وبصحتها، إلا أنّه بهذا التصرف يعكس تعامل العامة مع السُّلطة؛ وبذلك يُظهر فكراً مريضاً استقّر في الأذهان بالمصائر، فيصل الأمر بالسلطة إلى الاستعانة بعدو أمتهم على خصومهم من المسلمين مشيراً إلى أنّ التناحر بينهم سببٌ في ضعفهم وطمع العدو بهم ، يقول في وصف المشهد:

"خرج زعيمُ الروم سنة خمسٍ وثمانين في إبَّان الربيع، وإنما حَملَتْه على ذلك ضرورةٌ دعتْ إليه؛ لأنَّ مَن كان بحَلبَ – حَرَسها اللهُ – استدعاه لينصُرَه على محاصِريه". [٢]

وإضافة إلى ما يجري داخل القصر من صراع واضح بين أقطاب الحكم عامة مما يدلل على التنازع والضعف؛ إذ تتحدث العامة أنّ مضيء الدولة– نصر بن نزال–

---

[١]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ٤٢٠

[٢]– نفسه، ص ٤٨٨؛ وهذا إشارة إلى ما قام به أبو الفضائل سعيد الدولة من استعانة بملك الروم "باسيل" ضد أمير الجيوش بنجوتكين التركي الذي كان والياً بدمشق من عزيز مصر، وقد كان حاصر مدينة حلب، فخرج "باسيل" في ثلاثة عشر ألفاً، فعلم به بنجوتكين، فرحل عن حلب منهزماً، فخرج أبو الفضائل إلى ملك الروم ومعه هدية، فقبلها، (ابن العديم، زبدة الحلب، ج١/١٩٠-١٩٢).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فسد ما بينه وبين السّلطان بسبب ما ألحقه به أحد أولاده من تهمة الخيانة، وقد كان هذا الابن مخموراً. [١]

ولم يغفل المعري عن الإعلام ودوره في تلميع السلطة، فهو ركيزة من ركائزها، لذا هي تحتفي به أيما احتفاء، وهو يجيد التلفيق والتزويق، ومن ذلك ماشاع حول رغبة عزيز الدولة في إيناس الرعية، ورأفته بمن ولي من العامة وهذا ما دفعه إلى تكليف " أسد الدولة "[٢] أن يحمل إلى حلب والدته " الرباب" إيثاراً لسكون الأنفس وإعلاماً للسواد الأعظم بالتئام الكلمة والتضافر على صدّ الأعداء، [٣] وفي هذا إشارة إلى النفاق السياسي للرعية ، فالأمر لا يعدو كونه خداعاً سياسياً، فالحاكم لا يهمه أمر الرعية بقدر اهتمامه بإبعاد " الرباب" عن الخطر المتوقع .

ومرة أخرى يُلمّح المعريّ إلى الحرب الإعلاميّة والنفسيّة التي يحاول بها عزيز الدولة دفع العدو عن حلب؛ وذلك بحفر خندق حول المدينة، وهنا متكئاً على لسان العامة ليسخر من هذا الصنيع فقد زعموا: أن السلطان" – أطال الله بقاءه– لو لم يثبت عنده خروج الطاغية لم يأمر بحفر خندق والمعري يرد ساخراً مشبّهاً ما فعله عزيز الدولة بما فعله الرسول –عليه السلام– لـــّما حفر الخندق حول "المدينة " وقد وعده الله بالعصمة. [٤]وقد يكون توظيف التاريخ هنا إشارة إلى التذكير بماضٍ عتيدٍ لإحباطات الحاضر فيكون التاريخ بحثاً عن تعويض، فأين أفعال النبي مقارنة بتخاذل عزيز الدولة وضعفه.

والرعية لا ترتقي في هذه الأحداث العديدة إلى الرفض، فقد وصلت إلى درجة عالية من الهشاشة والخور حتى ليغلب تصوير (أبطال رسالته) أو تشبيههم بالحيوانات بتنازلهم عن إنسانيتهم ورضاهم بالذّل والهوان، فالصاهل والشاحج، والثعلب،

---

[١]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٦٩٩

[٢]– أسد الدولة : صالح بن مرداس ، مؤسس الدولة المرداسيّة في حلب استولى عليها سنة ٤١٥بعد حصار دام ستة وخمسين يوماً (ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب ٢٢٧/١).

[٣]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ٥٢٠–٥٢٣.

[٤]– نفسه، ص٦٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والضبع، والجمل، والفاختة، يمثل كلٌ منهم قطاعاً من الرعية، وتكشف كل شخصية رمزيّة عن جشع السُّلطة وبطشها ، كما تكشف عن السُّلطة التي لا تؤمن إلا بوجودها هي، أما الرّعية فليسوا إلا لخدمة هذا الوجود وتسخيره، وتتمثل البؤر الرمزية في الحيوانات في الآتي :

فالحكمة والذكاء في الشاحج والثعلب.

والغرور والنفاق في الصاهل .

والغباء والجهل في الضبع .

والحقد والكذب والفتنة في الفاختة .

وإدعاء معرفة اللغة والأدب والجهل والحمق في الجمل .

ثم إن الطي والإخفاء يتبدى في المسائل التي طرحها الشاحج على الجمل، وأراد منه إيصالها إلى الحضرة نثراً، فما سيذكره له في السمع ظاهر وفي المعنى باطن، وقد نحا فيه منحى "ابن دريد"[١] في كتابه "الملاحن"[٢]، ومنحى ابن فارس في كتابه "فُثيا فيقه العرب"[٣]، إلا أن الجمل أخذ المعنى على ظاهره مما أوقعه في الخلط، فظن أنّ الكلام موجه ضد علي – رضي الله عنه – وضد المهن كـ"البزّاز" و"القزّاز" و"الخزّاز"، لذا اضطر الشاحج إلى تفسير ما غمُض، ومن ذلك أن الريحانتين (الحسن والحسين) لم ير أحدهما الآخر[٤] وإنما قصد الشاحج بالحسن والحسين كثيّبي رمل، [٥]

---

[١] –ابن دريد: محمد بن حسن بن دريد، ولد بالبصرة سنة ٢٢٣هـ، كان واسع الرواية (وقد ورد ذكره في القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، ٩٢/٣).

[٢] –الملاحن: وهو كتاب لابن دريد، (وقد ذكره القفطي في إنباه الرواة على أنباه النحاة، ٩٦/٣).

[٣] – فُثيا فقيه العرب: عرّفه القفطي في إنباه الرواة فقال: كان ابن فارس يحثّ الفقهاء على معرفة اللغة، ويلقي عليهم مسائل كثيرة ذكرها في كتاب اسماه فتيافيقه العرب، ويخجلهم بذلك؛ ليكون خجلهم داعياً لحفظ اللغة (إنباه الرواة، ج٩٢/١).

[٤] – المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٢٣٥.

[٥] – نفسه، ص٣٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما قوله إن الزهراء لم تر علياً في بيتها[١] فعنى بالعلي الفراش الشديد الصلب[٢]، أما قوله إن علياً أحلَّ دم الأعرج والأعيرج في الحرم[٣] فإنه قصد بالأعرج الغراب أو الذئب[٤].

ثانياً: الشخوص الرمزية في رسالة الهناء:

كان الواقع الاجتماعي واحداً من أهمّ الموضوعات التي تناولها المعري في نثره وضمنه العديد من قضايا الإنسان ومشكلاته العديدة والعلاقة القائمة بينه وبين السُّلطة، ولجأ إلى الأسلوب الرمزيّ ممثلاً بالحيوانات للتعبير عن هذا الواقع.

وانطوت رسالة الهناء على ما فيها من مدح فريد لشخوص سياسيّة لم يعلن اسمها قدحاً وذماً، وقد بلغت الصورة التي تمثلتها السُّلطة حداً كبيراً من السخرية.

ولعل النماذج المعروضة تُوحي بالعلاقة بين الشُّخوص والسُّلطة، فغالباً ما تنشدّ خيوط السُّلطة إلى القمع، كما أنّها توحي بقدر من الحرية يُستهان به لصغره، فالقصتان اللتان يُوردهما المعريّ في سياق رسالة الهناء تشي بكل ذلك، فالمحسن (المادح) في كلا القصتين يُكافأ بالإساءة لأنه ليس أهلاً لمدح السادة.

وتُقدّم القصة الرمزيّة في رسالة الهناء في مشهدين أبطالهما من الحيوان إشارة إلى نفسه المرسل وإلى مراسله ، فهو يتصدى في رسالته لتهنئة الأستاذين مشيري السُّلطان " شبل الدولة " فكنية وزير شبل الدولة (الضيف) أبو علي، أما كنية المضيف فهي أبو فلان في زمن الدولة المرداسيّة.

والمعريّ يؤكد في غير موطن أنّه ليس أهلاً أو كفؤاً لتهنئة هذين الوزيرين النصرانيين "فلا يوازيهما في الكفاءة إلا من كان مُدبراً لشؤون الحكام من النصارى

---

[١] – المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٢٣٦.

[٢] – نفسه، ص٣٥٢.

[٣] – نفسه، ص٢٤١.

[٤] – نفسه، ص٣٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كعدي بن زيد العباديّ النصرانيّ في كتابته للنعمان أو ممن كانوا في الأصل نصارى مثل سهل بن هارون[١] وصاعد بن مخلد [٢] "[٣] ولعله بهذا ينقل واقعه الذي لم يعد يعتمد الكفاءة معياراً لمن يتولى المناصب المهمة في الدولة.

ويمثل الفأر والعصفور المعري الذي لا حول له ولا طول في ضعفه، فهو غير قادر على درء الشرّ عن نفسه، في حين يمثل الأسد وعظيم الجوارح مراسله في قوته وسطوته وبطشه. وباختياره هذين النموذجين يمثل عمق الهوة بين السلطة والرعية، فالسلطة تزداد بطشاً والرعية تزداد ضعفاً وسحقاً.

ومما يُذكر في هذا المضمار قصة لأسدٍ حاز على فرس لبعض الملوك وساق الأسدُ الفريسة إلى العريشة، فقدمت الحيوانات مهنئات من الهيبة منحنيات، فتصدى للتهنئة فرنب(ذكر الفأر)، فغضب الأسد. وأشار النمر إلى هرّ أن ينال من الفأر بأصناف الشّرّ، فصاح الفأر بين مخالب القطّ:"مَا ذَنْبِي، وأوكَلُ في جِوَار الجَبّار: أسامة. فقال له بعض الأجناد : أهّلْتَ نَفْسَكَ لِخطابٍ: ما كُنْتَ لَهُ بِأهْلِ ، فَعُدِدْتَ مِن أصْحَابِ السَّفَهِ والجَهْلِ." [٤]

وتشكل السُّلطة في اللوحة السابقة مصادر التشويه والقبح، كما أنها تُسهم في تعميق الغربة عند الشخص، فالسُّلطة تزيد من أدوات القمع التي تسيطر على الرعية وتسلبها حريتها، وهكذا فإنّ العقوبة التي نالها الفرنب لا تتناسب والذي اقترفه، فما اقترفه يستحقُّ الجزاءَ الحسن لا العقوبة ولا الإساءة .

---

[١]- سهل بن هارون: سهل بن رامنوي، فارسي الجنس انتقل إلى البصرة كان حكيماً وفصيحاً، ولقب "بزرجمهر الإسلام"، (النديم، أبو الفرج محمد بن أبي بعقوب إسحق المعروف بالوراق، الفهرست، تحقيق رضا تجدد بن علي بن زين العابدين، ص١٥١-١٥٢؛ الحموي، معجم الأدباء، ٣/٤٠٤-٤٠٩).

[٢]- صاعد بن مخلد من أهل بغداد كان نصرانياً وأسلم على يد الموفق العباسي، واستكتبه سنة ٢٦٥هـ، لقب بذي الوزارتين، قال الشابشتي: كان من رجالات الناس حزماً وضبطاً. (الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت٣٨٨هـ)، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ص٢٧٠؛ الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل (٤٢٩هـ)، ثمار القلوب في المضاف المنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٢٩٢).

[٣]- المعري، رسائل أبي العلاء المعري، تحقيق إحسان عباس، ١/٧١

[٤]- المعري، رسالة الهناء، تحقيق كامل الكيلاني، ص، ٧٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثمّ إنّ السُّلطة تحيط نفسها بهالةٍ من القداسة ، وتحرصُ على سلب غيرها خصوصيته. والمعري بطرحه لهذه المسألة ينتقد المنظومة الأخلاقية العامة التي تتبناها السُّلطة، وقد مثّل لهذه العلاقة هنا باجتماع قطبي الصراع: الفرد والسُّلطة.

لذا جاءت القصة الثانية التي يرويها المعري لتؤكد هذا المعنى وتقويه، فهي تحاكي في مضمونها القصة الأولى، فيبدو التقليل من شأن ذاته حاضراً مرة أخرى، وهو يحكي حكاية جارح من جوارح الطير، عاد إلى أفراخه بإحدى الفور (الظباء)، فصمتت ذوات الأجنحة إلا العصفور الذي وقف مهنئاً مادحاً، فقال الجارح لباز: "لاَقِ هَذا الجاهِلَ بِسُوءِ التَّثْرِيبِ، مَنْ هُوَ حتّى يتكلّم لديّ، كأنَّه أمِنَ مِنْ رَدَيَّ، فَأوْمَأ البَازي المُتَجبِّر، وَهُوِ عَن احْتِطافِ البَائِسِ مُتكبِّر، إلى باشِقٍ بالحَضْرَةِ، فَأكَلَهُ مُعْتَاماً، وتَركَ أفْرَاخَهُ أيّتاماً". (١)

ويتضح مما سبق أن القصتين تتفقان في تأكيدهما سير الحياة في زمن المعري على نهج مختل، فالظلم واقع على الرعية ، والرعية لا تملك من أمرها شيئاً، فهم أشقياء وجبناء ، ثم إن التغيير الذي أمله المعري بدا مستحيلاً. وإلا فلماذا يُعاقب المحسن بالإساءة إشارة إلى افتقار الأمن والعدل . وكل ما كان من حديث مخالف لهذا الكلام، فما هو إلا لتأكيده والإصرار على وجوده. ومن هنا فقد ظهر المعري نكرة مغموراً بين السادات السُّراة، فشتّان " بين النَّكِرَاتِ مِنْ حَمَلَةِ العُكازات، وبين السَّرَوَاتِ مِنْ حَمَلَةِ الشَّارَاتِ، وأهْلِ الرَّيَاسَاتِ والمَشُورَاتِ ". (٢)

ولعل اختيار شخوص القصة من عالم الغاب مبنيّ في الأساس على فرق كبير بينهما، فالأسد الهصور في مقابل الفرنب الضعيف، وجارح عظيم في مقابل عصفور مسكين، كما أنّ القصتين تشيران إلى أنّ عهد الحماية والجوار قد ولّى، فالفأر كان في جوار الأسد، وفي هذا إشارة إلى اختلال الأمن ، كما تؤشر القصتان إلى أن عنف السلطة قد يطال المذنب المجرم والبريء الصالح.

١- المعري، رسالة الهناء ، ص ٨١-٨٢.

٢- نفسه، ص ٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو في كلتا القصتين يدين السُّلطة منتقداً التفاوت القائم في أركان المجتمع بين الراعي والرعية، والظلم المنتشر في أروقة القصور ، متعاطفاً مع نفسه والرعية التي قد تتعرض لما تعرض له العصفور وذكر الفأر، ويتعرض له هو أيضاً لتجاوزه الأدب حينما قرر أنّ يمتدح أصحاب الرياسة والشأن ، فانقلاب المعايير واختلال القيم يجعل المحسن مسيئاً ومعاقباً، ويجعل منطق الغاب سائداً، لذلك انتهت القصتان بمأساة الموت الدامي.

إن هاتين القصتين على قصرهما تركزان على النواحي النفسية والذهنية والجسدية، كما تعكس رؤية المعري حول الواقع الإنساني المأزوم والمتدهور بسبب عبثية السلطة والخضوع من الشخوص، وهو بتلك القصتين يوضح الصراع النفسي الداخلي العميق بحوار خارجي كظلال مؤطر مكمل للشخصية، والشخصيات الضعيفة هي التي تتكلم فلا يسمع كلام المتجبر في المشهد الأول، في حين يتكلم الفرنب، مادحاً وتبقى سائر الحيوانات خشعاً من الهيبة منحنيات، يقول الفرنب "بُورِكَ للمِلِكِ في العَطيّةِ السَنيَّةِ وما بلغ من الأمنيَّة"[١] وفي الموقف الآخر يظهر العصفور من ذوات الأجنحة متصدياً للتهنئة قائلاً": "قرَّتْ لامَحِتُكَ من قيْلٍ مَا اقْتَنَعَ للنَّاهضِ بخَسْيسِ النَّيْلِ"[٢] ثم يرد البازي بعنجهية تكشف بعداً طبقياً "لاق هذا الجاهلَ بسُوءِ التَّثْريبِ، مَنْ هو؟ حتى يتكلَّمَ لديَّ".[٣]

ثالثاً: الشخوص الرمزيّة في القائف [٤]

والقائف من كتب المعري التي لم تصل إلينا، إلا أن أبا القاسم الكلاعي[٥] ذكر مقتطفات منه في كتاب" إحكام صنعة الكلام"، وقد تكلم فيه المعري على ألسنة

---

[١] – المعري، رسالة الهناء، ص٧٨. قرت لامحتك: قرت عينك (ابن منظور، لسان العرب، مادة لمح)؛ القيل: الملك (نفسه، مادة قيل)؛ الناهض: الطير قبل أن يكمل نبات ريشه (نفسه، مادة نهض).

[٢] – المعري، رسالة الهناء ، ص٨١.

[٣] –نفسه ص٨١.

[٤]– القائف : من يُحسن معرفة الأثر وتتبعّه (ج) قافة (ابن منظور، لسان العرب، مادة قيف).

[٥]– الكلاعي: هو أبو القاسم محمد بن عبدالغفور بن محمد الكلاعي الإشبيلي، يرجح أن تكون ولادته في أوائل القرن السادس الهجري، كاتب مجيد تمكن من مكاتبة الوزير أبي بكر بن سعيد البطليوسي. ابن خاقان، أبو نصر بن محمد بن عبدالله القيسي، مطمح الأنفس، تحقيق مديحة الشرقاوي، ص ١٥١؛ ابن سعيد، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٥٨هـ)، المغرب، تحقيق شوقي ضيف، ١٣٧/١؛ المقري، أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ)، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، ٥٥٢/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحيوانات وغير الحيوان. ووصفه الكلاعي بقوله :" ولأبي العلاء المعري في كتاب (القائف) إحسان مشهور، وإبداع كثير موفور . وهوأكثر من (كليلة ودمنة) وَرَقَاً، وأفسحُ طلقاً وأطيب شيماً وعبقاً". [١]

وجدير بالذكر أنّ القصة المفتاح كانت لشيخ كبير طاعن في السّن ،رأى أنّ شبابه قد ظعن مع الظاعنين، فقال:" لأخرجنّ في طلبه . فسار حتى لقيه رجلٌ، فقال له: أعندك خبرُ للشباب ؟ فقال : شبابك أو شباب غيرك؟ قال: بل شبابي .قال : إنه ذهَبَ مع أمس، وأمس خلْفَك، فارجع وراءك وأسرع؛ فَلَعَلّك تُدركه ، فرجع الشيخ يعدو وراءه؛ فكلما عدا ازداد من أمس الشبيبة بُعداً".[٢]

وتتضمن هذهِ القصة على وجازتها وقصرها غير حكمة، فالباحث عن الشباب كاللاهث وراء سراب لا يُدرك منه شيئاً ، وتدل على ضعف الإنسان ووهنه غير المحدود بعد قوته وشبابه، وضعفه أمام مواجهة الموت، ويُلاحظ أن الإنسان بطبيعته يميل إلى التفاؤل والأمل؛ لذلك استجاب الشيخ لقول القائل وأخذ يعدو وراءه، إلا أنه لم ينل من ذلك إلا كبراً وضعفاً؛ فليس كل مسموع مصدق، إذ إن المعري يؤكد ضرورة تحكيم العقل، ويدعو إلى تأمل المفارقات الموجودة في الحياة ، وهكذا فإن القصة تعكس طبيعة الإنسان الأنانيّ الذي يستفرد بشبابه دون غيره، من منطلق أنّ الإنسان دائم النظر إلى نفسه من باب أنه مركز الكون ومحوره، ولذلك فقد أتاح المعري للشخصية أن تتحدث بحرية باستخدام ضمير المتكلم .

وتتمركز بقية النصوص القصصّية حول القصة المفتاح ، فأمام الفجوات المظلمة التي تخللت مسيرة الإنسان في الحياة، يأتي على ذكر نملةِ حضرتها الوفاه فاجتمع حولها النمل، فقالت نادبتها: " يرحمك الله! أمن شعيرة مجرورة ، وبُرَّةٍ ممطورة، وآثار سُقْرةٍ منشورة ؟ قالت لهن : لا تجزعن؛ فقد ذخرتُ عند الله ذخيرة من ذخَر أمثالها جدير بالرحمةِ، وذلك أني لم أسفك دماً قط" [٣]

---

[١]- الكلاعي، أبو القاسم بن محمد بن عبدالغفور(ت٥٤٥هـ)،إحكام صنعه الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية،ص٢٠٦.

[٢] – الكلاعي، إحكام صنعه الكلام، ص٢٠٥.

[٣]- نفسه، ص٢٠٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويكشف حديث النملة عن طبائع النفوس البشرية وصراعها من أجل الجاه والسلطان والمال، وهي أحقر من القتل والفناء طالما أن نهاية البشر هي نهاية النملة(الموت)، مستعينة بضمير المتكلم ليؤكد المعري أن التجربة ذاتية حقيقية مبتعداً في الوقت ذاته عن التقريرية، متخذاً من الرمز الحيواني وسيلة للتعبير عن موقفه من الأوضاع السائدة، وهي تتأثر بطبقات الرعية المغيبة، كما ينتقد السلطة القائمة على البطش والعنف، فمن نعمة الله على النملة أنها لم تقتل أحداً كما يفعل بنو البشر، وهذا كفيل أن يجعل رحمة الله تتغمدها ، والبكاء والحزن على من خسِر آخرته في القتل والتدمير.

أما قدرة الله فإنها في النهاية ستطال الجميع، ويروى أن طائراً صغيراً كان يجاور حية رقشاء، اعتادت على أكل فراخه في الظلام، فقُضي على تلك الحية أن يكف بصرها في آخر عمرها ولزمت الوجار (الجحر)، ورفض الوصع(الطائر الصغير) الشماته بها بعد ضعفها، ويقول : " لو كنتُ ، وهي المبصرة ، أقدر على ضير ، لكنت إليها وشيك السّير ، فأما إذا كَفَثْنِيْها الأقضية ، فإنّ عيني عنها مُغضية ".[١]

ويكثف المشهد بُعداً رمزياً وسلوكاً إنسانياً عاماً ، فالرحمة لمن ذلّ لكبرعمر ومرض، أما تركيز المعري على العمى فلأنه – يساوي من وجهة نظره– العجز التام، وكان بقدرة الطائر الأخذ بثأره من الحية التي طالما أضرّت به وبفراخه، إلا أنه إن كان يريد أن يضرّها فالأجدى به أن يضرّها وهي مبصرة، ولكن بعد أن نال منها القدر فلا داعي للشماته وأخذ الثأر. فالضعف في حدّ ذاته انتقام منها وأخذ بالثأر لأفراخه المعتدى عليهم.

وتأخذ القصة الأخيرة من القصص السابقة بنصيب، وتنهل منها، وهي تحكي عن أسد من عوام الأسد أصابه العمى، فسرد لملك الغابة حاجته فطلب الملك من خازنه أن يجري له كل يوم عضواً مؤرّباً (مقطعاً). فاستاء الأسد وأخبر الملك أنه

---

[١]– الكلاعي، إحكام صنعه الكلام، ص٢٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اعتاد اصطياد الوعل والبقرة ولا يكاد بهـا يـدرك الشـبع، فقـال الملـك راداً :"مَـنْ اتّكَـلَ على كَسبِ غيرهِ وَجَبَ أن يقتنع بقليل خيره".[١] فيدرك الأسـد كـلام الملـك، مؤكـداً لـه ألا حاجة له لذلك العضو، ويسأله الملك ماذا يصنع؟ فيجيـب : " اجتـزئ بنبـت السـحاب، ولا افتقر إلى الملك والأصحاب". [٢]

وتقوم هذه القصة على إشارات تـوحي بظلـم الحكـام وجـورهم ، فالأسـد الطـاعن بالسن بأحلامه وأمانيه– أن توفر له السلطة كفايتـه مـن طعـام – خائـبٌ بعـد أن أصـابه الضيق والضعف والكبر، وهو إشارة إلى مـا يحيـاه المعـري وغيـره مـن الرعيـة فـي الضنك والفقر. أما قمة الهزء فتظهر في نهايـة القصـة حـين يشـير الأسـد بغمـز مـن طرف خفي إلى حاجته للملك والأصحاب، وأنه قادر علـى تـدبير شـؤونه وتـوفير طعامـه من حشائش الأرض، وهو مـا تأبـاه نفـس الأسـد، إلا أنّـه لا يسـتطيع أن يبتعـد عـنهم لسطوتهم خشية منهم. كما أنها تـوحي بالوضـع الطبقـي فـي مجتمعـات ذلـك الزمـان ، فالهوة سحيقة بين الأسد الأعمى والأسد الملك.

ويتضح من النماذج القصصية المعروضة أنّ الإنسان لن يتمتـع بقوتـه إلـى الأبـد، فالعجز سمة الأفراد، والأولى بهم جميعـاً أن يُقـروا بالضـعف فـلا يمعنـوا فـي الجـور والأذى؛ لأنّ لا حال يبقى ولا قوة تدوم ، فالضعف أصـل فـي خلـق الكائنـات كمـا يـرى المعري، وهكذا فإن تلك الحكايات القصيرة تميـل إلـى أسـلوب الزجـر والتهديـد أحيانـاً، وإلى أسلوب الملاطفة والمصانعة في أحيـان أخـرى، كمـا تتكـئ فـي تقـديم شخصـياتها على ضمير المتكلم؛ ذلك أنّ المعري أتـاح للشخصـية أن تتحـدث بحريـة ليؤكـد أن تلـك التجارب ذاتية وحقيقية. فالمركز الرمزيّ الحديث عـن البشـر جميعـاً ولاسـيما الحكـام؛ إذ تكادُ تكون الإشارة إليهم واضحة تباعاً وإلى البشرية جمعاء وعلاقتهم الإنسانية .

---

[١]– الكلاعي، إحكام صنعه الكلام، ص٢١٠.

[٢]– نفسه، ص ٢٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعاً: الشخوص الرمزية في الفصول والغايات[١] ورسالة التعزية لابن أبي الرجال[٢]

يُعدّ التفكر والتدبر في مخلوقات الله – عز وجل – والبحث عن خصائص تلك المخلوقات طريقاً للإقرار بالعبودية؛ ذلك أن عالم الحيوان رحيب جداً، من يسرّح الطرق في خصائص الحيوانات وتكوينها وتصوّر مراحل حياتها يجعله يؤمن بقدرة الله العظيم.[٣]

والقصص التي يوردها عن الحيوان في كتابه الفصول والغايات جاءت سرداً في غالبيتها وليست على ألسنتها، وهي عادة ما ترتبط ببعد دلالي واضح، فأمام جلال الله وعظمته يستشعر المعري "العجز والضعف أمام ربه معدداً لنعمه ومآثره، مصوراً لإرادته وقدرته"[٤]، فالمعري يقول في تأليف الكتاب:

"عَلِمَ رَبُّنا ما عَلِم، أني أَلَفْتُ الكَلِمَ، آمُلُ رضاهُ المُسَلَّمَ، واتَّقي سَخَطهُ المؤلِم، فهَبْ لي أبْلُغُ به رِضاكَ من الكَلِمِ والمعاني الغِراب".[٥]

---

[١]– بدأ المعري كتابه الفصول والغايات في باكورة عمره، وقد صنفه فصولاً بدأها بالهمزة ثم الباء وهكذا إلى نهاية حروف المعجم: "وهو كتاب موضوع على حروف المعجم، ما خلا الألف، لأن فواصله مبنية على أن يكون ما قبل الحرف المعتمد فيها ألفاً، ومن المحال أن يجمع ألفين، ولكن تجيء الهمزة وقبلها ألف مثل غطاء وكساء. (إشراف: حسين، طه، تعريف القدماء بأبي العلاء، ص٣٨-٣٩). أما الغايات فهي بمثابة القافية في الشعر، فكل فقرة تنتهي بغاية. (نفسه، ص٣٩). وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة، إذ اتهم المعري بسببه في عقيدته فقالوا: إن المعري عارض به القرآن الكريم"، وعن آراء القدماء انظر تعريف القدماء بأبي العلاء، ص٧-٢١)، ويرى عبدالكريم الخطيب أن كتاب الفصول والغايات هو صورة من عقل المعري، وليست صورة لمرحلة من مراحل حياته، أما ما اتهم به من معارضة القرآن الكريم فإن ما بقي من أجزاء هذا الكتاب أبعد ما يكون عن المعارضة. (الخطيب، عبدالكريم، رهين المحبسين، أبو العلاء المعري (بين الإيمان والإلحاد)، ص١١٨.)

[٢]– وقد اختلف في هذه الرسالة لمن وُجهت، فمن قائل: إنها إلى خاله أبي القاسم يعزيه في أخيه، كما في تحقيق عبدالكريم خليفة، أو قائل إن الرسالة كتبها لتعزية أبي علي بن أبي الرجال في ولده كما في تحقيق إحسان عباس.

[٣]– شكر، شاكر هادي، الحيوان في الأدب العربي، ٩/١.

[٤]– ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه، ص٢٨٣.

[٥]– المعري، الفصول والغايات، ص٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واختزنت ذاكرة المعري بما وعته من تصوير الشعراء للطبيعة؛ لذا سعى المعري إلى تصوير الطبيعة نثراً كما صورها الشعراء الجاهليون "وكلُّ ما صور الشعرُ العربيُ القديم من وصف الصيدِ قد سلكه أبو العلاء في الفصول والغايات، قصصاً جميلاً رائعاً يدور حول الوعظ والإرشاد وحول تمجيد الله والثناء عليه".[١]

ولقد خلق الله الكائنات وجعل الوجود جمالاً دقيقاً ولغزاً عميقاً، فيهيم الإنسان متأملاً في خلق الله، وقد استحوذ حمار الوحش على اهتمام المعري فأخذ يصفه بعناية ودقة، ويبرز المعري تعرّضه لصراع دامٍ ومستمر مع الإنسان (الصياد)، ويتخذ هذا الصراع بين الصياد والوحش صفة القسوة والعنف.

وحمار الوحش مثال على ما يبديه من تحمل وقوة، وقد اتخذه المعري موضوعاً للتأسي، فهو على طاقته الكبيرة وقدرته العظيمة لا ينجو من الموت ومن الدهر ونكباته، وقد ركّز المعري على هذه الفكرة، فالقصة القناع تخفي حقيقة التذكير بالموت الذي لابد سيتجرعه كل بني البشر باختلافهم في الطاقة والقدرة والطبقة.

وقد أعاد المعري نسج حكاية حمار الوحش مع الصياد نثراً، لأخذ العظة والعبرة، فالدهر متقلب، وليست أيامه سواء فلا يأمنه الإنسان على نفسه، وقد كان حمار الوحش يسعى في شؤونه بالبحث عن الماء، والراوي يتحدث بضمير الغائب عن شخصيته الحيوانية، وهو يمرر أفكاره الخاصة بسرد تلك الأحداث، يقول في وصف حمار الوحش والتركيز على نهايته:

"يُصبح الوحشي أنِقاً، يرتادُ مغْرِباً ومشرقاً، لا يتّقي من خَطْبٍ متّقى، يَعْتَام الرياض الموسومة، قد حيَّته الوُهُود بالزَّهَر، وشرب ماء الغُدر، على أغانيِّ الدُّبَاب، وأخضرَّتْ جحافُله من لسِّ الغمِير، وأرجَتْ سنابكه من وطء النُّوَّار، وامْترغَ في النبَات حتى كأنه سُندُسٌ خرج له من الجِنَان، يَميلُ من الأشَر مَيْلَ النَّمِل، ويغرِّد إذا صاحَ تغريدَ الطّرب النشوان، إن سَحَل فعن مجد الله تَرْجَم السَّحِيل، وإن شحَج تكبير وتهليل، وإذا عَشّرَ فالنّسُك في ذلك التَّعْشِير حبيس، وإذ صَفَن فصُفُونُه تقديس، وَقَعُ حوافره

[١]- حسين، طه، مع أبي العلاء في سجنه، ص٢٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على الأودية والرُّزُون، يشهد بأن الله أول حكيم، حتى إذا نَضَا رَبيعاً بعدَ ربيع، وخلص من مَصيف في إثر مَصيف واشتدّ القيظُ وَوَقدَتِ الشعريَان، وتظاهر في ظهره عتيقُ الأعوام، وأمرّتهُ الرِّجلُ والقيعان، إمرارا المَسَدِ البديع، أجمعَ الوُرودَ والماءُ منه لا أمَمٌ ولا قريب، وسبقه أشعب كأنه نَمِرٌ إلى النّمير، في جفيره زُرق ظُبَاتٍ كأنها جمرات النار، أفواقُها كأفواهِ أفرخة النَّغران، تعوَّد أن يضعها من الوحش بحيث أراد، أقسم فأبَرَّ القَسَم، ليرويَنَّها بعد الخِضَمّ، من دماء الهاديات؛ له صبية كالتوالب ، وسلفعٌ كأنها السِّعلاة، يقُوتهم لحمَ القطا ولحموم القَطوات، ويكثرُ عندهم الوَشيقُ من مُتون الأخدَريَّات، فبات ساهراً من الطمع وأطفالهُ من السَّغَبِ ساهرين، تتقضّى دُاجهُ وينصرمُ عنه الصريم، وهو دُحيةٍ لا يجلوها النهار، سميرهُ في الليل الخَموش، تحتَكُّ القَرْنَاء جارتُه بحيث يسمع، كاحتكاك الجَرْباءِ في العِقَال، حتى إذا الليل ضربه ذَنَبُ السِّرْحان، وَرَد الوحشيُّ بأُتُنِهِ وهو يظن أن لا أنيس، فلما شرَع أو كاد، أهوى له بمشْقَصٍ كأنه ناب الغول فانتظم به رُعَامَاهُ، فسقط صريعاً بعلم الله، وانصرفت حلائله أيَامَى لا تحفِل بحرارة الأيُوم، ولَقيَ البائِسُ حُتُومَ القضاء".[١]

ولمّا كانت الفصول والغايات فيها إقرار بالعبودية لله عزوجل، فقد أخذ المعري يضرب الأمثلة بعظيم الحيوان بقصد العظة والعبرة، وبيّن تعرضها للمخاطر والموت فما الدنيا بباقية، وكلٌ دائم الأنفاس يُختطف، ولن يبقى لأهل الأرض لا عزٌ ولا شرف لتصرّف الدنيا بأصحابها وقد تناثرت القصص لتؤكد هذا المعنى، فالمعري كان دوماً محصوراً بفكرة الموت وشموليته، فكان مع الحيوانات في محنتها وصراعها مع الصياد وضواري الحيوانات، ولعل مأساة الحيوان هذه تصور مأساة بني البشر.

---

[١]- المعري، الفصول والغايات، ص٨- ١٠. الأنق: فرح وسر بالمرعى ؛ الوهد: المنخفض من الأرض؛ جحفل: وهي من الحمار بمنزلة الشفة للإنسان؛ مرغ: تقلب ؛ السحيل: دون الشحيج ؛ عشّر: نهق عشرة أصوات؛ صفن: قيام الفرس على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة؛ الروزن: ما غلظ من الأرض؛ عتيق الأعوام: الشحم؛ النمير: الذي ينجح في الشارب؛ الخضم: المسن؛ الهاديات: اللواتي يتقدمن الوحش؛ التوالب: الجحاش الوحشية. وسلع: جرئية؛ القطوات: اللواتي في أعجاز البهائم؛ الأخدريات: مسنوبات إلى أخدر؛ القرناء: حية لها في رأسها لحم ناتئ. سرح: كناية عن الفجر الكاذب يطلع قبل الفجر الصادق بقليل ويكون مستطيلاً في الأفق كذنب السرحان وهو الذئب أو الأسد؛ المشقص: نصل طويل، الرُّعامة: زيادة الكبد، (نفسه، ص١٠-١١).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقصة الظليم واحدة من القصص التي تدلل على صنعة الخالق عز وجل، إذ يبحث عن زاده ويُعمل منقاره للحصول عليه، إلا أن عملية البحث عن الطعام لا تستمر طويلاً؛ ذلك أن الصياد يخرج له فجراً وينهي حياته[١]، والمعري (الراوي) يرسم بشكل مختزل بعضاً من ملامح تلك الشخصيات الحيوانية، ويبدو هذا الرسم سريعاً لا يتوقف عند التفاصيل.

وقصة عُقاب على رأس جبل أراد أن يأكل فانقض على فريسته فجاءه الأجل "فَمَلأ فاهُ أَثْلَبَا، وتِلْكَ لا تَنْجُو مِنَ الحَوَادِثِ وإنْ عَاشَتْ عُمُراً، ورُبَّما هَوَتْ على ثُرْمُلَةٍ فأَصَابَ جَنَاحَهَا رَيْدٌ... فَسَقَطَتْ إلى الأَرْضِ وأُدِيلَ منها ثُعَالة فقَضَى مِنْهَا أَرَباً".[٢]

ولا تنحصر صفة التقوى والإيمان في الإنسان، بل تتسع لتشمل الحيوانات، وبخاصة التي كانت مصدر خيرٍ للمسلمين المؤمنين، فكل مقيم زائلٌ وكلُّ اتصالٌ منقطعٌ وليست أيام الإنسان سواء، فالخير في العمل الصالح. وهنا يركز المعري على حيوانات دخلت الجنة جزاءً على معروف قدمته فعاقبة الخير محمودة ومن ذلك:

"إنّ لِهْماً، سَكَنَ في شَمَارَيخَ رَضْوَى شَهْماً،...، أُتيحَ لَه رَامٍ، جَعَل بَضَيعةَ في البرَام... إسْتَمَاه القانِصُ فَرمَاه، وردَّاه بما حَمَلَه وارْتَدَاه ،...، وعَمَد رَامِيه وما هَاب، إلى الإهَاب، فاتَّخَذَ مِنهُ نَعْلَين، شَرَاهُما بِدِرْهَمَين، نَاسِكٌ دَلَفَ بهما في طاعة الله، لَجَديرٌ –والله كريم– أن يَبْعَثَه ربُّ العَالمِين فيَرتَع ولا يُروَّع، في روضةٍ مُنِوية، غير مُصَوِّحَةٍ ولا مُلْوِيةٍ".[٣]

وكذلك قصة نسر كان يسيح في الجو الفسيح... "لَخَلِيقٌ –وربُّنا حَميدٌ –إذا رُميَ بتلك الأسهُم في سبيل الجَبَّار أن يُحشَرَ في طيْرٍ لا يُصَدْنَ، وبأذيَّةٍ لا يُقصَدْنَ، وما أُريد به وجهُ اللهِ لَمْ يذهبْ في الزَبَدِ الجُفاء".[٤]

---

[١]– المعري، الفصول والغايات، ص٤١٤.

[٢]– تفسه/ ص٤١٣. الأثلب: التراب والحجارة ؛ الرَّيدُ: حَرُفُ الجبل المتقدِّم منه ؛ ثرملة: أنثى من الثعالب، نفسه، ص٤١٣.

[٣]– نفسه، ص٣٥.

[٤]– نفسه، ص٣٥. اللهمّ: الوعِل المسنُّ، الشهم: الجريء الفوائد، إستماه: طلبه في الهاجرة. ورَدَّاهُ: ألقاه من عُلوٍ، منوية: مُسمنة، صوَّح النبت: إذا تشقق لليُبْس، البضيع: اللحم، (نفسه، ص٣٦).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجدير بالذكر أنّ الحيوانات في القصص السابقة لم تتكلم، إلا أنّ المعري جعل وصف حركاتها عظة وعبرة، وقد كانت قصص الحيوانات مسرحاً لحياة الإنسان فاللجوء إليها ليمعنوا نظرهم فيما حولهم.

وظهر الأمر ذاته في رسالة المعري في التعزية لأبي علي بن أبي الرجال، إذ تعكس تلك الرسالة نظرة تأملية في الموت ومآل النفس الإنسانية فيخرج الموت إلى آفاق الإنسانية عامة، فيعزي الإنسانية جمعاء. [١]

وأخذ المعري يسخر من البشر الذين يتهافتون على حطام الدنيا الزائل، وشهواتهم المتناهية، فيدعوهم إلى الزهد، لأن الدنيا مهما امتدت بهم فلن تحقق رغباتهم، لذلك فقد اصطبغت تلك الرسالة بالصبغة الدينية، فالحياة كلها متاع زائل، وبما أن الموقف موقف رثاء، فقد راح يستطرد في ذكر الحيوانات الزائلة مؤكداً شمولية الموت: يقول "ما خلد حيوان بريّ، ولا عائم في لُجج بحري". [٢]

ويتتبع المعري على نهج غيره الآساد والفيلة إلى ذرات النمال، ويذكر مصرعها، [٣] وقد بالغ المعري في ذكر قصص الحيوانات، إذ كان له أن يذكر بعضها إلا أنه أصرّ على ذكر حشد منها، وكأنه بذكرها يدعو إلى الصبر والتجلد. ومن تلك الحيوانات: الجارسة (النحل)، أبو جعدة (الذئب)، وأبو مزاحم (الفيل)، والثور الوحشي (الذيال)، وأم مازن (النملة) وغيرها كثير. [٤]

---

[١]- عبدالمهدي، عبدالجليل، الحياة الأدبية في الشام، ص٨٧.

[٢]- المعري، رسالة التعزية لأبي علي بن أبي الرجال ولده أبي الأزهر، تحقيق إحسان عباس، ص ٨٣

[٣]- حسين، طه، تجديد ذكرى أبي العلاء، ص٢١٩.

[٤]- المعري، رسالة التعزية، ص ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦١، ٦٦....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

الشخصية الاجتماعية

مرّ المجتمع في عصر المعري بمراحل خطِرة ، لذلك فقد حفلت أعماله النثرية بالوقائع التي تتهدد وجود المجتمع، والظواهر الجديدة التي طرأت عليه، ووقف من مجتمعه موقف الناقد البصير؛ فعرّف مساربه ومساراته ومشاكله وعلله، وأبرز التناقضات القائمة فيه وأخذ يربطها بالحرية المفقودة، والفساد العام محاولاً رسم الصورة المناسبة للإصلاح.

وهكذا، فإن النماذج التي عرضها– مما سيذكر في موضعه من البحث– في نثره صورة حقيقية وموحية للمجتمع العباسّي، والشخصيات تحيا وتتفاعل ضمن النسق الحياتّي السائد، فأمام سلطة السياسة تبدو تلك النماذج مستلبة يطحنها الفساد الأخلاقي، وتكون غير مدركة للمخاطر والأحداث المحيطة. ولارتباط السُّلطة بالقوة يتلاشى حضور الجماعات البشرية، وتستغل السلطة ذلك الخنوع وتمعن في التحكم بهم.

ويرافق قمع السُّلطة صورة نمطية للشعوب في نصّ المعري، فقد "تبلّدَ حسَّها لطول ما ألفت من ظلم وفداحة ما تعرضت له من تغرير وتضليل وما تسلط على وجدانها من إلحاح في تبرير (تسويغ) فساد الأوضاع وطغيان الحكم ". [١]

أولاً: الشخصيّة الاجتماعية في الصاهل والشاحج :

ومما لا شك فيه أن الشخصية في رسالة الصاهل والشاحج جاءت رمزية على ألسنة الحيوان، إلا أنها برمزيتها عكست الواقع الاجتماعي، وقد تعددت نماذج الشخصيّة الواقعية في رسالة الصاهل والشاحج، إلا أنها أمام الأحداث الخاصة

[١]– عبدالرحمن، عائشة، أبو العلاء المعري، ص ٢١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالجفلة[١] تظهر جميعها غارقة في مشاكلها، وهمومها وتتراكم حولها مصائب عظيمة، فالبيئة المحيطة توحي بحربٍ وشيكة وهجوم متوقع من الروم المتاخمين للحدود؛ مما دفع الناس إلى الفرار من ديارهم، ورصد المعري بعينٍ بصيرة تصرفات الناس وخوفهم وجفلتهم بسبب ما وصل إلى مسامعهم من غزو قريب لأرض المسلمين.[٢] وقد كان لتصوير المجتمع عامة، ومجتمع معرة النعمان[٣] خاصة دور في إظهار سبب الجفلة.

بيّن المعري طبائع النفوس البشرية، بتعزيز الحضور الإنسانيّ الذي كان مسيطراً على رسالة "الصاهل والشاحج"؛ إذ تمتلئ الرسالة بنماذج إنسانية مختلفة، ويتنازع الشخصية الخيرُ والشّرّ، إلا أنّ حضور الشّرّ الإنسانيّ أثقل النصّ، ويُعدُّ إطاراً ممهداً ومحفزاً لظهور التخاذل والهزيمة والعجز أمام مجابهة المخاطر؛ ممثلة بقدوم جيش غازٍ نهد إلى أرض المسلمين دون التأكد من حقيقة قدومه بالفعل.

وجدير بالملاحظة أنّ الفوضى التي يمرّ بها المجتمع يقبع الفساد وراءها، ومشاهد الفساد تكبر وتتكاثر حتى تصل إلى حدٍّ لا يُطاق، وتنشأ عنه أفعال تعطي للتخاذل تعليلاً، فالانحلال لا ينمو إلا في بيئةٍ، فقدت روحها، وقد كانت تركيبة الأخلاق في المجتمع تعاني الخلل، ويعتمل النفوس السواد، والأجير الكسلان الذي يسوس الشاحج واحد من هؤلاء الذين أساؤوا التصرف، فسؤاله عن القيام بخدمة الشاحج جعلهُ يحلف يميناً قاطعة لهم أنّه فعل " وهو بشهادةِ اللهِ أكذبُ من الشيخ الغريب ، والأخيذِ

---

[١] – والمعري يطلقُ على الجَفلة أحياناً الشدة (الصاهل والشاحج، ص٤٣٤) ، الحادثة (نفسه، ص٤٣٥)، النازلة (نفسه، ص٤٣٦)، الملمة (نفسه، ص٤٣٧)، والنائبة (نفسه، ص٤٣٥، ٤٤١)، والجولة، (نفسه، ص٤٦٥) .

[٢] – المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٤١٥.

[٣] – معرة النعمان: مدينة كبيرة من أعمال حمص بين حلب وحماة، وسُميّت بالمعرّة نسبة إلى الصحابي النعمان ابن بشير. (الحموي، معجم البلدان، ج١٨٢/٥).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصّبحان [١]" . [٢]

ويأتي الشرّ وسيلة لاستشراف المستقبل ، فالرؤية تسوء في إصدار الحكم على أعمال البشر وممارستهم السلبيّة، وتكون الصفة الغالبة لحياتهم وتنسحب على غير واحد منهم. ذلك أنّ الصاهل يُقرّ أنّ البشر يسيرون على منهج مختلّ في تعاملهم مع الحيوان، يقول في وصفهم: " وبنو آدم، كما علمت لا يحفظون الخُلَّة، ولا يُراعون الخدمة ". [٣]

وفي ظلّ الأخلاق العامة الفاسدة، تبدو أذهان شخصيات ذلك الزمان أصابها شيء من قلةِ الإعمال، فظهرت سيول المفارقات على ألسنتهم وهي تكشف عن مستواهم الثقافي والفكريّ المنسجم مع الخلل في القيم القائمة على الإحساس بوجود التفاوت بين بني البشر، وكذلك عالم الحيوان؛ فالصاهل يعتدُّ برفعة نسبه وهو بذلك يخضع لمعطيات الحقبة التي يحيا فيها، إلا أن الشاحج يؤكد سوء نظرته وفسادها، فربّما " صَوَّرت العزيزةُ لِصاحبِها ما يقعُ الإجماعُ على بُطْلانِه، تظنُّ السمِجَةُ أنها جميلةٌ، والقصيرةُ أنها فارعة ، واليدُ البخيلةُ أنها سَمْحَة، وإنّما يَحمِلُ على ذلك قلةُ التمكُّن من المعقول. ومَن كان ذا وَفارةٍ من اللُّبِّ كان بالعكس من هذه الصِّفةِ، لأن عقله يُعلمُه أنّ اللهَ تعالى قادرٌ على أنْ يخلُقَ من يفضُلُه. والحازمُ يرى التواضعَ فرضاً لازماً، والأَخْرَقُ يرى التَّكبرَ حظّاً جزيلاً". [٤]

وتتغير العلاقات بين أفراد المجتمع بل تنحرف في مسارها، فالصورةُ التي يحتشد عالمها بركام الكرم العربي تتبدل وتتحول، وعلاقة الشخصيات ببعضها تنغلق

---

[١]- أكذب من الشيخ الغريب والأخيذ الصبحان : أكذب من الشيخ الغريب : مثل رواه الميداني، لأنه يتزوج في غربته وهو ابن سبعين، فيزعم أنه ابن أربعين. (الميداني، مجمع الأمثال، ٣٨/٣).

وأكذب من الأخيذ الصبحان :أصله أنّ رجلاً خرج من حيّه، فلقيه جيش يريد قومه فأخذوه وسألوه عن الحي، فقال إنما بتّ في القفر، ولا عهد لي بقومي وبينما هم يتنازعون غلبه البول ؛ فعلموا أنه قد اصطبح فطعنه واحدٌ منهم بطعنة في بطنه، ومضوا عنه غير بعيد، فعثروا على الحيّ، (نفسه، ٦٧/٣).

[٢]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص٩٨ .

[٣]- نفسه، ص١١٨ .

[٤]- نفسه، ص ١٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتصبح مشيدة على المنفعة وتحقيق المصالح وسوء النية، فتنهار العلاقات الحميمة الدافئة بين أفراد المجتمع، وتقوم على أنقاضها علاقات تحاصر أصحابها في مجتمع انحرف في مساره، فالرجل لا يستضيف ضيفاً إلا لأمرين " إما لثناءٍ يَكتسِبُه، وإمّا دفعاً لمذمَّةٍ تَجدِبُه. على أنه لا تخلو البسيطةُ من قومٍ يكرمون بالطبع، ويَنفعون العالَمَ لغير نفعٍ". [١]

ومن النماذج التي ترمز إلى الفوضى الاجتماعية فئة اللصوص البزازين؛ نتيجةً لفساد الأحوال في المجتمع وتفكك العلاقات الاجتماعيّة وتصدعها، والمعريّ لا يُسوّغ أفعالها وسلوكها العدواني في المجتمع . فهم محور الأذى والشر بإساءتهم لأبناء جنسهم وسرقتهم للثياب، ويسير المجتمع نحو غابة مجهولة لوجود تلك الفئة التي تمثل قوة رهيبة؛ لذا فعلى الصالح "ألا يتعرضَ لجُلوسٍ في البَزِّ. وألعنُ، عَلِمَ اللهُ، البزَّازين، وأقولُ للعَجوز الصالحةِ أن تصونَ ولَدها عن لقاءِ البَزّاز: إنه لا يُؤْمَنُ على السَّرق وعلى القتل، وإنما يَبْكُرُ بدهاءٍ وخَتْل".[٢]

وفي غمرة تشكل الرموز الشاهدة على الحاضر المليء بالصراع والتغير وتكدر العلاقات، ينفتح النص على رموز حيوانية تمثل الواقع الذي يمتلىء بالعيوب، إذ يهيمن الإحساس بالقهر والظلم والتفاوت الطبقيّ الاجتماعيّ، فالشاحج – مثلاً – ينتقد الصاهل المزهو برفعةِ نسبه وقيمته، وبهذا يلْغز إلى اختلال المعايير التي هي صدى لاختلال الأوضاع وانعكاسها في عصر المعري، فهذا الاختلال يتنافى والمبدأ الذي يؤمن به المعريّ من وحدة البشر وتساويهم؛ ونتيجة لذلك تسودُ أجواء من الإحساس بالسيد في مقابل العبد، فالصاهل ينظر إلى عيوب الآخرين متناسياً ما فيه من عيوب ، فينبهه الشاحج إلى ذلك، ويقول له مستنكراً :

---

[١]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص ١٢٩.

[٢]– نفسه، ص ٢٢٥، والبزّاز كما أوضح الشاحج للجمل هو سارق الثياب وليس صانعها، حينما فسّر الإلغاز والتورية الذي جاء به في أحد المشاهد. (نفسه، ص٣٦٣).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" كيف رأيتَ القـــذاةَ في عـــَيْنِ أخيكَ ولم تر الجِذع المعترِضَ في عَيْنكَ .[١]

وتتجلى الهزيمة وما تستند عليه من خيبـــةٍ وســـلبيةٍ فـــي رمـــز الفاختـــة (نـــوع مـــن الحمام)، التي يظهر المجتمع فيها، فالمجتمع ينســـاق وراء الفتنـــة، وهـــذه الفتنـــة فـــي كـــل شيء حولها، والفاختة لا تتجرد من النمط الأخلاقي الســـائد فيمـــا تنقـــل مـــن أقـــوال باطلـــة مزعومة للجمل على لسان الشاحج مما يفسد بينهما، يقـــول المعـــري فـــي وصـــف تصـــرّف الفاختة: "وتنطلِقُ إلى البعيرِ الواردِ فَتَعْكِسُ مـــا قـــال الشـــاحجُ فيـــه، وتجعـــلُ القـــولَ الـــذي نطقَ به الصاهلُ من وصفِهِ بالجهلِ، محكِيّاً عن الشاحجِ، تريـــدُ أذاتَـــه بـــذلك. فتخبـــره بمـــا قيلَ فيه من الصِّفَةِ بقلةِ اللُّبِّ، فتملأ صَـــدرَهُ مـــن الغضـــبِ والحِقـــدِ، حتـــى إذا وَرَدَ. بَهَـــشَ بفمهِ بعد الرِّيِّ إلى جَحفَلةِ ذلك المِسكين".[٢]

وتكثر في المجتمع الخرافات والأقاويـــل والمـــزاعم التـــي يكـــون نهبـــاً لهـــا أحيانـــاً، وتتوارى القضايا المهمة وتطفو أحداث لا قيمـــة لهـــا، وتتشـــوه أفكـــار الشخصـــيات حـــين ينشغل الناس بالتافه من الأمور، وتســـهم البيئـــة المحيطـــة فـــي ظهـــور جهلهـــم وســـلبيتهم وغربتهم، ويتمثل هذا في أفراد عاجزين عـــن حـــلِّ مشـــاكلهم الواضـــحة أمـــامهم، فيفـــرون إلى الخرافة والخوارق المستحيلة الوقوع التي لا يجوز أن يخضـــع لهـــا عقـــل ، ومـــن تلـــك الخرافات: قصة الديك والغراب التي تناقلهـــا النـــاس وهـــي مـــن الأكاذيـــب التـــي أشـــاعها اليهود والنصارى.[٣] ؛ ذلك "أنّ الديكَ والغُـــرابَ كانـــا صـــديقين فـــي الـــدهر الأوّل، وكانـــا يتنادمان، فشَربا عند خَمّارٍ أياماً فلما نَفِذَ شرابُ الخمّار وأحَـــسَّ الغُـــرابُ أنـــه يريـــدُ الـــثمنَ،

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ١٩٥. وقد ورد هذا المثل "كيف تبصر القذى في عين أخيك وتدع الجذع المعترض في عينيك". ويعني تعييرك غيرك داء هو جزء من جملة ما فيك من الأدواء أي العيوب (الميداني، مجمع الأمثال ٤٤/٣).

[٢]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ٢٠٧-٢١١.

[٣]- نفسه، ص٢٤٩، وقد ذكرت هذه القصة في معرض رد الجمل على إلغاز الشاحج حول علي -رضي الله- عنه، إذ قال الشاحج إنه "أكل الصقرَ ولم يأكل البازيّ لأنه من سباع الطير". (نفسه، ص٣٢٣). وإنما قصد الشاحج بالصقر: الدَّبْسُ، والبازيّ: الظالم والقاهر. (نفسه، ص٣٥٦). إلا أن الجمل أخذ الألفاظ على ظاهر المعنى دون باطِنها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أصبَحَ يوماً والديكُ نائمٌ فقال للخَمار: إني ماضٍ فآتيكَ بحقِّكَ، وصاحبي هذا رهن عندّك على مالِكَ. وذهب ولم يَعُد".[١]

وتكمن المفارقة في انغلاق عقول أصحابها واستسلامهم إلى خرافات عديمة الفائدة مفرغة المضمون من صنع الخيال، وتتعدد في هذا السبيل مصادرها، فبعضها من أحاديث الأعراب كخرافة الحمار (أخدر) وفي هذا يقول: " وقد زَعَمَ بعض العلماءِ أنّ " أَخْدَرَ"، كان فرساً لبعضِ الملوكِ فَذَهَبَ في الأرضِ فتوَّحشَ، فولَدُه- لمَّا طَرَقَ الأُتُنَ – يُضرَبُ بهِ المَثَلُ في حَميرِ الوحش! وهذا قولٌ حُكِيَ ومازُكي،... ، ولعلّه من أحاديثِ الأعرابِ الذين يَزعمون أنَّ الجنَّ تَلِدُ في الإنس"[٢] . ويرى الشاحج الذي كان يرد على الصاهل المعتدِّ بنسبه "أن أَخْدَرَ حمارٌ معروفٌ. ويقال إنه حمارٌ أهليٌّ توحَّشَ فعسِبَ في عاناتِ الوحش".[٣]

وأنكر على النصارى ما حملهم عليه عقلهم من الاعتقاد أن الخشبة التي صُلب عليها المسيح –عليه السلام- ما زالت بين أيديهم، يقول مستاءً من زعم الشاحج أنّ عليّ مرّ على سرير له آلاف السنين منذ صُنِع: "والنصارى تكونُ معهم أشياءُ يَدَّعون أنّها من الخَشَبة التي صُلِبَ عليها " المسيحُ" عليه السلامُ ".[٤]

كما ينتقد معتقدات العرب في العصر الجاهلي، ومن ذلك نقده لاعتقادهم تمثّل الجن في صور الحيوانات وهيئاتها ، يقول :

" فأمّا العربُ في الجاهليةِ فقد كانوا لا يَشُكُّونَ أنّ الجنَّ تَظهرُ لهم في صورِ الحَيَّاتِ وغيرها من صُوَرِ الحيوان".[٥]

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص٢٤٩.

[٢]- نفسه، ص١٧٣

[٣] – نفسه، ص١٧٤. عسب: ضرب (ابن منظور، لسان العرب: مادة عسِب).

[٤]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص٢٧٠، وقد عنى الشاحج بالسرير: أكرم موضع في الوادي، (نفسه، ص٣٦٠).

[٥]- نفسه، ص ٣٠٨، في ردِّ الجمل على الشاحج الذي زَعمَ أن عجوزاً بدمشق ولدت بيضة، (نفسه، ص٢٢٩). وإنما قصد الشاحج بالبيضة: المرأة الكريمة، (نفسه، ص٣٦٦).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتجاوز هذا الحدّ حينما انتقد أصحاب الأخبار في رواياتهم أنّ أم بلقيس ملكة سبأ كانت من الجن، وما روي عن زواج مَعَدّ بن عدنان من امرأة من الجنّ .[١]

وفي الحديث عن المجتمع والحياة الاجتماعية ومواكبتها، لابد من الحديث عن:

أ-مجتمع معرة النعمان والجفلة :

تدخلنا المقدمات التمهيدية المتمثلة بأخلاق المجتمع في جوهر الصراع، فالجفلة تكشف عن الانهيار والسقوط الذي يُظهر أدران الحياة الاجتماعية، ويستعين المعرّي بالجفلةِ لـيُعرّض بالناس، ويتعمق في وصف النفوس السيئة، فأهل المعرة لم يواجهوا عدوهم بسلاحهم بل اتخذوا من الهرب بديلاً، والشخصيات انهزامية تهرب من واقعها وتتخلى عن الأرض (معرة النعمان) والهوية، وتتكفي على نفسها مبتعدة إلى مصير مجهول. ويمارس المعريّ بالسخرية جلداً لإحداث الصحوة، فالمصيبة قائمة والناس تنفر، إلا أنّ معالم الشرّ تتأجج " ورُبَّما طَمَعَ الجَارُ – لهذه الفِتْنَةِ– إذا كانَ من أهلِ الشرِّ، في جاره إذا كان من أهْلِ الخيْر، فَعَدا على مَنزِلِه فَأخَذَ ما فيه".[٢] والطَمَعُ من أهل الخِسَّةِ في مثل هذه الحادثةِ يُحَسِّنُ لهم التطاوُلَ وتَتَبُّعَ رحَالِ الضعفاءِ".[٣]

وتتخلى الشخصية عن مسؤوليتها والتزامها في هذه الجفلة، فصورة مجتمع معرة النعمان قناع لطبائع النفوس، التي هي نتاج لانفعال الإنسان بالأحداث، فتصبح الشخصيات أكثر سلبية وأقل فاعلية فاقدة لملامحها، وتنقطع الأواصر الروحية بين الإنسان وأسرته ويعمّ الشتات، فبعضهم " تَؤُضُّه الشِّدَّةُ إلى قَطْعِ الحميمِ وفراقِ الأليفِ وعقوق الوالدِ والولدَ ".[٤] وأمّا صاحبُ المعونةِ فكانَ. حالهُ أن انقطعَ خيرهُ عن الناسِ فأصبح "مثل ""ما" الحِجازية بَطُلَ عَمُلها، فكأنّها صارت التميميّة". [٥]

---

[١]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص٢٩٥، في رد الجمل على الشاحج الذي زعم أن الظِّباءَ بنواحي البصرة تَلِدُ الحِجَاشَ، (نفسه، ص٢٢٨). وإنما قصد الشاحج بالجحاش: أولادُ الظِّباءِ. (نفسه، ص٣٦٣).

[٢]– نفسه، ص ٤٤٠.

[٣]– نفسه، ص٤٣٥.

[٤]– نفسه، ص٤٣٤ ، أضّه الأمر: بلغ منه المشقة (ابن منظور، لسان العرب، مادة أضّ).

[٥]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص٤٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ثم يكون لهذه الشِّدة الأثر في إسقاط الأقنعة عن الوجوه وتتجلى الحقائق، فالجفلة ترتبط ارتباطا وثيقاً بالحياة الاجتماعية، إذ إنّ (النائبة) "تلزم الذين يتظاهرون بالعُدم والفقر أن يُخرجوا ما يُخفون من الذخيرة، يستعينون بها على اكتراء الحمار والراحلة" [١] وفي هذه النازلة " ترى المريضَ والزَّمِنَ وغيرَهما من أهلِ العاهاتِ، قد تشبهوا بالأصحَّاءِ السالمينَ فَبَانَ فيهم ذلك، وظهرَ منهم التكلُّفُ"، [٢] كما أنّ الضعفاء الفقراء عمدوا إلى نهب البقول وحملوها في أكياسٍ ممتلئة. [٣]

وقد عُني الشاحج باقتناص أدقّ الأمور الخاصة بمشاهد الجالية، فإيقاع حياتهم لم يعد منتظماً، فكان نفادُ زادهم مما اهتم المعري بوصفهِ وأثرهِ على الجالين؛ لأن أمر الجفلةِ وقع بغتة، ولم يستعدوا له، وهكذا فإنّ من اعتاد أكل البُرِّ وقد نفدَ اضطرَّ إلى أكل الشّعير فإنّ لم يجد الشعيرَ أكل العُنجْدَ (الزبيب) أو فَراساً (التمر الأسود). [٤]

ويشفق الشاحجُ على الحيوانات التي اتخذها الجالون ركوباً لهم، فقد عانت أحمالاً ثقيلة؛ فالفقير الضعيفُ قد يحمل أولاده جميعاً على حمارٍ وانٍ، أو قد تجتمع على المحمل الواحد ستةٌ من العيلة، كما قد يتعاقبُ ثلاثةٌ على حمارٍ ضعيف، أو أنّ الراكبين تأخذهم الرأفة بالحيوان فيتناوبان على الركوب. [٥]

كما أنّ الجفلة تضطرُّ من كان في حال التّرحال إلى التخفف ومفارقة تابعه الذي يستزيده في حال الإقامة، وقد يكون الرجلُ مفتقراً إلى الأتباع إلا أنّ الضرورة أيضاً تُضطره إلى الاقتصار على اللوازم ومفارقة الأتباع. [٦]

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص ٤٣٥

[٢]- نفسه، ص٤٣٦

[٣]- نفسه، ص٤٥٥.

[٤]- نفسه، ص٤٩٣-٤٩٥.

[٥]- نفسه، ص٤٧١-٤٨٢.

[٦]- نفسه ، ص٤٧٩-٤٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما إذا كان الشريكان من ملتين مختلفتين فالأمر أدهى وأمرّ، إذ تكثر الشَّحناءُ والبغضاءُ ويكون مثالهما كالقتَّال والنمر صلحهما يجلب المشاكل للآخرين، ومودتهما لا تدوم. (١)

ولم يسلم غير العاقل من أثر الجفلة؛ فما نال البشر انتقل إلى الحجر، ولذلك فإن دور اللهو تُعَطَّلُ في هذه الفادِحةِ، فالحانةُ لا يدخلها المسلمُ ولا النصرانيُّ ويكون ماؤها في البداية شخيماً (فاسداً) ثم تصبح خالية.(٢)

وبما أن المعري يدين الفرار بكلِّ أشكاله وعدّه أمراً سلبياً، لأن على النافر أن يتحمل قرار فراره، لذلك فقد ظهر في الجفلةِ الاختلاف بين الشركاء في وجهات النظر، نتيجة لضيق الأنفس وحَرَج الصدور، يقول حول اختلاف الشركاء في الجهات المقصودة " ويَدْعُو ما يلقاه النافِرون من ضِيقِ الأنفُسِ وحَرَجِ الصدورِ، إلى تشاجُرِ الشركاءِ واختلافِهم في الجهاتِ المقصودةِ، ويَحمِلُهم ذلك على الفُرْقةِ، إمّا قبل الرِّحلةِ من المِصْرِ وإمَّا بعدَ الظعنِ عنه. فربّما كان الرجلانِ شريكَينِ ولكلِّ واحدٍ من رأسِ المالِ ما يُمكِنُ أن يَستبِضعَ فلا تَضُرُّه الفرقةُ".(٣)

وتُجلي الحركة المشهديه للجفلة الوجه الآخر للمجتمع ، فالحياة الاجتماعية ليست مجرد خلفية للأحداث ولكنها واجهة ملموسة لمادة قائمة ، ففي أتون اللحظة الحاضرة المشحونه بالتوتر تتوالد تصرفات نقيضة لما ذكر في مجتمع معرة النعمان، فيظهر الخير ممثلاً في هذه المحنة، ويتمثل بإيجابية بعضهم في التعامل مع الوضع القائم، يقول المعري واصفاً مشاهد الخير:

" وإنّكَ لَتُشاهِدُ في القومِ الجالينَ رجلاً فيه أيْدٌ وقوةٌ وقد نَظَرَ إلى رَجُلٍ ضعيفٍ وعليه أوْقٌ ثقيلٌ فيقولُ :أعْطِني أوْقَكَ أخفِّفْ عنك! فربّما حَمَلَه عنه الساعة أو الساعتين". (٤)

١- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص٥٠٤-٥٠٥.

٢- نفسه، ص٤٥٣.

٣- نفسه، ص٥٠٢.

٤- نفسه، ص ٤٦٦. أوق: الحمل (لسان العرب، مادة أوق)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتزم المعري بتقديم رؤيــة اجتماعيّــة للواقــع تتميــز بالدِّقّــة والعمــق والصــدق، وتتجلى وحدة المصير، فأهل الفضــل والبقيــة يصــبرون فــي الشــدائد، ولا يشــعر عامــة الناس بما عندهم من فقر الحال ومعاناة الخطــوب وأهــل الشفـــقة تبــدو مــنهم الشَّــكِيَّة، يقول في وصفهم :

" وكذلك أهلُ الفضلِ والبَقيَّةِ يصبرون فــي الشــدائدِ ويتحملــون، ولا يَشْــعرُ النــاسِ بماعندهم من فقر المالِ ومعاناة الخطوبِ . وأهــلُ الشــفَقَهِ و الخِفـــَّةِ تبــدو مــنهم الشَّــكِيَّةُ ويَظهرُ الشكِعُ ". [١]

ويحمل الجزع الناسَ على الاتصالِ بعد الفِــراق، والبُعــد والجفــاء، ولــذا بــالغ أهــل معرة النعمان في إظهار الخوفِ، حتــى أظهــرهم الشــاحج بصــورة ســاخرة يقــول: "لقــد حَملهم الفَرَقُ على الخَرَقَ، فسوف يلقون شظفاً من العــيش، وتنــزلُ بهــم الضــرورةُ الناقلــةُ من حالٍ إلى حالِ، فإنّ هذه الآونة تحمِــلُ القــاطِعَ علــى أن يَصِــلَ والمهــاجرَ صــاحَبه أن يَعطِفَ ويعتذر، ولم يَفعلا ذلك رغبة في صلةِ الرحم لا تَحَوُّباً من سوءِ القطيعةِ".[٢]

ب-المرأة والطفل في الجفلة :

لم يرفع المعرّي من قيمة العنصر الذكوريّ على حســاب التقليــل مــن شــأن المــرأة، فمسألة المفاضلة بينهما لم تكن قائمة، وهــو يكشــف مــن الحالــة المأســاوية التــي تعيشــها المرأة وشاركت الرجل بها في أثناء الجفلة.

وصوّر المرأة ضحية في هــذه الجفلــة، ويــؤدي بهــا التحــول والهــرب أن تفقــد خصوصيتها فلا تعود أداة للفتنة وللجمال، وحالها فــي هــذه المصــيبة حــال غيرهــا مــن الرجال فتضطر المرأة إلــى التكشــف والجــري والمشــي مجــرى الرجــال، كمــا تحمــل الكارثة إحدى الراكبات الهاربات على الاســتغاثةِ بالمكــارين ولا تــزال فــي ويــل وأليــل. يقول في وصفها: "وإنكَ لتَرى في الظاعنينَ شَــهْلَةً مــن النســاءِ وهــي علــى أحَــدِ بنــاتِ

[١]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص ٤٤٧، الشكع : الفزع وكثر أنينه (ابن منظور، لسان العرب، مادة شَكَعَ)

[٢]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص٤٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صَعْدَةَ وحِمْلُه من تحتُ مُتَشاوِلٌ ... ولا تَـزالُ تلـك الراكبـةُ فـي ويْـلٍ وأليـلٍ واسـتغاثة بالمكارينَ". [١]

ولشدة الازدحام في ذلك الموقف؛ فقـد بـرز الـنمط الأنثـوي المستسـلم والمسـتلب، فالجفلة تجعل المرأة تفقد حقها في حمل طفلها لضـعفها، ولا تسـتطيع الوصـول إليـه، فـي حين تتعلق عيونها بولدها الذي أخذه أبوه، وهـي تنظرإليـه نظـرة الشـفيق، وهـو ينظـر إليها نظر الفقير إلى مافي صدرها، يصـفها وطفلهـا : "وربّمـا عايَنـت المـرأةَ الراكبـة أو الماشِية وعلى كَتِفِها أو في حِجْرِها صَغيرٌ مثل التَّوْلَـبِ، وقـد أخـذه منهـا أبـوه فتقـدَّمَهَا بالخطوات، وفـَصَلَ بينها وبَيْنَه سـِواه، فهـي تَنْظـر إلـى ولـدِها نَظَـر شـفيقٍ لا تَصِـلُ إليه. وهو ينظرُ إليها نظرَ فقيرٍ إلى مافي الثـَّـدْي...". [٢]

أما المرأة الوالدة المسرفة في الإشفاق على ابنهـا، فيشـقّ عليهـا مفارقـة ولـدها وإن كان قريباً منها على كتف والده أو أخيـه. [٣] وقـد يتـأثر الطفـل بـنقص الطعـام وفقـده، فيُسمع بكاء الأطفال لنفاد الزاد ونقصه. [٤]

والطفل والمرأة يمثلان معاً الحلقة الاجتماعية الأكثـر دقَـة وحساسـية، ويُعـدُّ الطفـل الأكثر كشفاً عن عورات المجتمع وتناقضاته؛ فتنسحب عليـه أوضـاع قسـرية لاذنـب لـه فيها، وينتقل مع أهله من مكان لآخر طلبـاً للاسـتقرار والأمـان، وتكـون هـذه الشخصـية المستضعفة الهشّة مثالاً على فساد الزمن، إذ انشـغل الحكـام عـن مصـلحة تلـك الفئـات المظلومة بركوب المعاصي، ونَهج سِياسية فاسدة. ومن هذا المنطلـق فـإن المعـري أحـس

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص٤٧٠، الظاعنين: الجالين (ابن منظور، لسان العرب، مادة ظعن)، شهلة: العجوز (نفسه، مادة شهل)، وبنات صعدة : حمر الوحش، (نفسه، مادة بنت). متشاول :مرتفع، (نفسه، مادة شول)، الأليل : الأنين، (نفسه، مادة ألل)، المكاري: من يؤجر دابته بالكراء، (نفسه، مادة كري). وينظر معاني الكلمات حاشية الصاهل والشاحج، ص٤٧٠

[٢]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص٤٧٢-٤٧٣

[٣]- نفسه، ص٤٧٤.

[٤]- نفسه، ص٤٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بفساد الحياة " ومن ثم بخطيئة الأنسال فيها، فالوالدان يحكمان على نسلهما بالاغتراب والعذاب في حياة فاسدة مهترئة" [١]

جـ- اليهود والجفلة :

تقترن صورة اليهوديّ في نص المعريّ بصورة الشخصيّة الهاربة حالها حال العرب الفارين من معرة النعمان، فهو يُعطِلُ قواه خوفاً من مواجهة قوى الحياة ومصاعبها، ويُغيّب قوة الفعل تجاه المقاومة والصمود، فيبدو عاجزاً عن الفعل بعيداً عن الانتماء. وتعطي صورة اليهودي السالبة انطباعاً لصفاته، فهو يتصف بالضعف والخوف والجشع والتخاذل، كما ينتقد المعري حالة الهذيان التي أصابته وجرّدته من التصرف السليم في تلك اللحظة نتيجة الخوف من العدو القادم؛ فالخوف والفرار غير مسوّغ للجميع كما يرى المعري، والثبات في المكأن والصمود كان الأولى والأجدى بهم.

واتخذ من الجفلة وسيلة لتصوير اليهود وغدرهم وجشعهم وحرصهم على أسباب البقاء، بدلاً من تعزيز حقيقة وجود الذات بالتفاني. ويسعى اليهوديّ وراء الثروة ويتحول إلى كائن يمضي إلى إشباع ذاته الخاوية وإثراء حياته الفارغة، فهو محطّ سخرية واستخفاف، فهذه الشخصية لا تتخلى عن طباعها حتى في أشد حالات الرعب، يستخرج أموالاً كان يدّخرها ويتعرض للمكارين الغدّارين، الذين يستغلون حاجة الناس. يقول المعري في وصف مشهدٍ مثير للضحك:

"وإنكَ لتُشاهِدُ هذا الرجلَ من يهودَ، قد أحَسَّ بالخُوَيْخيّةِ فصارَ وجهُه مِثل الفِرْسَكَةِ، وعَمَدَ إلى الخَوْخَةِ فاستخرج منها مِشمشِيَّاتِ الألوانِ كان يدَّخِرُهَا لأُمِّ خَشّافٍ والعَنْقَفِير...وبادَر بهِ إلى المُكارينَ يَكْشِرُ لهم عن ذلك الخَبِيءِ، ويَكونُ كِراؤهم قد وقع بالدراهم، فتَحمِلُهم الرغبَةُ فيما ظهر لهم، على الغَدْر. فكُلَّما أجابوه إلى ما يسألُ أبرْزَ

[١]- اليظي، صالح، شاعرية أبي العلاء المعري، ص ٢٧٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهم شيئاً من الدينار، حتى إذا تَمَّت المُوافقةُ بَصَقَ نَقِيشاً يَتَلهَّبُ، فَبلَّ عند ذلك بعَيْرٍ يَحْمِلُ عليه أو بَغْلٍ ".[١]

وفي مشهد آخر يصفهم بالضعف ومحاولة التجلّد، فتجلّدهم الظاهر مخالفٌ لواقع حالهم، يقول في وصفهم: " وإنك لتَرى الرجلَ من يَهودَ، وهم أهلُ لِينٍ وضَعْفٍ، يُظهِرُ التشدُّدَ والتجلُّدَ على ما نزل فيَخرُجُ بهِ ما فَعَل عن الطبْع ".[٢]

ولا يعني هذا الأمر أن اليهود فقط من أُصيبوا بالخوفِ، بل كان الخوفُ صفة عامة أصابت كل من كان في معرة النعمان، فقد أدى الهلعُ إلى اختلال الأمور، كما صور المعري في قوله: "والخوفُ إذا وقع بغتة، رأيتَ المعروفَ بالحزامَةِ وأخا التجربةِ ومَن كان مشهوراً بالجُرأة، قد حَمَلَه الحزمُ واللُّبُّ على قِلّةِ الإنبعاثِ وكُلُولِ الغرب، فصار كأنَه الظعينةُ من خَوْفِ العاقِبةِ وانفِلالِ الحَدِّ".[٣]

أما مهنهم في معرة النعمان فقد تعددت تبعاً لتعدد فرقهم، فمنهم من امتهن مهنة الدباغة والصباغة، ومنهم من تجاوزها إلى اللغو؛ وفي ذلك إيحاء بطرف خفي إلى دورهم في إشاعة الفتنة والفساد، يقول في وصف فرقهم: "وأما يَهُوُدُ فهي في هذه البلدة ثلاثُ فِرَقٍ : صَبَّاغون ودَبَّاغون، وحاكةٌ في الكلِم لاغون".[٤]

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص: ٤٥٩- ٤٦٠. الخويخية: الداهية، (ابن منظور، لسان العرب، مادة خوخ)؛ الفرسك: الخوخ (الفيروزأبادي محي الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ)، القاموس المحيط، مادة فرسك)، مشيمشيات: الدنانير الذهبية (ابن منظور، لسان العرب، مادة مشمش)، أم خشاف(نفسه، مادة خشف)؛ والعنقفير : الداهية (الفيروزأبادي، القاموس المحيط: مادة عقر) ، نقيش : دينار ذهبي (ابن منظور، لسان العرب، مادة نقش) ، بلّ: ظفر (نفسه، مادة بلل). معنى الكلمات كذلك في حاشية الصاهل والشاحج، ص٤٥٩-٤٦٠.

[٢]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص ٤٦١

[٣]- نفسه، ص٤٣٧.

[٤]- نفسه، ص ٤٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د- آثار الجفلة

بدت شخوص معرة النعمان الانهزاميّة الهاربة هزيلة لانعدام تواصلها الروحي مع المكان، وينبعث من تصرفها التصدع المتشكل في المجتمع، وفي اللحظة الحرجة لا يتردد الواحد منهم في الهرب، فجماعات تركض دون وعي لقلة البصيرة وطيران الألباب، كما يخمد أجيج صانعي الطعام، يقول في وصف مشاهد عدة :

" وربما رأيتَ الجماعة الكثيرةَ وهم لِقِلّةِ البصيرةِ وطيرانِ الألبابِ يَجْرُون مَجرَى الفدِّ من الرجال". [١] ويمثل أصحاب الحرف والمهن بُعداً حضارياً، فالمعري يعرفنا بالمعطيات الحضارية الشائعة في عصره متمثلة بالمهن المختلفة، ويبدو أن جميع أصحاب الحرف والمهن كانوا مشدودين إلى الحدث (الجفلة)، وتلاشى اهتمامهم بأدوات صنعتهم، فهم وإن اختلفوا في ألوان مهنهم، إلا أنهم اجتمعوا على نتيجة واحدة وهي هربهم جميعاً مخلفين وراءهم صنعتهم.

ولعل أسلوب السخرية الذي ينتهجه المعري يجعلها تحفر عميقاً، وقد بدأ بالسلطة ممثلة بوالي المعرة، الذي ركب لحياطة الجالية وتأمين السلامة لأفرادها، ومن ثم بالقاضي الذي ترك أرض معرة النعمان ولحق بوطنه، وقد تهيأ العدولُ للنفر إن صاح الصائحُ فوضعوا ما يرتدونه من ألبسة كالسيجان (الطيلسان) والمشاوذ (العمائم). [٢]

وقد تنعكس حالة الوله والجزع من النفس على المكان، فظهر في حال الفوضى والاضطراب، فأدى الأمر بأصحاب البز أن تختلط ثياب العُطب (القطن) وثياب الشريع (الكتان)، واختلطت كذلك القطع المخيطة مع غيرها من القماش. أما الصيدلاني فما يُعرف عن دكانه الغاية في التنظيم والترتيب، إلا إنه ينتقضُ وتختلط الأدوية ببعضها، أما أخو الضَّغِيل (الحجّام) فإنه في نفرته يأخذ أدواته "وقد حَمَلَ معه خَضراوَين تَمتلئان كلَّ يومٍ وتفرُغانِ من دمِاء أهل العَمَدِ وأهلِ المغاني".[٣]

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص ٤٣٨

[٢]- نفسه، ص ٤٤٧-٤٤٨.

[٣]- نفسه، ص٤٥٣. خضراوين: محجمين (ابن منظور، لسان العرب: مادة خضر)؛ أهل العمد: البدو الرحل (نفسه: مادة عمد)؛ أهل المغاني: الحضر (نفسه: مادة غني).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتعطل الأعمال فلا حاجة لأحدٍ ليشتري ما يُنتج الهالكي (الحدّاد) من الفؤوس الخاصّة بالحرث والحجارة، ويردّ الصباغون إلى الناس متاعهم، ويتخذ الدباغون والحائكون وسيلتهم الهرب، [١] وخمد أجيج نار غير واحدٍ، يقول في وصف الصائغ:

" وأما قَيْنُ القِلبةِ والخدم وصانعُ الرعاثِ والثُّوم الذي يُزيِّنُ صُغرياتِ الشَناتر بالفَتَخَةِ أو الحلق المتخَذِ من سَام خُزَيْبَة أو سِيَراءَ ذي سامَة، فَخَمَدَ أجَيَجُ ناره، وخَلَصَ من الجحيم شخُص دِيناره؛ ورأيَتهَ يحملُ أدَاتَه، رَوْحتَه للهربِ أو غدَاته". [٢]

وإذا كانت هذه السلبيّة في التعامل مع الموقف واقعيّة، فإنها في الوقت نفسهِ تضج بالتناقضات لاختلاط مشاعر الظاعنين، فبقدر ما اقتربت الشخصيّة من الحفاظ على ذاتها إلا أنها بدت ضاوية، ويكشف الوصف هذا التصرف بأسلوب ساخر، يقول:

" وإنكَ لتَرى الضرورةَ الواقعةَ وقد فعلتْ في القوم الشيءَ وضِدَّه، وذلك بقضاءِ اللهِ العالم بِخَفِيِّ الأمور: فترى الرجلَ أخا النشاط والمَرح قد حَمَلَ على ظهرهِ الأوْقَ المُثقِلَ، فصار يَهدِجُ هِدَاجَ الشيخ ويَدْلفُ دَلِيف الهمِّ الكبير. وترى الآخرَ الذي كان يَمشِي هَوْناً على الأرض وقد استعجَله عن السَجيَّة الخوفُ فأرْغَبَ الشَّحْوَةَ واجتهد في التَوَقُّص". [٣]

هـ- عودة الظاعنين :

لقد مثلت الجفلة حلبة لهاجس المعريّ، واشتملت على سلسلة متنوعة من المشاهد المتناقضة لضغط الحدث فكشفت عن هشاشة مواقف الشخصيات، إلا أن ذلك

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص٤٥٤، وص٤٥٨.

[٢]- نفسه، ص ٤٥٤؛ القين : الصائغ، (ابن منظور، لسان العرب، مادة قين)، والقلبة: سوار المرأة (نفسه، مادة قلب)، والرعاث : الأقراط (نفسه، مادة رعث)، والشناتر: الأصابع (نفسه، مادة شتر) الفتخة : حلقة الخاتم، (نفسه، مادة فتخ)، خزيبة، معدن الذهب (نفسه، مادة خزب)، ذو سامه: عرق الذهب والفضة أو عروقهما في الحجر(الفيروزأبادي، القاموس المحيط، مادة سوم) وينظر معاني الكلمات حاشةي الصاهل والشاحج، ص٤٥٤.

[٣]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص ٤٦٠. الهم: الشيخ الكبير (ابن منظور، لسان العرب، مادة همم)؛ فارغب: وسع الخطوة (نفسة: مادة رغب)؛ الشحوة: الخطوة (نفسه: مادة شحو)؛ التوقص: تقارب الخطو (نفسه: مادة وقص).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحدث لم يعمر طويلاً، وكان الضرر وغياب الاستقرار من أهمّ نتائجه ، وما تفتأ الذات أن تتبين خيبة الأمل التي أصابتها وقساوة التجربة التي مرت بها فيحفزها ذلك إلى اتخاذ قرارٍ بألا تعيد الهرب مرة أخرى، يقول في وصف المشهد:

" وكم ترى من شيخٍ عائدٍ إلى منزله وهو يَهدِجُ على عصاه ، قد لقّى شِدَّةً من العْيشِ فأقسم أنه لا يَفِرُّ إن وَقَعَ إرجافٌ ثانٍ.

أنا الذي فررتُ يوم الحَرَّة

والحُرُّ لا يفرُّ إلا مرّة "[١]

وقد تحدث الشاحج بأسلوب ساخر عن عودة الجالين، فالبداية بنيت على الخطأ متمثلة في هربهم، ومن هنا فإنها ستؤدي إلى نتائج سلبية وخاطئة، والشاحج يرفض كل أشكال الهرب كما يرفض الطرق التي سلكها الظاعنون، وبما أن أهل المعرة لم يعتادوا على الظعن والارتحال، فقد وقعوا في غير مشكلة كان سببها عدم معرفتهم بالأماكن، فإذا كان الهرب الوسيلة للنجاة، فإنهم سرعان ما دفعوا ثمن هذه الوسيلة، يقول الشاحج في وصفهم:

"وأمّا أرضي فعادَتْ جاليَتُها من كلِّ الأقطار، فرجع الجالونَ من الشرق كأنّهم أنضاءُ سَفَرَ أو رَذايا رَكْب، فزعموا أنّهم كانوا في العَلاة قد ضاقتْ بهم المنازلُ، فكانوا بالنهار ينتقلون في الظلالِ والأفياءِ كأنَّهم سِخالُ الرَّبْرَبِ حِميَ عليها القيظُ. وكانوا فيما يذكرون ، يَمتَحُون رحَالهم إلى أعلى البرحَةِ كما تُمتَح دِلاءٌ بالحَوأبِ".[٢]

وإذا كانت المجتمعات تقوم وتتأسس بالثبات، وتنهار بالتحول والتشتت؛ فإن خطورة المجازفة تنكشف هنا، وتنسحب على الظاعنين العائدين، فقد خلت جفلتهم من الشعور بالأمن، ثم إن هاجسهم يتمثل في الخوف من الموت. إلا أنّ الظاعنين جميعهم

١- المعري، رسالة الصاهل والشاحج ، ص ٦١٤

٢- نفسه، ص٦١٠. أنضاء: مهازيل (ابن منظور، لسان العرب: مادة نضو)؛ رذايا: الضعيف من كل شيء (نفسه مادة رذي)؛ العُلاة: جبل (نفسه، مادة على)؛ سخال الربرب: أولاد البقر الوحشية (نفسه، مادة سخل). وينظر حاشية الصاهل والشاحج، ص٦١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعودون دون خسائرعلى سبيل السخرية والتهكم. فجالية " سُـرْية "[١] جاءت تصف ما لقيت من حذار الأسد، إلا أنهم سلموا بحمدالله، ولم يصب أسد ولا كليب[٢]، وقد ذكرت نساء سُرية ما أصاب قومهم بعد النفرة، ومصاحبتهم للوحوش المتأبدة وعيشهم في الخلاء والمنازل الخاوية،[٣] كما عادت جالية "أفامية"[٤] شاكرة[٥]، وعاد أهل حلب مكتفين بالدعاء لصاحب السلطة، الذي لم يمنعهم حتى من الفرار؛ فالعامة يلهثون وراء السلطة كالباحث وراء سراب ويحتمون وراء ظلها . وينجلي هذا الأمر في وصف عودتهم:

"أمَّا جاليةُ " حلبَ"، حرسها اللهُ، فأقبلوا وقد ظهر عليهم رونقُ البلدِ وآثارُ الخَفْض ورفعوا أصواتَهم بالدُّعاءِ للسّيد " عزيز الدولةِ" – أعزَّ اللهُ نصرَه– وقالوا: إن اللهَ تعالى أنعمَ على الرعيّةِ بهذا السلطان... " .[٦]

ولعل المرواحة في المكان وتغييره دليل على عدم الانسجام مع الواقع المحيط؛ فالجالون بكل ما يختزنون من همة ونشاط يواظبون على الاعتصام بمغارة، أو تضيق بهم المنازل فيعمدون إلى الجبال المرتفعة، ولما قرروا العودة يلجأون إلى المواضع التي خبّؤوا فيها رحالهم فيجدون " بعضَها قد اختلط ببَعضٍ، لأنهم وضعوها في حالِ الدَّهش والذهول، فهم يتَلاحَوْن في تمييزها لأنها مُلتبسة كالتباس اللفظ في قول "الفَرزدق" :

وما مِثْلُهُ في الناسِ إلا مُلَكاً أبو أُمِّه حَيٌّ أبوهُ يُقاربُه" [١]

---

[١]– السُّرَيّة: قرية من أغوار الشام ، (الحموي، معجم البلدان، ٢٤٨/٣) وينظر حاشية الصاهل والشاحج، ص٦١.

[٢]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ٦١٩

[٣]– نفسه، ص٦١٥.

[٤]– أفامية :مدينة حصينة من سواحل الشام، وهي كورة من كور حمص، ويسميها بعضهم فامية بغير همزة. (الحموي، معجم البلدان، ص ٢٦٩/١).

[٥]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ٦١٥

[٦]– نفسه، ص ٦٣٢

[١]– نفسه، ص٦٣٠. ورد البيت في ديوان الفرزدق ، ص١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانياً: أصحاب الملل والنِحل والزنادقة في رسالة الغفران:

أما القسم الثاني من الغفران فيجعله المعري مخصصاً للردِّ على أسئلة ابن القارح، كما يمتلئ بأحاديث عن الإلحاد والزنادقة ورقيقي الدين، وهم يمثلون محوراً مهماً وركيزة أساسية في الردّ على استفسارات ابن القارح حول بعضهم ممن يزعمون أنهم أصحاب دين.

ولعل الحديث عن تلك الفئات يقود إلى الإشارة إلى أدعياء يتطفلون على موائد الدين ، وتعدّ سلطتهم هي السلطة الأولى التي تتخفى السلطة الحقيقيّة وراءها، وهم عادة يثبتون سلطتهم داخل المجتمع بوجود الأتباع، كما أنّ سذاجة هؤلاء الأتباع تسهم في تقديمهم الدعم لهم ومساندتهم وتأييد أفكارهم واستمرارهم ، فعلاقة المدّعين للدين بالعامة علاقة تقوم على التبعيّة والتلاعب بالعقول واحترام العامة لهم .

وانتقد المعري في أدبه عامة أصحاب الملل المخالفة، والفرق المدعيّة الأخرى: كالمعتزلة، والأشاعرة، والشيعة، وتطاولهم على عليّ –رضي الله عنه– وأصحاب التناسخ، والحلولية وغيرهم. وقد شهد عصر المعري جدالاً عنيفاً بين أصحاب الفرق والمذاهب الإسلامية فوجد أنّ هذه الفئات انحرفت وسلكت مسالك الغيّ، كما عدّها قرينة الجهل وتسعى من ذلك كله إلى تحقيق مكاسب دنيوية .[١] ويرى المعري أنّ الإلحاد والكفر قديم في الإنسان، يقول في معرض تأكيد الفكرة: "ولم يَزَل الإلحادُ في بني "آدمَ" على ممرِّ الدُّهور، حتى إنَّ أصحابَ السِّيرِ يزعمون أنّ آدمَ، صلى الله عليه وسلم، بُعِثَ إلى أولادِه، فأنذرهم بالآخرةِ، وخوَّفهم من العذابِ. فكذَّبوه وردُّوا قوله. ثم على ذلك المِنهاج إلى اليوم" .[١]

ومن الموضوعات التي تمثل قوة على بعض الجماعات قضية التناسخ التي حيك حولها غير قصةٍ، وهنا تنسحب الذات بروحها وتتحد في الآخر وتحلّ فيه، كما يعتقد

---

[١]– سلامة، يسري محمد، النقد الاجتماعي في آثار المعري ، ٢٩٢ ؛ سعيفان، كامل، في صحبة أبي العلاء بين التمرد والانتماء، ص١٥٢؛ العلي، عدنان عبيد، المعري في فكره وسخريته، ص ٢٣٦؛ خناري، علي، مصادر ثقافة أبي العلاء المعري من خلال ديوان لزوم مالا يلزم ، ص ٢٤٠.

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص٤٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أصحابها، وقد يكون الآخر حيواناً. فالتناسخ يقوم على التحول إلى صورة جديدة يفتقد فيها الخصوصية السابقة، والآخر في هذا الخبر جمل، فقد روي عن رجل رأى في المنام والده يقول له: إنّ روحه انتقلت إلى جمل أعور في قطار فلان، وأنّه اشتهى بطيخة وهو يدّعم كلامه بالذاتية لتأكيد حقيقة ما جرى،" قال : فأخذتُ بطيخةً وسألتُ عن ذلك القِطارِ فوجدتُ فيه جملاً أعورَ، فدنوتُ منهُ بالبطيخةِ، فأخذها أخذَ مُريدٍ مُشْتَهٍ".[١]

وهكذا، فإنّ المعري يصوّر الفئات المنحرفة في المجتمع، ومنها أصحاب الحلولية والتناسخ، ويورد غير خبر عن هؤلاء؛ وما هذه الأخبار إلا مشاهد وأقنعة تتداخل لتبين الصدع والخلل في بعض المجتمعات عامة، فقد حكي عن شاب من ملوك الهند "أنَّهُ جُدِّرَ فنَظر إلى وَجهه في المِرآةِ وقد تغيَّر، فأحَرقَ نفسَه وقال: أُريدُ أن يَنقلني اللهُ إلى صورةٍ أحسنَ من هذهِ".[٢]

ثم فقد تتفق الأمور صدفة مع ما يقوله أحد المدّعين بالحلوليّة، إذ كان خارجاً مع قوم يتنزهون " فمرّوا بثورٍ يَكْرُبُ، فقالَ لأصحابهِ: لا أشكُّ في أنَّ الثورَ رجلٌ يُعرَفُ "بخَلَفٍ" بَحرَّانَ، وجعل يَصيحُ به: "يا خَلَفُ" فيتَّفِقُ أن يَخورَ ذلك الثورُ، فيقولُ لأصحابِهِ: ألا تَروْنَ إلى صِحَّةِ ما خَبرتُكم به"؟. [٣]

أما ادّعاء الربوبية والنبوة فهو غير قليل ، ففي غياب وعي فكريّ وأخلاقيّ ينساق أحدهم وراء جهله ويؤسس لأباطيل، حينما يرى أن تواصله بالدنيا سينقطع. فقساوة الموت ومرراته لا تعني شيئاً لمن سيطر عليه الكفر والجهل، يقول أحد زعماء القرامطة لمّا حضرته المنية :

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٤٦٩.

[٢]- نفسه، ص٤٥٩-٤٦٠.

[٣]- نفسه، ص٤٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"إني قد عَزمتُ على النُّقلةِ ، وقد كنتُ بَعَثْتُ موسى وعيسى ومحمَّداً ولا بُدَّ لي أنْ أبعثَ غيرَ هؤلاءِ".[١]

وقد يكون غُلاة الشيعة قناعاً للسلطة، إذ يقترن أحدهم بجبروتها ومفاسدها ، ويكون صورة منقحة أو مموهة للسلطة الداء، والملاحظ سهولة انقياد البعض إلى هؤلاء ومنهم رجل ظهر في البصرة ادّعى الربوبية "يُعرَفَ بـ" شاباس". [٢] "تَزْعمُ جماعةٌ كثيرةٌ أنّهُ ربُّ العزَّةِ، وتُجْبَى إليه الأموالُ الجَمَّة، ويَحمِلُ إلى السلطانِ منها قسماً وافراً، ليكونَ بما طلب ظافراً؛ وهو إذا كُشِف، ساقطٌ لاقطٌ...".[٣]

ويظهر أصحاب الملل والفرق بمبادئ تنأى عن الدين وآدابه ، ويمثل وجود هؤلاء خطراً على المجتمع، فاهواؤهم وميولهم تتحكم بهم، إذ يتظاهر أحدهم بالاعتزال لتحقيق مصالح هالكة ، ويرتكب المعصية جهاراً ثم يلوذ إلى التوبة، ومن ذلك ماقيل حول إمام للمعتزلة (لم يذكر اسمه):

" وحُدِّثْتُ عن إمام لهم يُوقَرُ ويُتبَعُ، وكأنه من الجهل رُبَع. إنه كان إذا جلس في الشَّرْبِ ، ودارت عليهم المُسكِرةُ ذاتُ الغَرْبِ، وجاءه القَدَحُ شربَهُ فاستوفاه، وأشْهَدَ مَنْ حَضرَه التوبةِ لِما اقتفاه". [٤]

ولا يخفى على المتتبع لهذهِ الفرق أن يلمح إشارات إلى تسليم أنفسهم إلى أباطيل وهذيان، وتنهزم ذواتهم وتتلاشى لتمردهم على العقل، فقد تسربت المبالغات على ألسنة الشيعة فبعضهم يحدّث أنّ سلمان الفارسيّ جاء في جماعةٍ يطلبون علي بن أبي طالب فلم يجدوه في منزله " فبينا هم كذلك جاءَت بارقةٌ تتبعُها راعدة، وإذا "عليٌّ قد نزل

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٤٤٢- ٤٤٣.

[٢]- شاباس : من غُلاة الشيعة (المعري، رسالة الغفران، ص٤٩٤).

[٣]- نفسه، ص ٤٩٤.

[٤]- نفسه، ص٤٦٦. ربع: فيصل الناقة الذي يولد في الربيع (ابن منظور، لسان العرب، مادة ربع).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على إجّارِ البيتِ، في يدِه سيفٌ مخضوبٌ بالدمِ فقال: وَقَعَ بينَ فئتين من الملائكةِ فصعدتُ إلى السماء لأصلِحَ بينهما"!. [١]

وإدعاء النبوة ظاهرٌ ، ويتلاءم والتكوين النفسيّ لمجتمعٍ يحيا الفوضى، ويشكل تصرف هؤلاء المدّعين واقعة محيرة، فالجهل يطغي عليهم ويرتبطون بقيم سلبيّة، فأحدهم كان إلى الجنون أقرب منه إلى العقل، ويقول في وصفه:

" وقد ظهرَ في الضيعةِ المعروفةِ بـ " النَيْرَبِ". [٢] المقاربةِ لـ "سَرْمِينَ"[٣] رجلٌ يُعرفْ بـِ " أبي جْوفٍ " لا يستترُ من الجهلِ بَحَوْفٍ... كان يدّعي النبَّوةَ، ويخبُر بأخبار مُضحكة، وتَثبتُ نيتُه على ذلك ثباتَ المَحَكةِ. وكان لهُ قُطنٌ في بيتٍ فقال: إن قطني لا يحترقُ! وأمَر ابنهُ أن يُدنيَ سراجاً إليه، فأخذ في العُطْبِ. وصرخت النساءُ، واجتمعت الجيرةُ وإنما الغرضُ إطفاءٌ"! [٤]

كما اتخذ منهجاً شاذاً في حياته فكان كثير الضحك بغير موجبٍ، مثيراً للغرابة والسخرية والتهكم، وقد تشبث به خلق كثير، يقول المعري في وصف تصرفاته المختلة:

" وحَدَّثني من شاهدَ، أنه كان يُكثرُ الضحِكَ بغيرِ موجِبٍ، ولا عندَ حدَثٍ معجِبٍ، فقيلَ لهُ: ممَّ تَضحك؟ فقال كلاماً معناهُ : إنّ الإنسانَ ليفرحُ بهينِ قليلٍ ، فكيف مَنْ وَصَلَ إلى العطاءِ الجليل"؟.[١]

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص ٤٩٧-٤٩٨؛ إجّار : سطح ليس عليه سترة، وليس حوله ما يرد الساقط. (ابن منظور، لسان العرب، مادة جير).

[٢]- النيرب: قرية مشهورة بحلب، (الحموي، معجم البلدان ، ج٥/٣٨٠).

[٣]- سَرمين : بلدة مشهورة من أعمال حلب، (نفسه، ج٣/٢٤٣).

[٤]- المعري، رسالة الغفران، ص٤٩٦. الحوف: جلد يشق على هيئة إزار (ابن منظور، لسان العرب، مادة حوف)؛ المحكة: اللجوج (نفسه، مادة حكك).

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٤٢٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويستعين المعري بالجواري ليصور حالة من الحياة اللاهية التي غمرت مجتمعه، متجاوزة الاهتمام بإصلاح الأوضاع المحيطة ، فمن التصدعات والتناقضات، تزاحم الجارية حول الزنادقة (ومنهم الصناديقي) مستسلمة حتى حدود العجز للرجال، تكرر ما قاله بكل سذاجة. والمعروف أنّ للغناء والمغنيات تأثيراً على الناس. والجواري في هذا المشهد تكرر ألفاظاً مشينة ونابية تدور حول الزواج من المحارم وتزيين الفواحش وتسويغها. يقول في رواية الخبر :

" وأما المَنسوُب إلى الصناديِق، فإنه يُحَسبُ من الزناديق. وأحسبُهُ الذي كان يُعرَفُ "بالمنصور" ظَهَرَ سنة سَبعين ومائتَين، وأقام بُرَهة "باليَمَن"، وفي زمانهِ كانتَ القِيَانُ تَلعَبُ بالدُّفِّ، وتقولُ(من المتقارب):

خُذِي الدُّفَّ يا هذهِ والعَبِي

وبُثِّي فَضائلَ هَذا النَّبِي

تَولّي نَبيٌّ بَنِي هاشِمٍ

وقامَ نَبيٌّ بَني يَعْرُبِ

فما نَبْتَغي السَّعْي عند الصَّفا،

ولا زَوَرَةَ القَبرِ في يَثْرِبِ

إذا القومُ صَلّوَا فلا تَنَهَضِي

وأنْ صَوّمُوَا ، فكُلِي واشْرَبِي" [1]

والغريب أنّ هؤلاء الخلعاء ورقيقي الدين يحاطون بالأتباع المعجبين، كما تبدو صورهم غائمة فيفتقدون لمعالم واضحة وآراء مقنعة ، ويستغلون الخواء الروحي للعامّة؛ الذين بدوا شخصيات هزيلة تلبي رغباتهم. وهم رمزٌ للسلطة ولا يُسهمون في إصلاح الخلل المتفشي في المجتمع، بل يمثلون جزءاً حقيقياً من ذلك الخلل وينشدّون

[1]- المعري، رسالة الغفران، ص ٤٣٨-٤٣٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلى رنين الدنانير، لا إلى قول القلب فيجتمع فيهم القبح والشّرّ والأذى والجهل، يقول المعري: "ولكن أينَ من يصبِرُ على أحكامِ العقل، ويصقُلُ فهمَه أبلغَ صَقل؟ هيهات! عُدِم ذلك في مَن تطلُعُ عليه الشمسُ، ومَن ضَمِنَهُ في الرِّمَم رَمسٌ، إلا أن يَشِدَّ رجُلٌ في الأمم، يُخَصُّ من فَضلِ بعَمَم".[١]

ثالثا: أصحاب الملل والنحل في كتاب "زجر النابح" (مقتطفات) :

سلك المعري في كتاب " مقتطفات من زجر النابح " مسلكاً يدافع فيه عن نفسهِ من اتهامه بالزندقة لغموض أبيات في (لزوم مالا يلزم) " ويغلب على الظن أن خصماً لأبي العلاء كتب رسالة يتعقب فيها أقواله في (لزوم مالا يلزم) ممعناً في أذيتّه والتأليب عليه، مما قلق له بعض أصدقائه فحملوه على أن يردّ عن نفسه سفه هذا الخصم العنيد". [٢]

وقد تتبع "زجر النابح" أخبار قسم من المرائين وأصحاب الملل بأسلوب لا يخلو من السخرية، وتُعدُّ سخرية المعري بأصحاب الملل والنحل حملة صادقة على المرائين والمنافقين المدّعين؛ ودافعه الردّ على من تجرأ عليه واتهمه في دينه وشكك في عقيدته، فبيّن أن حديثه ملئٌ بالنفاق والإسراف في الغيرة على الدين والتظاهر بالغضب دون وجه حق، وأخذ يكشف جهله وإسرافه وتماديه.

ولعل مما يذكر هنا الإشارة إلى أنّ الانحراف والضلال قديم قدم الإنسان نفسه، كما أن الإلحاد داءٌ قديم متأصل منذ بدء العصور ، وقد يكون عائداً إلى غفلة الناس وحمقهم. فمما يروى قبل نوح بزمنٍ طويل أن نسراً الذي ذكره الله ﴿ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾ [١] كان يسجد له قوم، ويطلع عليهم النسر من النجوم ، فهلكوا كما هلك غيرهم، وقد اختلف في نسر هذا ، فقيل: إنه واللّذين ذُكراً معه(يغوث ويعوق) كانوا رجالاً يُعظمُّون ويُكَرمون، فلما هلكوا اتخذت أتباعهم صوراً من الحجارة تشاكلهم،

---

[١]– المعري، رسالة الغفران، ٤٦٤.

[٢]– المعري، زجر النابح (مقتطفات)، المعري، مقدمة المحقق أمجد الطرابلسي ، ص ٢٤

[١]– سورة نوح آيه ٢٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانوا يسجدون لها . وقد روي "أن يعوقَ ويغوثَ صنمان، وأن نسراً إنما عُني بهِ نسر أي طائر كان يجيءُ إلى قوم فيُجلّونه ويُهدون إليه عذراء من عذارى الحيّ فيأكلها" . [١]

والضلال لا يخص أمة دون غيرها، إذ إن البلية شملت الجمع فأصبحت عامة. وهكذا فإن التوراة التي نزلت على موسى غُيّرت وحُرفت، فقد روي في بعض الأخبار في عهد "بُخت نَصَّر"[٢] أنهم "طمروا التوراةَ فَتَلِفَتْ في الدَّفن، فأدْرَكهم خطبٌ عظيمٌ. فرجِعوا إلى رَجُلٍ يدّعي حفظَها أو يظنون به ذلك، فزادَ فيها ونقص وأوقعَ بها التغيير". [٣]

واستشهد بقصة أحد الهنود الذي أوصى بنيه: "إذا أنا مِتُّ فحرقوني بالنار، حتى إذا صِرتُ حِمماً فدَقوني ثم ذرّوني في الرياح لعليّ أُضِل الله".[١] وذلك استشعاراً منه لعظمة الله الخالق، ومن شدة خوفه من عقوبته.

---

[١]- المعري، زجر النابح(مقتطفات)، ص٤٩-٥٠؛ وهو توضيح لما جاء في اللزوميات

فإنّ رجالاً كان نسرٌ لَدَيهمُ إلاهاً عليهم قبلنا طلع النَسرُ

وعاشوا يرون اليُسر إفضالَ مكثرٍ على مُقْترٍ، ثم انقضى الناسُ واليُسرُ

المعري، ديوان لزوم مالا يلزم، حرره وشرح تعبيره وأغراضه، كمال اليازجي، م٣٣٩/١.

[٢]- بخت نصر: وقد ذكر كثير مما عني بأخبار الفرس أن بخت نصر مرزبان العراق والمغرب، وقد كان من قبل هذا الملك، وهو الذي وطئ الشام، وفتح بيت المقدس، وسبى بني إسرائيل، وكان من أمره بالشام والمغرب ما قد اشتهر، والعامة تسميه البخت ناصر. (المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦هـ)، مروج الذهب، ج١/ ٢٥١).

[٣]- المعري، مقتطفات من زجر النابح، ص ١٠١، وهو توضيح لأبيات في اللزوميات:

عليكَ العقلَ فافعل ما رآهُ جميلاً فهو مُشتار الشوار

ولا تقبل من التوارةِ حكماً فإنّ الحقَ عنها في توار

المعري، ديوان لزوم ما لا يلزم، م٤٦٦/١.

[١]- المعري، زجر النابح(مقتطفات)، ص١٣٥ .وهو توضيح لأبيات في ديوان اللزوميات:

حَرّق الهند من يموت فمازا روه في رَوْحَةٍ ولا تبكير

واستراحوا من ضغطة القبر ميتاً وسؤال من منكرٍ ونكيرٍ

المعري، ديوان لزوم مالايلزم، ٥٠٤/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تؤدي المبالغة في العبادة إلى الضلال كما روى أحد المسافرين إلى الهند عن طقوس بعض المريدين، فالرجل "منهم إذا أرادَ النهاية في التعبّدِ أوقدت له نارٌ عظيمةٌ، ومن شأنهم أنّ يُطوّلوا شعورَهم، فإذا أرادَ المريدُ أن يقذفَ نفسَه في النارِ حَلَقَ وسط رأسه وجعل فيه السمندروس وأرسل فيه النار، وأقبل يسير إليها مسير مظهرِ للفرحِ جذلان بما يتّوقع، إلى أن يطرح نفسه فيها. وحوالي تلك النار قوم بأيديهم عِصيٌّ، فإنّ همّ أن يخرج إذا وجد حرارة النار دفعوه بتلك العصي، فإذا صار رماداً حملوه فذّروه في البحر ...". [١]

ومما يذكره بعض الفقهاء الذين كانوا بخراسان أن محموداً[٢] كان لديه جماعة من أهل الهند يقربهم ويتصور أنهم أهل دين ، فسيّر أحدهم في بعض الوجوه، فجاء خبر موته " وكانت له امرأة هندية . فقالت : لا أعيش بعده. وجُمع لها حطب كثير، وأُوقدت نارٌ عظيمةٌ وحَرّقتْ نفسها في تلك النار، فلم تمض إلاّ مدة يسيرة حتى قدم زوجها الذي ذُكر أنه قد هلك. فلّما خُبّر بخبرها قال: أريد أن أُحرّق نفسي كما صنعت امرأتي ، فأوقدت له نار مضطرمة ...". [٣]

والمعري يؤكد بتتبع أخبار هؤلاء النفر أنهم طُبعوا على الخروج عن الحقّ، واتباع الأهواء، وهم لا يفعلون ذلك إلا لإقبالهم على الحياة، وخوفهم من الحساب، أو لجهلهم وحمقهم الذي استبدّ بهم وطغى عليهم.

والراوي لا يهتم بذكر الصفات الجسدية والأوصاف الخارجية للشخصية، لأن اهتمامه كان منصباً على النواحي النفسية والفكرية للشخصية؛ ذلك أن الشخصية في تلك الأخبار موظفة للتعبير عن فكرته وموقفه، كما أنه لم يذكر أسماء الشخصيات

---

[١]- المعري، زجر النابح(مقتطفات)، ص ١٣٢، السنمدروس : قيل إنه معدن يتولد في طباق الأرض (ابن فضل الله، محمد الأمين، قصد السبيل، تحقيق عثمان محمود، ١٦١/٢).

[٢]- محمود: هو محمود بن سبكتكين الغزنوي السُّلطان، يمين الدولة أبو القاسم ابن الأمير ناصر الدولة. فاتح الهند امتدت سلطته من أقاصي الهند إلى نيسابور. وكانت عاصمته غزنة. (ابن الأثير، الكامل، ج١٣٩/٩؛ ابن خلكان، وفيات الأ'يان، ١٧٥/٥-١٨٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣٠٤/١١-٣٠٥).

[٣]- المعري، مقتطفات من زجر النابح، ص ١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومهنها ولا اهتم بسرد تفاصيل حياتها إلا بما يخدم رؤيته العامة، ومن ذلك قوله: إن أحد الرجال يوصي، وآخر يدعي حفظ التوراة، ورجل أراد النهاية في التعبد، وغير ذلك من الأمثلة التي وردت سابقاً.

رابعاً: المرأة الأرضية في رسالة الغفران :

حرص المعري في أعماله النثرية على تصوير الواقع الاجتماعي بكل فئاته. واحتشدت تلك الأعمال بصورة اجتماعيّة متكررة، لذا رسم صورتين للمرأة: الحرة والمرأة القينة، إلا أن اهتمامه انصب على إبراز شخصية المرأة القين في رسالة الغفران، ولئن غلب الجانب الخيالي على تصويره للجارية في الجزء الأول من رسالة الغفران، إلا أنها كانت أرضية واقعية في الجزء الثاني منها.

وظهرت المقارنة بين الجواري الفردوسية وذاكرتها المميزة والجارية الأرضية الشاهدة على الماضي؛ إذ لا تبتعد عنه فتنوء بثقله وتصدعه كما تُظهر مدى الضعف، إذ كان تشكيلها في ذهن المعري مبنياً على معطيات حاضرة في فكرهِ ، حين يحولها نقيضاً جذرياً للرموز الفوقية في العالم الآخر، فالمرأة في الجنان تتضاعف قواها وتتميز حافظتها، أما المرأة في الحياة العاجلة فتحتاج إلى شهرٍ كامل لحفظ بيت أو بيتين قصيدة. يقول في وصفها:

" لقد كانت الجاريةُ في الدارِ العاجلةِ، إذا تُفرِّسَتْ فيها النَّجابةُ، وأحضِرتَ لها المُلحِّنَةُ لتُلقِيَ إليها ما تَعرِفُ من ثقيلٍ وخفيفٍ، وتأخُذها بمأخذٍ غيرِ ذَفِيف، تُقيمُ معها الشَّهرَ كَريتاً، قبلَ أن تُلقَنَ كَذِباً خَنْبَرِيتاً: بيتاً من الغَزَلِ أو بَيتَين، ثمّ تُعْطَى المائة أو المائتَين"[١]

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص٢٢٦ ؛ كريتاً :تام العدد (نفسه، ص٢٢٦)، ذفيف: سريع خفيف(ابن منظور، لسان العرب ، مادة ذفف)، خنبريتاً : خالصاً (نفسه: مادة خنبر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأول صورة للمرأة تتمثل في زوجة كسرى ، الملكة التي تدعى شيرين، [١] وهي قناع للمرأة المومس المغرقة في الفساد، فلم تلتزم بالحدود التي رسمها المجتمع، بيد أن هذا النموذج يقدم صورة لواقع المرأة العبثية المستهترة، في حين يرى الملك أنه لا ضير في الزواج من هذه الفئة المتردية من النساء إذ قام المرء بتطهيرها وتنقيتها، تتضح ذلك في رده على سؤال جلسائه:

" كيف تَطِيبُ نفسُ الملِكِ لهذه المُومِس، وهي الوالِجةُ في المَغمِّس؟ فضرَبَ لهم المَثَلَ بالقَدَح – وإذا حَظِيت الغانيةُ فليستْ بالمُقْتَقِرة إلى الصَّدَحَ– جَعَلَ في الإنَاءِ الشَّعَرَ والدّمَ، وقال للحاضِرِ ولا نَدَمَ ، أتجيبُ نَفْسُك لِشُرب ما فيه؟ وإنما يُجنَحُ إلى تلافيه . فقال: إنّها لا تَطيبُ، وهي بالأنجاسِ قطيبٌ . فأراق ذلك الشيء وَغَسَله، وهَذَّبَ وعاءَه ثم عَسلهُ، وجَعَلَ فيه من بعدُ مُدَامَاً، وعرَضَها على النَدامَى، فكلهم بَهَشَ أن يَشْرَب، ومن يعافُ العاتِقَة والغَرَب؟ فقال :هذا مثل "شِيرين"، فلا تكونوا في السّفَهِ مُسيرين". [٢]

ولعل اختيار الملكة شيرين لم يكن صدفة، بل كان مقصوداً واعياً، وإن لم تكن الملكة المضروبة في المثال يمكن تعميمها على كل فئات المجتمع، إلا أنها تصلح للتمثيل على سلبية جواري ذلك الزمان، إذ يذكر شوقي ضيف في صفة العصر العباسي الأول كثرة رقيق النساء من الجواري، وكنّ من أجناس مختلفة فارسيات وروميات وأرمنيات وتركيات، [١] فالجواري كما تبدى للمعري امتداد لحقيقة أخلاق الملكة شيرين (الأرمنية)، ومن هنا فقد أساء المعريّ الظنّ بالجواري، ومرد هذه النقمة

---

[١]– شيرين : هي حظية كسرى ملك الفُرس، وقد كان لها سلطان عظيم، قيل: إنها بنت ملك الأرمن وقد فضّلها كسرى على من سواها وأحسن معاملتها ؛ الفردوسي، أبو القاسم (ت٤١١هـ)، الشاهنامة، ملحمة الفرس الكبرى، ترجمة سمير المالطي، ص٢٢٠–٢٢١.

[٢]– المعري، رسالة الغفران ، ص ٣٨١–٣٨٢؛ الصدحة: خرزة يُستعطف بها الرجال (ابن منظور، لسان العرب، مادة صدح)، القطيب: الشراب الممزوج (نفسه، مادة قطب)؛ عسل الطعام : خلطه بالعسل وطيبه (نفسه، مادة عسل)، الغرب: الخمر (نفسه، مادة غرب). وينظر المعاني السابقة في حاشية الغفران، ص٣٨١.

[١] – ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ص٥٩–٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لمجانة عصره ومجتمعه [١] بما في ذلك مجون القيان وحريتهن الزائدة عن الحدِّ، فموقفه يعكس نظرته الإصلاحية في المجتمع؛ إذ كان هدفه تهذيب الجارية لما لها من أثر عظيم في الحياة الاجتماعية خاصة لاتصالها برجال السُّلطة والمُلك .

وفي السياق ذاته فإن حضور الجواري كفيل بالكشف عن جوهرها الاجتماعي السلبّي، فعلى المستوى الاجتماعي تقوم علاقتها على النفاق والمداهنة، وبتأثير تلك القيم يظهر الإحساس الدائم بتصدعها، فالغواني ودهن لا يدوم ، وهو يؤكد ذلك الأمر باللجوء إلى عالم الحيوان فيتخذ من الديك والدجاجة مثلاً فيه إشارة إلى طبيعة الجارية المخادعة كما يرى المعري، فقد جاء بهذا المثال بعد ذكر الملكة شيرين. يقول المعري:

" ولعلّ ذلك الصِّاقِعُ يَرقُبُ لأُمِّ الكَيْكَةِ حِمَاماً ، ولا يَرقُبُ لها ذِماماً، يقولُ في النَّفسِ المُتَحدِّثةِ: لَيْتَ الذابحَ بَكَّرَ على المُنْقِضَةِ، فإنّها عَيْنُ المُبْغِضة. أو يقولُ: لو أنّي جُعلْتُ في قِدْرٍ، أو بعضِ الُوطْسِ فَلحِقْتُ بالهدْرِ، لتَزَوَّجَتْ هذه من الدِّيكَةِ شابّاً مُقتبَلاً يُحسِنُ لها حُبّاً قَبَلاً ". [٢]

وقد تُخشى المرأة لعلمها بالشِّعر، لذلك فالمعري يدعو ابن القارح إلى اتقاء شرّ ابنة أخته التي قامت بسرقة بعض ماله، وألا يبوح بسرقتها؛ فقد تكون هذه المرأة قد ورثت الشعر عن خالها ابن القارح، كما ورث زهير بن أبي سلمى الشعر عن خاله ، وبذلك فإنها سَتُعَرّضُ بهِ في شعرها لو باح بسرقتها، يقول المعريّ :

" يجوزُ أن يكونَ قد وَشَجَ إلى هذه المرأةِ شيءٌ من آدابِ الخُوْلةِ، فليتَّقِ مَعرَّةَ بَيانها، أكثرَ من أتقائهِ خُلْسَةَ بَنَانِها، فهو يعلمُ أن الشعرَ ورثه "زهيرُ بنُ أبي سُلمى" من

---

[١]- المحاسني، زكي، أبو العلاء ناقد المجتمع ، ص ٤٢؛ سلامة، يسري محمد، النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء ،ص ٢٣٢ ؛ أبو شاويش، حماد، النقد الأدبي الحديث حول شعر أبي العلاء ، ص ١٢٥

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص ٣٨٤، أم الكَيْكَةِ الدجاجة (ابن منظور، لسان العرب: مادة كيك)؛ المنُقضة: الدجاجة (نفسه، مادة نقض). الوطس: وهو التنور وما أشبهه (نفسه، مادة وطس)؛ والهدر: الساقط، الذي ليس بشيء (نفسه، مادة هدر). وينظر معاني الكلمات في حاشية الغفران، ص٣٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خالِه "بَشَامة بن الغديـــر"،[١] ... ، وربما كان في نســـاءِ "حلـــب" –حرَســـها الله– شـــواعرُ ، فلا يأمَن أن تكونَ هذه منهن، فطال ما كنَّ أجودَ غرائزَ من رجالِهن" . [٢]

ومن هنا فإنّ المرأة قد تسير في طريقٍ يكشـــف عـــن تميّزهـــا؛ إذ لـــم تكـــن رهينـــة الرجل إنما نداً له، كما تبدوالمرأة قوية غير مســـتلبة، ولا تخضـــع لفكـــر الرجـــل، فـــالمرأة في غير لوحةٍ عالمة بالشعر متذوقة لـــه وتحـــاول أن تتلاعـــب بالبيـــت كيـــف تشـــاء أمـــام زوجها، دون أن يعي مواطن الخلل. ومن ذلك ما يورده المعري هنا :

" كان لي كَرِيٌّ من أهل البادية يُعْرفُ بـــ " علـــوانَ" ولـــه أمـــرأةٌ تـــزعُمُ أنـــّها مـــن "طئ"، فكان لا يعرفُ موزونَ الأبياتِ من غيرهِ ، وكانـــت المـــرأةُ تُحِـــسُّ بـــذلك، وكانـــت تتأسفُ على طفلٍ ماتَ لها يُقالُ له رَجَبٌ، وكانت تُنْشِدُ هذا البيت (من الطويل):

إذا كنتَ منَ جرَّا حبيبكِ موجَعاً فلا بُـــدّ يوماً من فِراقِ حبيبِ

فقالت يوماً :

* إذا كنتَ من جرَّا رُجَيبٍ موجَعاً *

فعلمت أن الوزنَ مُختل، فقالت: "إذا كنت من جرَّا رُجَيْبَينَ مُوجَعاً"

فحركت التنوين وأنكرت تحريكه بالطبع . فقالت :

* إذا كنتَ من جرَّا رُجَيْـــبـــكَ موجَعاً *

فاضافته إلى الكافِ فاستقامَ الوزنُ واللفظُ" [١]

وقد تتقدم المرأة على الرجل فتعي مواطن الفساد والخلـــل فيمـــاً يـــنظم مـــن أبيـــات، وتصوب لزوجها الذي لا معرفة لـــه فـــي الأوزان حينمـــا يكســـر البيـــت، فتقـــول زوجتـــه الماشطة له :

---

[١]– بشامه بن الغدير: عمرو بن هلال بن سهم، من شعراء المفضليات، كان كثير المال ، (الجمحي، طبقات الشعراء، ص ٢٣٥–٢٣٦؛ الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى (ت١٧٨هـــ)، المفضليات، ج١/ ١٢٤–١٣٩؛ البكري، سمط اللآلئ، ص٣٨/١)

[٢]– المعري، رسالة الغفران، ص ٥٨٠. ورويت وشج ووشح في بقية النسخ؛ وتقول بنت الشاطئ ولعلها أولى هنا؛ لأنها الأنسب إلى السياق.

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص٥٨١ ، من جرّا : الأصل من جراء . حذفت الهمزة للضرورة الشعرية والمعنى بسبب، موجعاً : باكياً (ابن منظور، لسان العرب، مادة وجع)، رُجيب : تصغير رجب ابنها الذي مات.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" ويْلي ما هذا جيدٌ . فـُيلاجُـها ويزعم أنهـا مخطئـةٌ. فـإذا أصـبحَ مضَـى فسـألَ مَنْ يَعرفُ ذلك، فأخبَره أنّ الصوابَ معهـا ، وعرَّفـه كيـف يجـبُ أن يكـون. فـإذا لقِنَـهُ عنه، عاد في الليلةِ الثانيةِ، فذكَرَه وقد أصلَح، فتقولُ الماشطةُ: هذا الساعة جيّدٌ". [١]

خامساً: أصحاب العاهات في رسالة الأخرسين :

لم تغادر نصوص المعريّ منظومة الفكـر الاجتمـاعّي التـي تتوارثهـا الجماعـات الإنسانية ومنها ينطلق خطابها الاجتماعي، ورسالة الأخرسين واحـدة مـن تلـك النصـوص التي تـُـعنى بإبراز الطابع المأساوي لحياة الإنسـان المُـبتلى ونظـرة المجتمـع إليـه، إذ تظلُّ الحواجز قائمة بينهم كاشفاً عن الهوة بين الإنسان المبتـلى وسـائر أفـراد المجتمـع، وتـُظهر تفكك العلاقات الاجتماعية وعيوب الأفـراد، فأحـدهم يـرفض زواجـه مـن فتـاة تـَمثـّـل عيبها في خرسِها إلا أن الزمان يكشف له سـوء ظنـه. ومـا يُـذكر هنـا حـول تلك القصة أنّ رجلاً خطب إلى آخر ابنة له فقال :

" زوجتك خرساء اللسان، خرساء الدُّمْلـُجُ، خرسـاء الخلخـال" [٢] فأجابـه الخاطـب بالرضا فلما زُفت إليه وجد بلسانها الخرس، فـأخبره والـدها أنـه أعلمـه بـذلك، [٣] فقـال: "ظننتُ أنك تريد أنها قليلة الكلام والصـخب، لا إنهـا عـاجزة عـن النطـق فترافعـا إلـى القضاة فحكم بتمام التزويج؛ ذلك أنّ الخرس لا يُعُـد عيباً يـرد النكـاح بـه، فأقامـت عنـده وأنجبت له أولاداً نجباءَ، قال في وصفهم:

إن بني الخـرساء أمطـار شتـوةٍ إذا العام أزرى بالبخيـل المزنـد

هـم النفـر الحامـون في موقف الوغى وهم خطباء الحـيّ في كل مشهـد"[١]

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص ٥٨١

[٢]- المعري، اتحاف الفضلاء برسائل أبي العلاء، دراسة محمد عبدالحكيم القاضي، ص ٣٤٧، الدُّمْـلـُجُ : سوار يحيط بالعضد كجندب المِعْضِدُ(الفيروزأبادي، القاموس المحيط، مادة دملج)

[٣]- المعري، اتحاف الفضلاء برسائل أبي العلاء ، ص٣٤٧

[١]- نفسه، ص ٣٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورسم المعري صورة إيجابية للأخرس في مقابل التعريض بمن أساء باستخدام لسانه في الفساد وإشاعة المنكر وقول الزور والكذب والبهتان. أما الأخرس المحروم من نعمة اللسان فإنه نال بكف لسانه عن الإيذاء والتجريح أجراً عظيماً ومنزلة رفيعة، فأضحى في أحد المشاهد فصيحاً مِنْطِيقاً من خطباء الجنة، يرتقي منابر مخصوصة من الياقوت، وهذا من شأنه أن يكشف عن الأبعاد الداخلية التي تكمل رسم الشخصية التي لم تكتمل ولم تتضح في الرسم الخارجي ممثلاً بوصفه وإنما بحديثه في المنام ، يقول المعري:

" فقد كان لبعضِ الناسِ جارٌ أخرسُ تُوفي فرآه في المنام فجعلَ يُوميء لهُ كما كان في الماضي، إلا أنّ الأخرسَ أجابه بلسانٍ طلقٍ "يا فلان صرت بعدك من خطباءِ الجنةِ كلّما مضت أربع وعشرون ساعةٍ من ساع الدنيا، نُصبت لنا منابر من الياقوت فنجد عليها الله، ويُقال لنا: " هذا بما أمسكتَ ألسنتكم في دار الغرور". [١]

وقد ركز المعري على تشريح نفسية الشخصية بطريقة غير مباشرة تعتمد على موقف الشخصية من واقعها بشعورها بالاغتراب والمرارة؛ فالمحروم عادة يعاني أوضاعاً موحشة وقاسية، فهو غير قادر على التكيف مع البيئة المحيطة، ويظل غير مفهوم إلا بوجود من يعينه على مشاق الحياة وتكاليفها، فمن يعاشر تلك الفئة ويساعدها بطرق متعددة فإنّ هذا له منجاة من الهلاك. ويذكر هنا أحدهم كان يسير على غير منهاج الخير والحق، إلا أنه كان جاراً لأخرس يعينه بترجمة ما يريد فشملته رحمة الله الواسعة لحسن تصرفهِ مع تلك الفئة المظلومة، وهكذا فإن الوصف الخارجي لهذه الشخصية لا يمنح المتلقي رسماً متكاملاً عنها، بل تتضح بحسن تصرفها وسلوكها وذلك بالبعد الداخلي الخفي، يقول المعري:

" ... فهلك ذلك الرجل الذميم ، فرآه أخوه في النوم ، فقال :" ما فعل الله بك ؟" قال:" غفر لي" قال: "بماذا؟ وقد كنت أحد الفاسقين؟ "قال بالترجمةِ عن أبي نمير" "يعني الأخرس".[١]

---

[١]- المعري، اتحاف الفضلاء برسائل أبي العلاء ، ص ٣٥١

[١]- نفسه، ص٣٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تزداد مشكلة المحرومين اتساعاً وتعقيداً، فالإعاقة تحدُّ من انتقاله وحركته، وتنشأ عند ذلك فجوة بينه وبين من يتمتع بحواسهِ، والأعمى أحد هؤلاء ، والمعري هنا يكشف عما يدور في ذهنه ويستقرئ نفسيته، وما يعتمل فيها من أفكار بعرضه لهذه الشخصية، فقد سُئل : " لم تؤثر عصاك على قائدٍ يقودك من الناس؟" قال:" لأنها مقهية لا تطعم ، ولا تشره ولا تقابلني بما أكره" [١] .

ويتضح مما تقدم من الحديث عن طبيعة الإنسان أنه لا يُقدّم معروفاً إلا لمنفعةٍ أو فائدة يجنيها، ولا يسيطر على رغائب الجسد ، أما العصا بجمودها فإنها لا تطلب طعاماً ولا تستغلّ أحداً، ولا تقابل الإنسان بوجه كريهٍ عابسٍ وابتسامةٍ باهتةٍ. وبذلك فإن صورة المجتمع بدت ضبابية باهتة تعكس في النهاية رؤية المعري من بني البشر وهو الذي ابتلاه الله بالعمى .

وقد يكون من الصعب تحديد المعاناة التي تحيط بأصحاب الإعاقة، فهي من الكثرة والتنوع والتداخل، وإن كان أبرزها يتمثل في الضيق الاقتصادي. فحقوق هؤلاء تتمثل في تأمين طعامهم وشرابهم وما يحتاجونه ، والسُّلطة لا تكاد تُؤمّن لهم كسبهم ؛ لذلك تنتهى الرسالة بالحديث عن السلطان وضرورة توفير مؤونة ذلك النفر بأسلوب ساخر فالمعري الراوي حاضر أبداً، يقول :

"ولم تزل السلاطين تكره أن تنزعَ الشيء من أيدي أهل المحن اللازمة، وهؤلاء الجماعة يسألون السلطان :أن يتصدق عليهم من جاهه ويقولون ما قال إخوة " يوسف " للعزيز : ﴿فأوْفِ لنَا الكَّيلَ، وَتَصّدقْ عَلينا، إن الله يَجْزي المُتَصدّقين﴾[١] ". [٢]

والملاحظ أن المعري أيضاً لم يمنح الشخصيات في هذه الرسالة أسماءً باستثناء أبي نمير، وكأنه يتحدث عن نماذج إنسانية عامة (الأخرس، الأعمى) وجردهم من أية هوية خاصة فهم حالة ضمن المجتمع ككل وتعبّر بذاتها عن كل أصحاب العاهات.

---

[١]- المعري، اتحاف الفضلاء برسائل أبي العلاء ، ص ٣٥٢ ، مقهية : من أقهى الرجل امتنع عن الطعام (ابن منظور، لسان العرب، مادة قهي).

[١]- سورة يوسف ، آيه ٨٨.

[٢]- المعري، اتحاف الفضلاء برسائل أبي العلاء، ص ٣٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

الشخصية العجيبة

أولاً: الشخصية العجيبة في الغفران

الشخصية العجيبة هي "التي تلعب دوراً في مجرى الحكي، والمفارقة لما هو موجود في التجربة". [١] ويتحدد جنس العجيب "إذا قرر القارئ أنه ينبغي قبول قوانين جديدة للطبيعة، يمكن تفسير الظواهر بها".[٢]

وقد أثرى المعري رسالة الغفران بالمشاهد العجيبة الخارقة، التي لم يعتدها الإنسان في حياته الدنيويّة، وهو يستثمر الموروث الدينيّ المتشكل في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في الإسهاب العميق في وصف الجنة والجحيم؛ ففي الجنة ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ لذلك انطبعت الجنة في رسالة الغفران بكل جمال خلاب، وكل ترف تتوق له نفس المعريّ المتعبة من شرور الحياة وضيقها ونكدها.

وتنبه الباحثون إلى رغبة المعري في التغيير في رسالة الغفران ويحاولون الوصول إلى أسبابها ، فرأى بعضهم أنّ مردّها إلى شعوره بالظلم، فالدنيا كلّها مجنيٌّ عليها، فأخذ يعبر عن مدى رغبته في التغيير، فردّ الأعمى بصيراً، والهَرم شاباً، وكأنه يعدّل وضع صورةٍ مقلوبةٍ[٣]، كما أنّ هذا التغيير تعويض عن حرمان. لذلك نراه في الجنةِ أو عالم الآخرة يزيل كل مصيبةٍ عن أصحابها الذين ابتلاهم الله في الدنيا[٤]. في حين يرى أحدهم أنّ عملية التعويض هذه ليست إلا وسيلة من وسائل العبث بابن القارح[٥].

---

[١]- يقطين، سعيد، قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية)، ص٩٩.

[٢]- تودوروف، تزفيتان، مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، ص٤٩.

[٣]- سلام، أبو الحسن، الظاهرة الدرامية والملحميّة في رسالة الغفران، ص ١١٢.

[٤]- عبدالرحمن، عائشة، رسالة الغفران (قراءة جديدة في رسالة الغفران)، ص ٥٠ ؛ عبدالرحمن، عائشة، جديد في رسالة الغفران ، (نص مسرحي من القرن الخامس الهجري)، ص٦٠.

[٥]- أمين، فوزي محمد، رسالة الغفران بين التلميح والتصريح، ص١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهذا وجد المعري في ابن القارح المنفتح في حياته الدنيوية من الانطلاق والحرية ما افتقده هو بسبب القيود التي فرضها على نفسه، أو فُرضت عليه، فسعى إلى تعويض هذا الأمر في ابن القارح الذي كان ينتقل من مكان إلى مكان لا محدود في سعته ومحتوياته، وفيه من الأعاجيب الشيء الكثير. ومن تلك الأعاجيب :

أ- المرأة المتحولة :

يزخر غفران المعري بنماذج للتحول والتغيير من شكل إلى آخر؛ إذ تبدّت صور الجواري منقلبة عن حيوان أو طير أو حية. ففي الجنة " يَمُّر رفٌ من إوز الجنَّة، فلا يلبثُ أن ينزلَ على تلك الرَّوضة ويقفَ وقوفَ منتظرٍ لأمر – ومن شأنِ طيرِ الجنَّة أن يتكلَّم فيقولُ :" ما شَأنُكُنَّ ؟ فيَقُلْنَ : أَلْهمْنَا أن نسقطَ في هذه الرَّوضةَ فَنُغَنِّي لمن فيها من شَرْبٍ . فيقول : على بركةِ الله القدير، فينتَفِضن فيصرن جواري كواعب يَرْفُلْنَ في وَشْي الجنّة، وبأيديهن المزاهر وأنواع ما يُلتَمسُ به الملاهي"[١]

إن انطلاق المعري في خياله بالتحديق في حجب الغيب ما هي إلا قراءة حَاضرة؛ فالجواري الكواعب تقوم بتحقيق المتعة للشخوص الذين استحقوا الجنة ونعيمها، كما تخترق عوالمهم مُحدثة جواً من السعادة بالألحان التي تعزفها والأغاني التي ترددها والرقص الذي تقوم بهِ.

أما تجليات هذا الاستخدام المتكرر لتلك الجواري التي سُخِّرت في غير موطن في الغفران، فما هو إلاّ لعلم المعري بنزوات ابن القارح وشهواته، ولذلك فما إن يخطر في بال ابن القارح غناء القيان بالفسطاط ومدينة السَّلام وترجيعهُنّ بميمية المُخبّل السعديّ[٢]"حتى تندفع "تلك الجَواري التي نَقَلنَهُنَّ القدرةُ من خِلق

---

[١]- المعري، رسالة الغفران ، ص ٢١٢.

[٢]- المخبل السعدي: هو ربيع بن مالك بن ربيعة بن عوف السعدي من تميم، شاعر فحل من مُخضرمي الجاهلية والاسلام، عمّر طويلاً، مات في خلافة عمر بن الخطاب، وقيل في خلافة عثمان، (ابن حزم الأندلسي، جمهرة الأنساب، ص٢٠٩؛ البكري، سمط اللآلي، ٤١٨).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطير اللاقطةِ، إلى خِلَـقِ حُورٍ غير متساقطة ، تُلحِّن قول المخبّل السَّعدِيّ (من الكامل):"

ذكَـــر الرَّبابَ وذِكْرهُا سُقْمُ وصَبــا، وليسَ لِمَن صَبَا حِلْـمُ
وإذا أَلمّ خَيالُهـــا طَرِقَتْ عَيني، فَمَـاءُ شُؤُونِها سَجْـــمُ
كاللُؤلُـؤِ المسجورِ أغفل في سِلْـكِ النِّظـــام، فخَانَه النَّظْـمُ[١]

إن التداخل بَين الطيور والجواري يجد حضوراً واعياً ينبع من واقع عصر المعري، فالجامع بينهما يكمن في الانطلاق اللامحدود والحرية الزائدة، وفي ذلك حديث من طرف خفيّ عن طبيعة الجواري الدنيوية، فهي متحررة، لا تنقاد لقانون يصونها ولا تتورع القينة عن فعل منكرٍ أو شّر أو إفساد .

إنّ موحيات الخطاب المعري ترتكز في هذه المشاهد أيضاً على ابن القارح فالخطايا الدنيوية لا تتوقف به بعد الحساب، بل تنطلق معه إلى العالم الآخر ليعمقّ من فكرة أنّ من اعتاد على فعل المنكر فلن ينساه، فدخوله الجنة لم يمنعه من التفكير الشهواني، ومن هنا فإنه يحثُّ نابغة بني جعدة على فعل المنكر بل يُزيّنه له، فهو يقول لنابغة بني جعدة :

"يا أبا ليلى. إن الله، جَلّت قُدرتُه مَنّ علينا بهؤلاء الحُور العِين اللواتي حَوَّلهُنَّ عن خَلْق الإوَزِّ، فاخترْ لك واحدةً منهُنّ فلتَذهَبْ معك إلى منزلِك، تُلاحِنُك أرَقّ اللّحان، وتُسمِعك ضُروبَ الألحان"[٢] .

واستمدّ المعري في رسالة الغفران أسطورة شجرة الحور[٣]، فثمرة الجوز تنتفض في أحد المشاهد، لتخرج منها حورية الجنان، أما علاقة المرأة بالشجر فتكاد

---

[١]- المعري، رسالة الغفران ، ص٢٢٤ . وردت الأبيات في المفضليات، ص١١٣.

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٣٣- ٢٣٤.

[٣]- وقد قيل عن شجرة الحور: إنها تنمو في جزيرة الواق واق " ويقال إنّ بها شجرة عجيبة تطرح فاكهة لها اشكال أدمية. وثمرات هذه الشجرة معلقة من شعورها ولها أثداء . وكل ثمرة أشبه ما تكون بالمرآة وهي ملونة"، (يونس، عبدالحميد، معجم الفولكلور ، ص ٢١٤).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تكون واضحة ، فكلاهما يُدلل على الخصب، كما أن الناظر إليها يتمناها ويشتهيها، ومن هنا ظل هاجس اللحاق بالمرأة يلح على ابن القارح لسيطرة رغائب الجسد عليه، يقول المعري واصفاً المشهد :

" فُينشِئُ اللهُ القادرُ بلِطفِ حِكْمتِه ، شَجَرةً من عَفْز- والعَفْزُ الجَوزُ-فتُونِعُ لِوَقْتِهْا ثم تنفُضُ عدداً لا يُحصِيهِ إلا الله سبحانهُ، وتَنَشقُّ كلُّ واحدةٍ منه عن أرْبعِ جَوارٍ يَرُقْنَ الرائِينَ، مِمَّنْ قَرُبَ والنائِينَ، يَرْقُصْنَ على الأبياتِ المنسوبةِ إلى "الخليل"". [١]

وامتداداً لما مضى فإنّ الجواري تبدو مرتفعة على الشجر تدنو لمن اشتهاها وتناولها ، وهي بذلك مسخرة محللة لأهل الجنة تحقق المتعة، وتشبع الرغبة الجامحة اللامتناهية عند ابن القارح، يقول المعري:

" فيأخذ سَفَرجلةً أو رُمّانةً، أو تُفاحةً، أو ماشاءَ الله من الثمار؛ فيكسرُها ، فتَخرُج منها جاريةٌ حَوْراء عَيْناء تَبْرَقُ لِحُسنِها حُوريّات الجِنان".[٢]

وقد تلقى ابن القارح ثمرة متحوّلة إلى حورية تُخبره بطول انتظارها له ، وتبدو محيطة بما يدور في خلده ، فتتبعه بين كثبان العنبر، فتقول له :

" أيها العبدُ المرحومُ ، أظنُك تحَنّذي بي فِعَال "الكثْدِيِّ" في قوله (من الطويل):

فقُمتُ بها أمْشي ، تجُرُّ وراءَنا على إثْرِنا أذيالَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

فيقول: العَجَبُ لُقدرة الله! لقد أصَبْتِ ما خَطَرَ في السوَيْدَاء...، ويعرضُ له حديثُ "امرئ القيس" في "دارةِ جُلجلُ"، فيُنشئُ اللهُ، جَلّتَ عَظَمتهُ حُوراً عِيناً يَتَمَاقَلْنَ في نهرٍ من أنهار الجنّة وفيهنَّ من تَفضُلهُنّ كصاحِبةِ "امرئ القيس"،

---

[١] – المعري، رسالة الغفران، ص٢٧٩.

[٢] – نفسه، ص٢٨٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيترامَيْنَ بالنَّــرْمدِ، وإنّما هو كَأجَلِّ طِيبِ الجَنَّةِ، ويَعِقِــرُ لهُــنَّ الرَّاحِلِــةَ، فيأكُــلُ ويــأكُلْنَ من بَضــيعها ماليس تَــقعُ الصِّفَةُ عليه من إمْتاعٍ أو لذاذةٍ ".[١]

ومن هنا فإن العالم العجيب الذي يعرض له في الجنة باجتمــاع تلــك الجــواري لــم يبتعد عن عالم الأدب الذي ساد في كل شيء محيط حتــى فــي الجــواري اللــواتي أصــبحن مثل صاحبات امرئ القيس يأكلن مما عقر لهن، إلا أن أمرأ القــيس هنــا تحــول إلــى ابــن القارح المنجرف إلى تيار اللهو، حتى إنّ سجوده في أحد المشــاهد لــم يمنعــه مــن التفكيــر بتلك "الجارية الحوراء العيناء التي كان يظنّ، على حســنِها، أنهــا ضــاويةٌ، فمــا إن يرفــعَ رأسَه من السجودِ حتى صارَ من ورائها ردفٌ يُضاهي كثبان" عالِج وأنقاء الدَّهْناءِ"[٢]

إن إثارة مجمل صــور كواعــب الجنــة متحــولات يبــيّن ضــيقاً مــن الأوضــاع الاجتماعية والاخلاقية السائدة، والجارية إحــدى أركــان مجتمعــات ذلــك الزمــان بفكرهــا الفاسد وحريتها الزائدة، وما تزال سبباً في الخــداع والأذى ، فــالمعري لا يثــق بهــن؛ إذ لا تبقى المرأة على وُدّها، فهي متقلبة متغيرة متلونــة ، حتــى الحيــة قارئــة القــرآن أرادت أن تتحول إلى جارية تغري ابن القارح تقول له بعد التحول :

" ألا تُقيمُ عندنا بُرهةً من الدَّهر؟ فإنّي إذا شِئتُ انتفضتُ مــن إهــابي فصِــرتُ مُثِــلَ أحسَن غَــواني الجَنّةِ، لو تــرَشَّفتَ رُضــابي لــــعَلِمْتَ انّــه أفضــلُ مــن الدِّرياقــةِ التــي ذكــــرَهَا "ابن مُقبل" في قوله (من المتقارب):

سَقَتْني بصَهباء دِرْيَاقةٍ مَتَى ما تُليِّنْ عِظَامِي تَلِنْ[٣]".[١]

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص ٣٧٢. وقد ورد البيت في ديوان امرئ القيس، ص١٤-١٥. ماقله: غاطه في الماء: الثرمد نبات مالح مر، حاشية الغفران، ص٣٧٣.

[٢]- المعري، رسالة الغفران، نفسه، ص ٢٨٨.

عالج : رمال على طريق مكة (الحموي، معجم البلدان، ٢/٦٦-٧٠).

أنقاء الدهناء: التلال المحدوبة من الرمال الموجودة في الدهناء، أي في اليمامة أو في الطريق بين اليمامة ومكة(نفسه،٢/٥٦٠-٥٦١)

[٣]- ابن مقبلً : تميم بن أبي (تُرجم سابقاً).

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص ٣٧٠ ، الدِّرَّاق والدِّرْياق والدِّرْياقة: كله الدراق ويقال للخمر دِرياقة على النسب (ابن منظور، لسان العرب، مادة درق). ورد البيت في ديوان ابن مقبل، ص٢٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والملاحظ من اللوحات المشهدية المتعددة أنها تحدد موقف المعري من الجارية من جهة، فهو يحطُّ من قدرها حينما اتحدت مع الحية، ومن ابن القارح من جهة أخرى الذي جعله محاطاً بعدد غير قليل منهن، وكأن المعري يقرأ أفكاره المريضة، فيشير إلى غرائزه الدفينة التي لم يتناساها وهو في موقع جديد جدير بهِ من جاهد النفس عن الخطيئة والمعصية، وهو تلميح من جديد إلى أن المكان الذي فيه ابن القارح لا يستحقه وهو غير مؤهل له.

وأبدى تعاطفه مع المرأة التي ابتليت بمحنة ومصيبة، وجاهدت النفس على الصبر وكابدتها؛ لذا سيعوضها عن حرمانها وتجني الناس عليها وظلمهم لها.

واتضح هذا من النماذج الإنسانية التي عانت قسوة الحياة ومرارتها نتيجة عيب في الخلقة والهيئة الخارجية التي لا يد لها فيها، والغريب أن تصويره لتلك النماذج تتحدث عن عيوبها على غير عادة المرأة التي غالباً ما تتغطى بطبقات لتخفي عيوبها وتسترها، وقد يكون مرد ذلك مرتبطاً بطبيعة المكان (الجنة)؛ فإحدى الحوريات كانت في ماضيها امرأة قبيحة فنفعها إيمانها فاستحال قبحها جمالاً، تقول تلك الحورية في تعريف نفسها وإماطة اللثام عنها:

" أَتَدري من أنا يا عَليّ بن مَنصور؟ فيقولُ: أنَتِ من حُور الجنان اللواتي خَلقكُنَّ الله جَزاءً للمُتَّقِين، وقال فِيكُنَّ ﴿كأنَّهنَّ الياقُوتُ والمَرجانُ﴾[١]" فتقولُ: أنا كذلك بإنْعَام اللهِ العظيم، عَلى أنَّي كُنتُ في الدار العاجلةِ أُعرَفُ "بِحمدُونَة"، وأسكُنُ في "باب العراق بحلب" وأبي صاحبُ رَحىً، وتَزوَّجني رَجلٌ يبيع السَّقطَ فطلَّقني لِرائحة كَرِهها منْ فِيَّ، وكُنتُ من أقبَح نِساءِ "حَلَبَ" فلمّا عرَفتُ ذلك زَهِدتُ في الدُّنيا الغَرَّارةِ، وتَوَقَّرْتُ على العِبادةِ، وأكلتُ من مِغزَلي ومِرْدني، فَصَيّرني ذلك إلى ما تَرى"[٢].

---

[١]- الرحمن، آية ٥٩.

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص ٢٨٦-٢٨٧.

باب العراق: هو أحد أبواب حلب السبعة (البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٠٠).

السّقط : ردئ المتاع ما لا خير فيه كل شيء (وهو هنا الكُرش والرّؤوس والأرجل). (ابن منظور، لسان العرب: مادة سقط)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتوحى قصة تلك المرأة بمكاشفة حقيقية، فالرجل لم يطلّقها لبشاعتها وإنّما لرائحة فمها الكريهة، وهذا أمر لايمكن قبوله كسبب للطلاق، ولكنه مؤشر على سوء خلق زوجها، كما أنه كان سبباً لجعلها من أهل النعيم، إذ زهدت في الدنيا وأكلت من كدّ يدها .

وتحاكي قصة توفيق السوداء قصة حمدونة الحلبية، إذ استحال سوادها في الجنة بياضاً، فهي كالكافور لشدّة بياض وجهها[١]. فعواقب الصبر على البلاء الدنيوي محمودة، وكأن المعري بذلك يذّكر نفسه وغيره بالصبر على ما هم فيه من نقص.

ب-الشخصية الأدبية المتحولة :

بما أن فكرة التغيير قد استهوت المعري، فقد رأى فيها وسيلته لنقل رغباته المكبوتة، وهذا التغيير قد شمل كل من كان في العالم الآخر، وينبع التحول والتغيير من طبيعة الجنة والنار، وهو صدى لصورة الآخرة في الأثر.

ومن هنا فقد ظهر زهير بن أبي سُلمى في الجنان شاباً مقبلاً كالزهرة الجنيّة، وقد وُهِبَ قصراً من لؤلؤ وكأنّه "ما لَبِسَ جِلبَابَ هَرمٍ، ولا تأفّف من البَرَم، وكأنه لم يَقُلْ في (الميميّة) (من الطويل):

سئِمتُ تَكالِيفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ ثَمانِينَ حَوْلاً، لا أبا لك، يسأم"[٢]

والمعري في وصفه لتلك الشخصيات الأدبية يستأنس بالحقائق التاريخية حول واقع الشخصية، مستشهداً بشعرها الذي ظهر فيه التشكي والتبرم لما آلت إليه من هرم وقبح ومعاناة، فالأعشى نَخْبُرُه منحني الظهر أعشى النظر، إلا أنّ غفران المعري حوّل الشخصية لتلائم المكان، فاستحال عشاه إلى عيون مميزة قوية الإبصار، وتحول قبحه إلى جمال، يصف الراوي المشهد، فيقول: " فيلتَفِتُ إليه الشيخُ هَشّاً بَشّاً مُرْتاحاً،

---

[١]- المعري، الغفران، ص ٢٨٧ .

[٢]- نفسه، ، ص١٨٢ . ورد البيت في ديوان زهير بن أبي سلمى، ص٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإذا هو بـِشابٍّ غُرانِق، غَبَرَ في النعيم المُـفَانِـق، وقد صار عشاه حَـوَراً معروفاً، وانحناءُ ظَهره قواماً موصوفاً"[١].

ولهذا لا نستغرب وصفه لعيون عوران قيس بأنها أجمل عيون أهل الجنة، تعويضاً عما ابتلاهم به الله من العور في الحياة الدنيا، فابن القارح ينـدهش لغرابة جمال عيونهم، فيقول :

"ما رَأيتُ أحسَنَ مِن عُيونِكم في أهلِ الجِنان! فَمَنْ أنتم خَلَدَ عليكم النعيم؟ فيقولون: نحن عُورانُ قَيس: "تميمُ بن مُقبل العَجْلانيّ، وعَمْرُو بنُ أحَمْرَ الباهليُّ، والشّماخُ، مَعْقِلُ بنُ ضِرار ٍ، أحَدُ بني ثعلبَة بن سَعْدٍ بن ذُبيانَ، وراعي الإبل، عُبَيْد بن الحُصَيْن النُّميريّ، وَحُمَيدُ بنّ ثَوْرٍ الهلالي "[٢] . والمعري بهذا يسلي نفسه ويُؤملها بأن يكون مصيره في الآخرة كمصير هؤلاء.

وتُمنح الشخصيات طاقة لا قدرة لبني البشر بمثلها، فحميد بن ثور يجيب عندما سُئل عن بصره اليوم "فيقول: إني لأكونُ في مَغاربِ الجنّةِ، فـأُلْمَحُ الصَّديقَ من أصدقائي وهو بمشَارِقها، وبيني وبينه مَسيرةُ أُلوفِ أعوامٍ للشمس التي عَرَفَتَ سُرْعة مَسيرِها في العاجلةِ. فتعالى اللهُ القادرُ على كلِّ بديع".[٣]

وقد يشمل التحول أهل الجحيم كما تبدى في بشّار الذي استحال عماه إبصاراً في جهنم، وأظهره يُكابُد ناراً حامية ويعاني لهيباً وقسوة، أما بصره فقد كان نقمة عليه في جهنم، فهو لا يستمتعُ بهِ؛ بل يرى به ألوان العذاب، يصفه المعري:

---

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص ١٧٧–١٧٨، الغرانق: الشاب الناعم(ابن منظور، لسان العرب، مادة غرنق)، المُـفـَانـِق : النعمة في العيش(نفسه، مادة: فنق). ومعاني الكلمات حاشية الغفران، ص١٧٨.

[٢]– المعري، رسالة الغفران، ص ٢٣٧–٢٣٨.

– عبيد بن الحصين النميريّ: هو عبيد بن الحصين بن معاوية بن جندل النميري، شاعر من فحول المحدثين.

لقب بالراعي لكثرة وصفه الإبل في شعره، وقد هجاه جرير لأنه اتهمه بالميل للفرزدق (الجمحي، طبقات الشعراء، ص٢٩٨–٢٩٩).

– حميد بن ثور بن حزن الهلالي شاعر مخضرم عده الجمحي في الطبقة الرابعة من الإسلاميين (الجمحي، طبقات الشعراء ٥٨٣–٥٨٥؛الحموي، معجم الأدباء، ج١٥٣/٤). .

[٣] – المعري، رسالة الغفران، ص٢٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

".... فلا يَسكُتُ من كلامِه، إلا وَرجُل في أصنافِ العذابِ يُغَمِّض عينيْه حتى لا يَنظر إلى مانَزَل به من النِّقم، فيفتَحُهما الزَّبَانيةُ بكِلالِيبَ من نارٍ ، وإذا هو "بشّارُ بنُ برْدٍ" قد أعطِي عَيْنين بعد الكَمَهِ، لينظُرَ إلى ما نَزَلَ به من النَّكال "[١]

ج-حيوانات متحولة :

والحيوانات في الجنة ليست بعيدة في صورتها عن الجو العام ، فهي مصونة من الله عزوجل، تعود كما كانت عليه قبل الاشتهاء ، "وتقنية إعادة التشكيل تبلغ مداها عندما ترى الكائنات تنتقل من "صورة" إلى "أخرى" ثم تعود إلى صورتها الأولى دون أن تذوق "الألم" الذي يصاحب التحول عادة، ولأن الجنة تخلو من الألم، حتى الفريسة التي تصاد وتؤكل تُحسُّ بلذة الصيد كما يحسُّ بها الصائد وتشعر بمتعة المأكول كما يشعر هو بمتعة الآكل".[٢]

وجدير بالذكر أن تلك الحيوانات تؤكد بعرض مشاهدها طبيعة الإنسان الشهوانية، فهم لا يكبحون جماح رغباتهم الدنيوية كاشفاً عن غرائزهم ، والمشاهد تشبع تلك الشهوة اللامتناهية، فقد تمرّ إوزَّة فيتمناها بعض القوم شواءً " فتتمثل على خِوانٍ من الزُّمُرُّدِ ، فإذا قُضيت منها الحاجة، عادت بإذن الله إلى هيئة ذوات الجناح، ويختارها بعض الحاضرين كَرْدَناجاً، وبعضهم معمولةً بُسمَّاقٍ، وبعضُهم معمولةٌ بلَبَنٍ وخَلّ وغيرَ ذلك".[٣]

ومن ثم فقد أعطى الله تلك الحيوانات قدرات عظيمة على فهم ما يدور في خلد بني البشر، فتتهيأ كما يشاؤون، ومن ذلك طاووس يعبره بعض الجماعة فيشتهيه "أبوعُبَيدة" مَصُوصاً فيتكوّن كذلك في صَحفةٍ من الذهَبِ، فإذا قُضِي منه الوَطَرُ انضمَّتْ عِظامُه بعضُها إلى بعض، ثم تَصِيرُ طاووساً كما بَدَأ "[١].

---

[١]- المعري، رسالة الغفران ، ص ٣١٠

[٢]- درويش، أحمد، تقنيات الفن القصصي عبر الراوي والحاكي، ص٣٤.

[٣]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٨٣ . لقد حَرّم المعري على نفسه أكل اللحوم ،وهو يرى في رسائله إلى داعي الدعاة الفاطمي أن الوصول إلى الحيوان لا يكون إلا بإيلامها ويستشهد على ذلك بأشعار . المعري، رسائل أبي العلاء، تحقيق إحسان عباس، ص ١٠٨ .

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٨١، المصوص : طعام والعامّة تصنعه وفي حديث عليّ عليه السلام: أنه كان يأكل مُصوصاً بخل؛ وهو لحم ينقع في الخل ويطبخ (لسان العرب، مادة مصص).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبدا المعري في غير موطن مدافعاً عن حق الحيوان في الحياة، لذلك جعله في الغفران يتمتع؛ لأنه سُخِّر في حياته الدنيا لخدمة المؤمنين، فيكون هذا سبباً في دخوله الجنة، ومن ذلك ما قام به أسد القاصرة الذي افترس عُتبة بن أبي لهب فكانت فعلته تلك سبباً لدخوله الجنان، ويستلذ ّ الأسد بالفرائس التي يتناولها، ولكنه لا يُحدث لها ضرراً وأذى، وأسد القاصرة يسأل عن اندهاش ابن القارح لما يرى، فيقول:

" يا عبدَالله، أليْس أحدكُم في الجنّةِ تُقدَّم له الصَّحْفَةُ وفيها البَهَطُ والطِّرْيمُ مع النَّهيدةِ ، فيأكلُ منها مثلَ عُمْرِ السَّمواتِ والأرض ِ، يلتَذ ّ بما أصابَ فلا هو مُكْتَفٍ، ولا هي الفانية ُ؟ وكذلك أنا أفترسُ ما شاء الله ، فلا تَأذى الفَريسةُ بظُفر ٍ ولا نابٍ، ولكن تَجِدُ من اللَّذةِ كما أجِدُ، بلُطْفِ رَبِّها العزيز"[١].

وتدرك الحيوانات المجتمعة في الجنان شهوانية بني البشر، وحبهم لسفك الدماء، مع أنّ المكان لا يحتمل استخدام أدوات الصيد لتوفر كل شيء حولهم، إلا أن الغرابة تكمن في محاولة ابن القارح اللجوء إلى منطق الدنيا في الجنة، عندما وجه رمحه إلى حمار وحشي، فيستوقفه حمار الوحش مؤكداً له استحقاقه للجنة؛ لتسخيره جلده لخدمة المؤمنين، يقول مستاءً من تصرف ابن القارح:

" أمْسِكْ يا عبدالله فإن الله أنعم عليّ ورفع عني البؤس، وذلكَ أنّي صَادَني صائدٌ بمِخْلَبٍ، وكان إهابي لهُ كالسَّلَبِ، فباعَه في بعض الأمصار، وصَرَاه للسَّانيةِ صار ٍ، فاتُّخِذَ منه غرْبٌ ، شُفيَ بمائه الكَرَب، وتطهّر بنَزيعه ِ الصالحون "[١] .

وابن القارح يعاود تصرفه السابق غير مرّة مع حيوانات الجنة، وفي هذا تأكيد اقتحامهِ لمكان يجب ألا يكون فيه لعدم أحقيته له، فكل شيء يحيط به يقول ذلك؛ فعندما

---

[١]– المعري، رسالة الغفران ، ص ٣٠٥. السلب: الذبيحة إهابها وأكراعها وبطنها. (نفسه، مادة سلب)؛ السانية: المستقي. (نفسه، مادة سنا)؛ الغرب: دلو عظيمة من مَسكِ ثور(نفسه، مادة غرب)؛ النزيع: الماء المنتزع من البئر(نفسه، مادة نزع) البهط: الأرز يطبخ باللبن والسمن خاصة للإماء(ابن منظور، لسان العرب: مادة بهط)؛ الطريم :العسل إذا امتلأت البيوت خاصة، (نفسه، مادة طرم)؛ والنهيدة : الزبدة العظيمة وبعضهم يسميها إذا كانت ضخمة نهدة فإذا كانت صغيرة فهدة (نفسه، مادة نهد).

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص ١٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يصوب رمحه على حيوانات الجنة، يرجوه الأخنس الذيال (الثور) أن يكفّ عن قتله ويمتنع؛ ذلك أن لحمه كان طعاماً لمسافرين مؤمنين في الحياة الدنيا، يقول:

" أمْسك، رحِمك الله ، فإنّي لستُ من وحش الجنة التي أنشأها الله سبحانَهُ ولم تكن في الدار الزائلة، ولكنّي كنتُ في مَحَّلةِ الغُرور أرُودُ في بعضِ القِفار، فمرَّ بي رَكْبٌ مؤمنون قد كَريَ زادُهم، فصرعَوني واستَعانوا بي على السَّفر فعوضني الله – جلّت كَلمِته بأن أسكِنني في الخُلود"[١].

وهكذا فقد كُوفئت تلك المخلوقات لأنها هُيئت لأداء وظيفة للمسلمين بلحومها وجلودها، فكانت في سبيل الله ، فاستحقت الجنة وشملتها رحمة الله التي وسعت كل شيء، لذلك يتعجب ابن القارح من وجود إحدى الحيات في الجنة، فينطقها الله ، وتقول له :

" إني كنتُ أسكنُ في دار "الحَسَن البَصْريّ" فيتلو (القرآن) ليلاً ، فتَلَقيَّتُ منه (الكتابَ) من أوله إلى آخره ... فلما تُوفيَّ رَحِمَهُ الله، انتَقَلتُ إلى جدار في دار "أبي عمرو بن العلاء"... ، فلما توفي " أبو عمرو" كرهتُ المقامَ، فانتقلتُ إلى "الكوفة" ، فأقمتُ في جوار "حمزة بن حبيب""[٢] فحفظها للقرآن كان سبباً في دخول الجنة.

ويلتقي ابن القارح في أحد المشاهد بحيات يلعبنَ ويتماقلنَ ويتخافقْنَ (يتضاربن في الماء فيتغاطسن) ويتثاقلن، وتكون إحداهن ذات الصفا الوافية لصاحبٍ ما وفى، وهي صاحبة المثل المشهور "كيف أعاودك وهذا أثر فأسك"[١]، ويمتزج بعرض تلك الحية الحامية للوادي الرمز الواقعي بالخرافي الأسطوري؛ فالمؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين، وصاحب التجربة القاسية لن يكررها إلا إذا كان قصير النظر" وقد مثلت

---

[١]– المعري، رسالة الغفران،ص ١٩٨ .

[٢]– نفسه، ص٣٦٧–٣٦٨.

[١]– الميداني، مجمع الأمثال، ١٧٤/٣، ويضرب المثل لمن لا يفي بالعهد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأفعى في هذه القصة القديمة الرمز الخرافي، وبينما مثّل الراعي الرمز الواقعي، وقد اتجه الرمزان معاً نحو تأكيد هذه المجموعة من الحقائق".[١]

والله ينطق الحية بعد أن يسأل ابن القارح نفسه عن صنع الحية في الجنّة، فتذكر أنها كانت تنزل بوادٍ خصيب، وكان له صاحب تورد له الجميل إلا أنه "كان له أخٌ قتلته تلك الأفعى وجاهرته في الحادثة: أو قيلَ خَتَلْتَه، فَضَربَها ضَرْبَة، وأهونْ بالمَقِر شَرْبَة، إذا الرّجلُ أحسَّ التَّلَفَ، وفَقَد من الأنيسِ الخَلَفَ! فلمّا وُقِيَتْ ضَرْبَة فأسِه، والحِقدُ يُمسِك بأنفاسِهِ، نَدِمَ على ما صنع أشَدَّ النّدم، ومن له في الجِدَّة بالعدَم؟ فقال للحية مخادعاً، ولم يكن بما كتم صادعاً: هل لكِ أن نكون خِلَّيْن، ونحفَظَ العهدَ إلَّيْن؟ ودعاها بالسَّفهِ إلى حِلْف، وقد سُقي من الغَدْر بخِلْف. فقالت: لا أفعلُ وإن طال الدَّهرُ، وكم قُصِم بالغِيَر ظهرٌ"![٢]

د-الجن والملائكة في الغفران:

يظهر في الغفران في جنة العفاريت مخلوقات عجيبة تعيش معنا في عالم الواقع، وتمارس سلطتها العجيبة على أهل الأرض، فالجني الذي يلتقيه ابن القارح يدعى بأبي الهدرش (الخيتعور) يعود بذاكرته إلى حياته الدنيوية، إذ أراد اختراق جسد فتاة ، فهو لا يتناسى عبثه قبل إيمانه واستهتاره، فقد لقي شراً من بني آدم ولقوا منه كذلك، إذ دخل دار أناس يريد أن يصرع فتاة لهم فتصور بصورة جرذ فدعوا له السنانير، فلما كشفوه وأرادوا قتله تحول إلى ريح هفافة. فلم يروا شيئاً فجعلوا يتعجبون لذلك " ويقولون ليسَ هاهنا مَكانٌ يُمكِنُ أن يَستَتر فيه. فبينا هُم يَتذاكَرون ذلك، عَمَدتُ لِكَعابِهم في الِكلَّةِ فلما رأتَني أصابَها الصَّرَعُ، واجتَمَعَ أهلُها من كُل أوْبٍ، وجَمعوا لها الرُّقاة، وجاءُوا بالأطبَّةِ، وبَذلوا المُنفِساتِ، فما تَركَ راقٍ رُقْيَة إلا عَرَضَها عليّ وأنا لا أجيبُ. وغَبَرت الأساةُ تَسقيها الأشْفِية وأنا سَدِكٌ بها لا أزولُ؛ فلما أصابها

---

[١]- الوجود، ثناء، رمز الأفعى في التراث، ص ١٣١-١٣٢.

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص٣٦٥، ختلته: باغتته وأخذته على حين غفلة (ابن منظور، لسان العرب، مادة ختل) ، المقر: السُّمّ أو شجر مُرّ، وقيل هو الصَّبر(نفسه، مادة قرر) ورد الظاهرة: أن ترد الإبل نصف النهار. الغب: ورد يوم وظمأ يوم، خلِف: حلمة ضرع الناقة (ينظر حاشية الغفران، ص٣٦٥).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحمامُ طلبتُ لي سِواها صاحِبة، ثُمّ كذلك حتى رَزَقَ اللهُ الإنابَة وأثــابَ الجَزيــلَ، فــلا أفتــأُ له من الحامدين".[١]

ويكمن العجب هنا في قدرة الجني على التحول مــن صــورة إلــى أخــرى والولــوج في أجساد البشر وإحداث الأذى والضّرر لأجسامهم ، فهــو يقــول فــي الــردّ علــى تــركهم على خلقتهم لا يتغيرون في الجنة :

" إن الإنسَ أكْــرمُوا بذلك وأحْرمتْاه، لأنّا أعطِينا الحُوَلَــــةَ فــي الــدار الماضِــية، فكان أحدَنُا إن شاء صار حيّــة رقشــاءَ، وإن شــاءَ صــارَ عُصــفوراً ، وإن شــاءَ صــار حَمامةً، فَمُنِعْنا التــَصَوُّرَ في الدار الآخــرةِ ، وتــــُركنا علــى خَلقِنــا لا نتَغيَّــرُ وعُــوِّض "بنو آدم" كونَهم فيما حَسُنَ من الصُّور".[٢]

وينكر أبو الهدرش (الخيتعور) ما زُعِــم حول جمــع أشــعار الجــن بقطعــة علــى يد المرزباني، وأكدّ أن ذلك هذيَان لا يُعوّل عليه ، فــإذا كانــت طاقــة البشــر فــي خمســة عشر جنساً من الموزون ، فإن لهــم لآلاف الأوزان مــا سَــمع بــه الإنــس.[٣]وقــد كــان للخيتعور طاقة عظيمة على قول الشعر، إذ أنشــد قصــيدتين فيهمــا مــن الروعــة الشــيء الكثير، فتفوقت في بيانها وعددها فبلغت نحو تسعين بيتــاً، ومــا ذلــك إلا للتعــريض بــابن القارح المزهو بمعرفته للشعر وتاريخه، فقدرة تلــك الكائنــات الخفيــة تفــوق مــا يتصــوره العقل البشري دون تبجح .

وتميزت تلك الكائنات بذكائها ممــا جعلهــا قــادرة علــى مخاطبــة البشــر بجميــع الألسن الإنسية، كما أنّ لها لساناً لا يعرفه بنو البشر، أما النســيان فــلا يغلــب عليهــا، ذلــك أنها خُلقت من شُعلة لهب لا من حَمَاً مسنون كــالإنس الــذين يغلــب علــيهم النســيان. وقــد

---

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص ٢٩٣–٢٩٤. الكلة: غشاء رقيق يتقى منه البعوض (ابن منظور، لسان العرب، مادة كلل)، سدك: لزمه ولم يفارقه (نفسه، مادة سدد). ينظر حواشي الغفران، ص٢٩٠–٢٩٣.

[٢]– المعري، رسالة الغفران، ص ٢٩٣.

[٣]– نفسه، ص ٢٩١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكدّ أنّ الكذب والادعاء في الجن والإنس لكثير، فالرجم كان في الجاهلية وزاد في زمن المبعث، وقد كان هذا الموضوع مما دار حوله مزاعم كثيرة[١].

أما إبليس فقد ظهر مُكبّلاً وهو من الشخوص غير الأدبية التي التقاها ابن القارح – ولم يكن من عالم الشعراء– إلا أنه في حقيقة الأمر ليس غريباً عن عالمهم، فهو الملهم لبعضهم، لذا وصف أحد الملائكة الشعر بقرآن إبليس.

وحَمّل المعري لسان إبليس الحكمة، إذ يُعرضُ بالشعراء، وما لسانه هنا إلا لسان المعري الذي أَنِفَ فعل الشعراء التكسب بالشعر والتملق ، ورأى أن ميدان الشعر يكون في الإصلاح و التهذيب والارتقاء بالأخلاق ولذا انتقد إبليس الأدباء المتكسبين بالشعر وسَخر منهم، وفي ذلك تعريض بابن القارح وحياته اللاهية، يقول إبليس: "بئس الصناعةُ، إنها تَهَبُ غُفَّةً من العَيْش لا يَتَسِّعُ بها العِيالُ، وإنَّها لَمَزلَّةٌ بالقدَمِ وكم أهْلكتْ مِثْلكَ ! فهنيئاً لك إذ نَجَوْت، فأولى لك ثم أولى ".![٢]

إلا أن المعري ينفصل عنه حين تتكشف نوازع الشَّر لديه ويعيده إلى ما كان عليه في سابق عهده، فإبليس يسأل عن حال أهل الجنة، يقول :

"إنّ الخمر حُرِّمتْ عليكم في الدُّنيا وأحُلَّت لكم في الآخرة، فهل يفعل أهل الجنةِ بالولدان المخلَّدين قِعلَ أهل القَريات "[٣] .

أما الملائكة فهم خلق كثير، وقد سُخِّروا في الغفران لأداء أعمالهم التي وكلوا بها، لا يخرجون عن أدائها ولا يتجاوزونها، فمنهم خزنة للنار وحراس للجنة . ويدور بينهم وبين ابن القارح حوار يوحي أن علم الملائكة بالشعر والأدب نزر قليل؛ فهم لا يفهمون الأباطيل التي يطيل ابن القارح الحديث عنها. وتنال السخرية ابن القارح مرة أخرى، فهو يتملق الملائكة بغية أن يُحصّل في النعيم، فيتزلف إلى "رضوان" بالشعر

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص٢٩٦–٢٩٨ .

[٢]– نفسه، ص ٣٠٩.

الغـُفَّة : القليل من العيش (ابن منظور، لسان العرب، مادة غفف)

[٣]– المعري، رسالة الغفران، ص ٣٠٩ . القريات : من المساكن والأبنية والضياع، وقد تطلق على المدن (ابن منظور، لسان العرب، مادة قرا) . ويعني هنا بالقريات: قرى قوم لوط عليه السلام كما ذكرت بنت الشاطئ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليأذن له دخول الجنة، فيرفض ذلك، ويسخر من قلة عقله وبعده عن إعمال تفكيره، يقول:

" وإنك لغبين الرأي، أتأملُ أن آذنَ لك بغيَر إذنٍ من رَبّ العِزة؟ هيهاتَ هيهات!﴿وأنّى لهُمُ التناوُشُ من مكانٍ بعيد﴾[١]" [٢]

ولا يكتفي ابن القارح بـ"رضوان" بل يتخذ من "زفر" (أحد الملائكة) وسيلة أخرى للوصول إلى الجنة، فينشده المدائح، فيقول غير آبهٍ :

" لا أشعُرُ بالذي حَمَمْتَ أي قصَدت.... " فما بُغْيتُك ؟ فذكرتُ له ما أريدُ. فقال: والله ما أقدرُ لك على نَفْع، ولا أملِكُ لخلق من شَفْع".[٣]

ثمّ إن الملائكة محيطة بالجنّة وما فيها، فهي التي تكشف لابن القارح عن الحور العين وضروبهن حينما يسأل عنهن فيقول المَلَك:

" هنّ على ضَرْبين : ضَرْبٌ خَلَقه اللهُ في الجنّة لم يعرف غيرها. وضَرْبٌ نَقَلَه الله من الدار العاجلة لمّا عَمِل الأعمالَ الصّالحة "[٤].

ثانياً: الشخصية العجيبة في رسالة الملائكة ورسالة الشياطين

ألفّ المعري رسالة الملائكة للإجابة عن مسائل صرفية سئل عنها، ويبدو أنه نظمها في سنٍ متأخرة، كما يفهم من قوله في مقدمة الرسالة، "فأما أنا فحِلس البيت إلاّ أكِن الميت فشبيه بالميت لو أعرضت الأغربَةُ عن النعيب إعراضي عن الأدب والأديب لأصبحت لا تحسن نعيباً ولا يطيق هِرمُها زعيباً".[١]

---

[١]- سورة سبأ، آية ٥٢.

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص ٢٥١.

[٣]- نفسه، ص ٢٥٢ .

[٤]- نفسه، ص ٢٨٧-٢٨٨ .

[١]- المعري، رسالة الملائكة، ص٣-٤. حلس: يُقال حلس البيت: لا يبرحه .(ابن منظور، لسان العرب، مادة حلس)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقسم رسالة الملائكة إلى قسمين: قسم أدبي خيالي قصصي، انتقل فيه إلى العالم الآخر والتقى بالملائكة، وقسم يبلغ ثلاثة أرباع الرسالة ويتضمن الإجابة عن الأسئلة التي سئل عنها، وهي القول في إياك، وآية، وغاية، وثاية، واسم وحقيقة الحذف منه، وغيرها من المسائل الصرفية الأخرى التي ليست موضوع البحث.

واهتم المعري في رسالة الملائكة بالحديث عن مسائل صرفيه سُئل عنها، وقد تمثّل فيها مأساة الخلافات بين علماء اللغة وما انعكس عن ذلك من تعقيد للمسائل المختلفة، وقد جاءت هذه الرسالة نتاج تأثر المعري بأفعال العلماء الذين جعلوا قضايا الصرف نسقاً خلافياً في نسيج الفكر العربي .

وهنا يجعل الراوي الموت وما يعقبه من مفاجآت أهون من مواجهة فظاعة العلماء وسوء رأيهم في بعض المسائل الصرفية، فقد اختار لنفسه مصير الموت ليقيم في عوالم جديدة تكون متنفساً له ليقول ما يشاء ويختار الرأي الذي يجده سليماً.

والمعري يُقدّم نقده في إطار رحلة خيالية إلى الجنة والنار بعد أن جعل نفسه تُشرف على الموت ، فحينما يأتي ملك الموت ليقبض روحه، يذكر له أصل ملك واشتقاقه ثم يدور الحديث بينه وبين منكرٍ ونكيرٍ، وبينه وبين رضوان وغيرهم[١].

وهو بهذا يخترق قيد الزمان والمكان الأرضي باختياره زماناً ومكاناً غير محدودين يُعطي صاحبه الحرية والانطلاق كيفما يشاء، وهو يجهر بأفكاره دون خجل أو وجل في البعد الزماني والمكانّي الجديد، كما يتيح له الموت أن يتجاوز الشعور بالحرج والضيق ويكشف عما يراه مناسباً ويستعرض العلوم المختلف عليها ، فيزور الماضي ويعيش الحاضر ثم يعود إلى المستقبل (الجنة) ليرصد باختيار حرٍ ما ابتليت به اللغة العربية بوجود هؤلاء العلماء.

ثم يتيح له الموت كذلك التعامل مع الملائكة ، فهو يتزلف لملك الموت ليُمهله ساعة من الوقت ، فيقول له " فأقول: أمْهلني ساعة حتى أخبرك بوَزن عزرائيل،

---

[١]- المعري، رسالة الملائكة ، ص ٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأقيم الدليل على أنّ الهمزةَ زائدةٌ فيه، فيقولُ الملكُ : هَيْهاتَ ليس الأمرُ إليّ ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [١]"[٢]

ويتضح مما تقدم أنّ المَلَك مسخّر للقيام بوظيفته، ولا اطلاع له على غير ذلك؛ إذ لا يهمه وزن عزرائيل إنما القيام بما أنيط إليه من الأعمال الممثل بقبض الأرواح مثلاً. ومن هنا فإن الملائكة في رسالة الملائكة لا تختلف عنها في رسالة الغفران، فهما امتداد واضح لبعضهما . أمّا العلاقة بين الرسالتين فقد أسهمت دراسات الدارسين في الحديث عن هذا الموضوع، فمنهم من رأى أن هذه الرسالة ألفت سنة ٤٣٥هـ،[٣] في حين يرى غيرهم أنها أُلفت في الزمن الذي ألفت فيها رسالة الغفران. بيد أن عائشة عبد الرحمن أكدّت أنها أُلفت بعد الغفران ، فاستدرك فيها المعري ما فاته فيها. [٤]

وامتداداً لذلك الحديث فإنّ ملك الموت لا يعي، في أحد المشاهد، الألفاظ الخاصّة بالشعر، وهو لكثرة ترداد الراوي لها يسخر منه، فيقول له لما سأله عن وزن ملك مستشهداً ببيت لعمر بن أبي ربيعة وآخر أنشده أبو عبيدة، فيقول الملكُ "من ابنُ أبي ربيعة؟ ما أبو عبيدة؟ وما هذه الأباطيلُ؟ إنْ كانَ لكَ عَمَلٌ صَالحٌ فأنتَ السعيدُ وإلا فاخسأ ورَاءَكَ [٥]

وهذا الموقف نفسه يتكرر في الغفران ، حينما أراد ابن القارح رؤية عدي بن أبي ربيعة، فيدور الحوار بين الملك وابن القارح على النحو الآتي:

" فيقفُ بذلك الموقف ينادي : أين عَدِيّ بنُ ربيعة؟ فيقالُ : زدْ في البيان . فيقول : الذي يَسْتَشْهِدُ النحويُّون بقوله (من الخفيف):

---

[١]- النحل، آية ٦١.

[٢]- المعري، رسالة الملائكة ، ص (٨-٩) .

[٣]- الراجكوتي، عبدالعزيز الميمني، أبو العلاء المعري وما إليه، ص٢.

[٤] - عبدالرحمن، عائشة، رسالة الغفران لأبي العلاء (دراسة نقدية)، ص٢٩٩.

[٥]- المعري، رسالة الملائكة، ص ٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضَرَبَتْ صَدْرَها إليَّ وقالتْ : يا عَدَّيا ، لقد وَقتك الأواقي[١]

وقد استشهدوا له بأشياء كقوله : .... . فيقالُ : إنك لتُعرِّفُ صاحِبك بأمْر لا مَعْرفة عندنا منه؛ ما النحويون؟ وما الاستشهادُ؟ وما الهَذيانُ ؟ نحن خزنة النّار، فَبيِّنْ غَرضَك تُجبَ إليه.

فيقول : أريدُ المعروف بُمهلْهل التغلبيِّ أخي كُليبِ وائل ، الذي كان يُضْرَبُ به المثلُ"[٢].

وبعيداً عن ذلك فإنّ أسئلة الراوي كثيرة، والغرض منها إشغال الملائكة عن مسؤولياتها وتنفيذ أمر الله فيه. ومن ذلك الحوار الذي يدور بين الراوي (الشخصيّة الرئيسيّة) وبين منكر ونكير يحاول فيه أن يصرفهما عن أداء مهمتهما وما هما به من أمره ببعض القضايا الصرفيّة كصرف اسميهما، علماً أنّ غالبية أسماء الملائكة أعجمية، ووزن "موسى" كليم الله ، حتى إذا أشاروا إليه بالإرزبة(عصية من حديد يكسر بها المدر) سألهما عن جمعها وتصغيرها، ثم عن بعض الكلمات التي يبدل بعض حروفها بحروف أخرى كجدف وجدث، ومغاثير ومغافير، وأثافي وأفافي ، وثوم وفوم، ومعنى كلمة الرّيم ، يقول الراوي واصفاً مشهداً يحاول فيه إشغال الملكين عن عملهما:

" أم تُراني أداري منكراً ونكيراً ، فأقولُ كيف جاء اسماكما عربيين منصرفين وأسماء الملائكة أكثرها من الأعجمية ؟ فيقولان : هات حجتك وخلِّ الزخرف عنك. فأقول متقرباً إليهما : قدْ كان يَنبَغي لكُما أنْ تَعْرفا ما وَزْنُ ميكاييل وجبريل على اختِلافِ اللغات فيهما ،إذ كانَا أخويكما في عبادة الله فلا يَزيْدهما ذلك عليّ إلا غِلْظة"[١].

---

[١]- من شواهد النحاة في باب المنادي لقوله : يا عَدّيا. وكذلك في قوله أوأقي أصله وواقي . قلبت الواو الأولى ألفاً ، لاجتماع واوين مفتوحتين أول الكلام. ورد البيت في شذور الذهب لابن هشام، ص١١٢.

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص ٣٥١-٣٥٢ .

[١]- المعري، رسالة الملائكة، ص ٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثُمّ يصور الراوي نفسه مع السائق والشهيد، وهما يقودانه إلى نار جهنم ، فيحاول أنْ يُداريهما بأمر مخاطبة الواحد بصيغة الاثنين.[١]

وجدير بالذكر أنّ المعري بحواره مع الملائكة يحاول دائماً أن يُظهر تميزه عليهم وتفوقه، فهو يعرض قدراته اللغوية لمّا حاول مخاطبة رضوان بأسلوب ما عهده رضوان ليُظهره بموقف العاجز، فالراوي يقف على باب الجنة ، ويقول له:

" يَا رَضْوانُ، لنَا إليك حاجة ، ويقولُ بَعْضُهم : يا رَضْوَ، فيضم الواو، فيقول رضَوان، صلى الله عليه وسلم : مَا هذه المخاطبة التي ما خاطبني بها أحدٌ قبلكم ؟ فيقول : إنّا كنّا في الدار العاجلة نتكلمُ بكلام العرب، وإنّهم يرخمون الاسم الذي في آخره ألف ونون ".[٢]

ويتوسلون إليه أن يرسل إليهم بعض العلماء من أهل الجنة، فيستجيب لهم فيأتي الخليل بن أحمد الفراهيدي ويعرضون عليه ما عرضوا على "رضوان" من حاجة أهل الجنة لعلمهم، فقد يكون هنالك من لا يعرف حروف كمثرى أأصلية هي أم زائدة، وجمع السفرجل وتصغيرها ووزن السندس وطوبى وغيرها مما تشتمل عليه الجنة فيخبرهم "رضوان" أن هذه المسائل أباطيل ذهبت مع العاجلة.

إلا أنّ الملائكة في أحيان أخرى يُظهرون تميزهم، وقدرتهم الفائقة الخارقة، واستخفافهم ببني البشر وجهلهم، يقول المعري واصفاً ردة فعله من علم منكر:

" فإذا عجبتُ مِمّا قالاه أظهرا إليّ تَهاونا بِمَا يَعْلَمَهُ بنو آدم وقالا : لو جَمع ما عليه أهل الأرض على اختلافِ اللغاتِ والأزمنةِ، لما بَلَغَ علم واحد من الملائكة .."[١]، ويردان في موطن آخر بعد أن يندهش من الفصاحة التي هما عليها فيقولان: " تربا لك ولمن سميت! أيُّ علم في ولد آدم ؟ أنهم للقوم الجاهلون ".[٢]

---

[١]- المعري، رسالة الملائكة، ص ٢٥ .

[٢]- نفسه، ص ٢٧.

[١]- نفسه ، ص١٦.

[٢]- نفسه، ص١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصية العجيبة في رسالة الشياطين:

يندرج خطاب الرسالة في إطار النقد الواعي لمعطيات مُتَعَارفة عند الشعراء وهي قائمة على التخييل ولا أساس لها من الصحة، إذ تقوم على ما قيل عن شعراء الإنس وعلاقتهم بشعراء من الجن، وادعاء ورود الشعر على ألسنة الجنّ. وبعرض تلك الروايات يمزج المعري بين عالمين: أحدهما مألوف والأخر غير مألوف، ومن ذلك ما قيل عن تلك المخلوقات التي ناحت على عمر بن الخطاب، فقالت (من الطويل):

قضيْتَ أمُوراً ثم خَلّفتَ بَعْدَها بَوَائجَ في أكمامها لم تُفَتَّق"[١]

وحقيقة الأمر أنّ المعري بأسلوبهِ التهكمي الساخر أراد أن يوحي أنّ هذه الأشعار المنسوبة إلى الجن يختبئ وراءها غير شاعر، وأنّها ليست للجن ، إلا أنّ شعراء ذلك الزمان استهوتهم تلك المخلوقات الغامضة الخفية، فأصبحوا يقولون الشعر مراراً، ثُمّ ينسبونها للشياطين والجنّ من باب الخروج على النمط التقليدي و التحرر من نطاق المألوف السائد، كما أنّ هدفها إثارة العجب باللجوء إلى تلك الروايات .

وفي هذا المضمار فقد كان لأصحاب السير دور في الرواية عن تلك المخلوقات العجيبة، إذ زعموا أنّ سعد بن عبادة مال إلى سُباطة قومٍ فبال، ثم مال ميتاً، وأنّ الجنّ قالت:

قتلنا سيّد الخزرج سعد بن عبادة فرميناه بسهمين فلم نخطئ فؤاده"[١]

ويبدو أنّ المعري انشغل بقضية الروايات الواردة على ألسنة تلك الكائنات غير المرئية ، فما يُذكر – من الوهم – أن لكل شاعر شيطاناً يقول الشعر على لسانه ، وهنا يروي ماقاله الراجز:

---

[١]– المعري، اتحاف الفضلاء برسائل أبي العلاء ، ص٦٩ ، البائجة: الداهية جمع البوائج (ابن منظور، لسان العرب: مادة بوج)؛ الأكمام : جمع كم وهو وعاء للطلع (نفسه: مادة كمم).

[١]– المعري، اتحاف الفضلاء برسائل أبي العلاء ، ص ٧٠–٧١. السباطة: الكناسة، الموضع الذي ترمى فيه الكناسة والتراب (ابن منظور، لسان اعلرب، مادة سبط).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّـــي وإن كنتُ صغيراً السّن وكان في العين نُبُوٌّ عنـــــي

فإن شيطاني أميرٌ الجـــــنِّ يذهبُ بي في الشِعر كـُلَّ فنِّ

وقد زادت الروايات والمزاعم حتـــى أن هنالـــك مـــن زعـــم أنّ لـــه شـــيطاناً وسّـــماه أسماء معروفة بينهم؛ فِمسْحلٌ على سبيل المثال شيطان الأعشى[١].

كما يذكر في هذا الميدان أنّ "أبا بكـــر بـــن دريـــد ذكـــر لأصـــحابه أنّـــه رأى فيمـــا يرى النائم أنّ قائلاً يقول : لـــَم لا تقول في الخمر شيئاً ؟ فقـــال : وهـــل تـــرك أبـــو نـــواس مقالاً، فقال له : أنت أشعر منهِ حيث تقول :

حَمَراء قبل المزج صفراءِ بَعـــْـــــدَه أنَتَتْ بينَ ثـــوْبَيْ نرجسٍ وشقائقِ

حلـــَت وَجْنَة المعشوقِ صـــِرْفاً فسَلطوا عليها مزاجاً فاكتست لون عاشقِ

فقال له أبو بكر " من أنت ؟ فقال : أنا شـــيطانك ، ولمـــا ســـأله عـــن اســـمه، فقـــال : أبوزاجيه".[٢]

ومع أن الشخصية العجيبة لم تشغل حيـــزاً كبيـــراً وواضـــحاً فـــي رســـالة الشـــياطين، إلا أنها ضمن النسق الحكائي في رسائل أبي العلاء المعري.

---

[١]- المعري، اتحاف الفضلاء برسائل أبي العلاء ، ص ٧١ .

[٢]- نفسه ، ص ٧١-٧٢ .

حِمراء : صفة للخمر .(ابن منظور، لسان العرب: مادة حمر)؛ المزاج : خلطها بالماء (نفسه: مادة مزج)؛ حكت : أشبهت (نفسه: مادة حكى)؛ وصرفاً : ممزوجه (نفسه: مادة صرف). لون عاشق: المقصود به الاصفرار.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الثاني

بناء الشخصية

الفصل الأول

بناء الشخصية من حيث الأنواع

الفصل الثاني

بناء الشخصية وعناصر السرد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

أنواع الشخصيّة من حيث البناء

أ- شخصيات رئيسية وثانوية وهامشية

آثر المعري أن يحجب البطولة عن كل الشخصيات، ويجعلها لواحد فقط، فالبطولة ليست لكل الحيوانات في رسالة "الصاهج والشاحج"، وليست لكل الأدباء في رسالة "الغفران"، كما أنها ليست للملائكة في رسالة "الملائكة "، وإنما كانت الشخصيّة المحورية واحدة، ومثل هذا يسهل الإمساك بخيوط الشخصيّة الرئيسية وعلاقتها مع الشخصيات الأخرى وعناصر القص، والسرد ممثلة: بالأحداث والزمان والمكان حتى لا تختل، وقد بقي لكل شخصيّة مع ذلك عمقها الواضح المتشكل بالحوار، وجعل الثبات والتغيير وسيلة لتعريف الشخصيّة المحورية كما في "الصاهل والشاحج" فالشاحج هو الشخصيّة المحورية التي بدت صبورة على كل مصاعب الحياة، ولازمت الأحداث من بداءتها إلى نهايتها، كما أن الأحداث لم تحوله إلى شخصيّة مضطربة، بل كان قادراً على تجاوز المحيط الذي حاول بكل طاقته أن يؤثر عليه تأثيراً سلبياً كما في مالكه الذي استهلك قوته الجسدية والنفسية .

أما الشخصيات الأخرى فقد بدت عابرة، وإن طال الحوار معها كالصاهل الذي رفض بشدة انتساب الشاحج له، والجمل الذي عجز عن حمل أخبار الشاحج المستطرفة واعتذاره عن توصيلها، والثعلب الذي حمل أخبار معرة النعمان للشاحج، والحمامة التي أوغرت صدر الجمل على الشاحج، والضبع وسخرية الشاحج منها، وهكذا فإن علاقة الشاحج بكل من حوله تتسم بالمرونة والود، فهذه الشخصيّة المحورية جذبت إليها معظم الشخصيات، واستقطبت حركة الصراع الدرامي وهي تمثل القاسم المشترك بينهم (الحيوانات المتحاورة) جميعاً.

وتقوم رسالة الملائكة على أحداث خيالية، بطلها الراوي، ويجعل له دوراً كبيراً من الحرية والحركة وإبداء الرأي بالصوت، وتبدأ الأحداث بالتنامي شيئا فشيئا،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالراوي الشخصيّة الرئيسيّة بعد أن يخاطب مَلَك المـوت وحديثـه عـن وزن ملـك، ينتقـل إلى مخاطبة الملكين منكر ونكير، ثـم يسـألهما عـن وزن كلمـة "موسـى"، ويسـتمرُّ فـي التنقل حتى لا يبقى شيء في نفسه إلا يسأله، مظهـراً مقدرتـه اللغويـة، وحذقـه المعرفـيّ، كما أنه شخصيّة تتطور وفقاً لتتـابع الأحـداث، لـذلك امتلـك حضـوراً فـاعلاً شـعاره أن ينجو بنفسه ويدخل الجنة.

ويعمد المعري في "الغفران" إلى اختـزال الشخصـيات فـي شخصـيّة واحـدة، ممـا يمنح حكايته تكثيفاً في تنـاول موضـوعها، وفهـم مغزاهـا بعيـدا عـن الانشـغال بهمـوم شخصيات أخـرى أو بسـكونها، إلا أن المعـري فـي الوقـت نفسـه كشـف مـن وجـود الشخصيات المحيطة بتلك الشخصيّة التي قـد تكـون فـي جُلهـا صـدى لتلـك الشخصـيّة الرئيسيّة، والتي لولا حركتها في الجنان لما علمنا مـن أمـر هـؤلاء شـيئا، لـذلك كثـرت الأفعال التي تفيد معنى الحركة والتتابع والتواصل الحركي، مـن ذلـك مـثلاً النزَّهـة التـي كانت لابن القارح في الجنان، يقول المعري واصـفاً حركتـه: "ثـم إنّـه –أدامَ اللهُ تمكينـه– يَخْطرُ له حديثُ شيء كان يُسمّى النّزهة في الدّار الفانيةِ، فيركـبُ نجيبـاً مِـن نُجـب الجنّـةِ خُلقَ مِن ياقوت ودُرٍّ، في سَجْسَجٍ بَعُد عن الحَـرِّ والقَـرِّ، ومَعـه إنـاءُ فَـيْهج، فَيسـيرُ فـي الجنَّةِ على غير مَنْهج..."[١]، ويقول في وصف مشهد آخر لجولـةٍ جديـدة يقـوم بهـا ابـن القارح على إحدى دواب الجنة:

"فيْركَبُ بعضَ دوابِّ الجنّةِ ويَسـيرُ، فـإذا هـو بمَـدائنَ ليْسـت كمـدائن الجنَّـةِ، ولا عليْها النور الشَّعْشَعانيُّ، وهي ذاتُ أدْحـالٍ وغَماليـل... فيعـوجُ علـيهم، فـإذا هـو بشَـيْخ جالسٍ على بابِ مغارةٍ".[٢] ويمثل ابن القارح الحياة الدنيا باتسـاعها، ولـذلك كـان هَـمُّ الراوي التركيز على المنحى النفسـي والفكـري لـه ليعبـر بهمـا عـن التناقضـات الاجتماعية والفكرية، ويكون للكائنات العجيبة دور في الكشـف عـن المنحـى المعـتم

---

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص١٧٥، سجسج (هواؤها السجسج). أي المعتدل بين الحرِّ والبرد (ابن منظور، لسان العرب، مادة سجج)، فيهج: من أسماء الخمر وقيل هو من صفاتها (نفسه، مادة فَهَجَ)

[٢]– المعري، رسالة الغفران، ص٢٨٩–٢٩٠، أدحال: الثقب من الأعلى والواسع من الأسفل يخزن فيه ماء المطر (ابن منظور، لسان العرب، مادة دحل)، غماليل: الوادي الضيق الكثير الشجر والنبت (نفسه، مادة غمل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من حياة الشخصية الدنيوي، وعندما يحاول ابن القارح أن ينظم نفسه، وينسجم مع المكان الجديد، يلتقي بشخصيات الأدباء فيظهر غريب الأطوار متناقض التصرف وكأنه لا يعي طبيعة المكان الذي هو فيه.

وتنوعت الشخصيات في نثر المعري بين الإنس والجن والملائكة والحيوانات الناطقة المتكلمة، وحيوانات وثمار متحولة إلى جوارٍ يرقصن ويغنين، إلا أنها اشتركت جميعها في حبها للشعر ومعرفة الأدب، ونجحت تلك الكائنات على اختلافها وتنوعها في الكشف عن شخصية ابن القارح، التي بدت ثرية في بنائها وعميقة فامتلكت المعرفة التي تخفي جهلاً، وقوة الحضور التي تخفي استخفافاً في وزنه الأدبي بين الأدباء، فالجنيُّ يقول في "الغفران":

"... وإنّ لنا لآلاف أوْزانٍ ما سَمِعَ بها الإنسُ، وإنما كانت تَخْطِرُ بهم أُطَيْفالُ منّا عارمون، فتُنفِثُ إليهم مِقدارُ الضُّوَازةِ من أراكِ "نَعْمانَ". ولقد نَظمْتُ الرُّجَزَ والقصيدَ قبلَ أن يَخْلُقَ اللهُ "آدم" بكَوْرٍ أو كَوْرَيْن".[١]

ب-الشخصيات التراثية:

اعتمد المعري على الشخصيات التراثية بشكل مكثف، وظهرت في غير صورة، ومن ذلك استدعاؤها أحياناً بالاسم فقط، وينقلنا المعري بذكر تلك الأسماء من الواقع التراثيّ إلى الواقع الحاضر، فهو يلجأ إلى أقوالها وأفكارها أحياناً؛ ذلك أنّ حدثاً وقع أمامه وطرأ فيستعين بتلك الشخصيات، كوصفه الطِّرْيم (عسل)، يقول في الغفران مثلا:

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٩١، أطيفال: تصغير أطفال

عارمون: شرس (ابن منظور، لسان العرب، مادة عرم)، والضّوازة: الشظية من السواك (نفسه، مادة ضوزة).

الكور: القطيع من الإبل ضخم العدد، يقال مئة وخمسون وقصد بها مئة وخمسين عاماً (نفسه، مادة: كور).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" لو أنّ "الحارثَ بن كَلَدة"[١] طَعِمَ مِنْ ذلك الطِّرْيم، لعَلِم أنّ الذي وَصَفهُ، يجري من هذا المنعوتِ مَجْرى الدِقْلى الشاقةِ من الرَّعْديد... وكذلك السَّلوى التي ذكرها "الهُذْليُّ" هي عند عَسَل الجَنَّة كأنَّها قارٌ رَمْليّ؛ والقارُّ: شجرٌ مُرّ يَنْبُتُ بالرَّمل".[٢]

أو يحتفظ بالسِّياق التاريخيِّ إلى حدٍ كبير، إلا أنه يتحايل بذكر علاقة الودِّ في الدِّار الآجلة ليُوحي بالتنافر في الدنيا، ففي إحدى اللوحات يصوّر النُّحاة وتصافيهم باللجوء إلى تشبيههم بشخصيات تراثية، يقول: "كأنَّهما ندمانا جَذيمة: مالك وعقيل"[٣]، كما يظهر ابن القارح تحسره على الأعشى، فيقول "آهٍ لمصرع "الأعشى ميمون" وكم أعمل من مطيةِ أمون".[٤]

وقد يكون ذكر الأسماء التاريخيّة ذا دلالات إيحائية ليُعبِّر عن العصبيِّة القائمة بين الحيوانات وتمتدُّ لتوحي بعلاقات التفاوت الطبقيّ، ومن ذلك قول الشَّاحج في ردهِ على الصاهل: "والجَسدُ على النفسِ كريمٌ، ولعلّ في ظنّ المِنَنَة أنّ ابنتها أحَقُّ بالحلي من الفتاةِ الحسنةِ، ولعلّ في نفوسِ الكِرْوان أنّها أحسنُ من الطواويس. ولولا الإسلامُ لم تُسلِم أدِقَّاءُ العربِ الشَرفَ إلى بني عبدِ مناف. "وسَلْمانُ" عند الميزان أرجحُ من الهُرْمُزان، و"خَبَابُ بنُ الأرَتّ" وإنْ كانَ ينتسبُ إلى النّبط، قَدْ قَرَعَ من ينتسبُ في القبائل ذواتِ الحسبِ".[٥]

وفي حوار الراوي مع الملكين، يسألهما سؤالا ينبني على استدعاء شخصيات، أسهمت في علم النَّحو والصَّرف، ويقصد باستلهام الشخصيات التراثيّة استرجاع الماضي لتجاوز عيوبه ومآسيه، يقول:

---

[١]- الحارثُ بن كلدة الثقفي: سافر البلاد وتعلم الطب ناحية فارس، ومن الحكماء المشهورين من أهل الطائف (ابن أبي أصيبعة، موفق أبو العباس أحمد بن القاسم، (ت ٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢/ ١٣).

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص١٦٦.

[٣]- نفسه، ص١٦٩-١٧٠. ندناما جذيمة: وهمال مالك وعقيب وجعل جذيمة الأبرش ملك الحيرة مالكا وعقيلا نديميه، وقد بقيا كذلك أربعين سنة ثم قتلهما وندم (حاشية الغفران، ص١٧٠).

[٤]- نفسه، ص١٧٢.

[٥]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص١٦٧-١٦٨. المننة: اسم للعنكبوت (ابن منظور، لسان العرب، : مادة منن)؛ أدقاء العرب: لئامهم (نفسه، مادة دقق)، الهرمزان: الكبير من ملوك العجم (نفسه: مادة هرمز)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"فكَيفَ تبْنيَان مِثْله من الأسماءِ العربيِّةِ أَمْ تذهبان إلى مَا قاله سعيدُ بنُ مسْعدةِ فتُجيْزان أنْ تَبْنيا مِنْ العربيّ مِثل الأعجميّ".[١]

وحرص المعري على استحضار الشخصيّة التراثية في سياقها التاريخي وما ارتبطت به من أقوال وأشعار، ومن هنا فإنّ أعمال المعري النثرية القصصيّة تَعجُّ بمثل ذلك، ففي الملائكة يقول الراوي: "وقال الأعشى في المألكة (البسيط):

أبْلِغْ يزيدَ بني شيبان مألكة أبا ثُبيتِ أما تنفكّ تأتكل"[٢]

وقد يعبر عن جزئيات الحياة الجديدة في الجنان بمزج أقوال قديمة بالحاضر؛ ليبين تطور الشخصيّة مع ألأحداث، فقد بدا ابن القارح بين النَّحاة كما يصفه المعري: "وهو أيدَّ الله العلم بحياته، معهم كما قال البكري (من البسيط): [٣]

نَازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحان متكئاً وقهْوَةً "مُزّةً"، راووقها خَضِلَ

لا يَسْتَفيقُونَ مِنْهَا وَهْيَ رَاهِنَةٌ إلاّ بهاتِ، وإنْ علُّوا وإن نهلُوا"[٤]

ويتخذ المعريّ من الشخصيّة التراثيّة أداة للكشف عن عوالم الشخصيّة الرئيسيّة التي ما تزال خافية عن القارئ، فهي دلالات إيحائية لما يبطن، ويدين المعري الشخصيّة الواقعية ممثلة بابن القارح مستعيناً بأقنعة الشخصيات التاريخية، فتقارع الآنية يذكر ابن القارح بالأعشى، فيقول: " ولقَدْ وَدِدتُ أنَّه مَا صَدّته قريشُ لمّا تَوجّه إلى النبي صلّى الله عليهِ وسلّم. وإنّما ذكرتُه السَّاعة لمّا تَقارعتْ هذه الآنيةُ بقولهِ في الحائيّةِ(من الرمل):

وشَمُولٍ تَحْسَبُ العينُ، إذا صُفِّقَتْ، جُنْدُعَها نَوْرَ الدُّبَحْ

مثل ريح المِسكِ ذاك ريحُها صَبّها الساقي إذا قيل: تَوَحّ

---

[١]- المعري، رسالة الملائكة، ص١٨-٢٩.

[٢]- نفسه، ص٧. المألكة: الرسالة (ابن منظور، لسان العرب، مادة ألك)

[٣]- البكري= الأعشى.

[٤]- المعري، رسالة الغفران، ص١٧١-١٧٢، الراووق: المصفاة وهو الوعاء الذي تروق فيه الخمر، (نفسه: مادة روق). ورد البيت في ديوان الأعشى، ص٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من زقاق التَّجْر في بَاطِيةٍ جَوْنةٍ، حَارِيَّة، ذاتِ رَوَحْ" [١]

ويبدو أن المعريّ من شدّة حرصه على إبراز المعايير المتناقضة في الواقع الحاضر لجأ إلى مواقف وشخصيات تُجرُّ لإدانة الأكاذيب التي تناثرت على ألسنة أهل الكتاب، ومن ذلك حديث البعير عن الأكاذيب التي ينبغي ألا يلتفت إليها، وهي أكاذيب تحدَّث عنها لتعرية الواقع الاجتماعي، وقد سمع تلك الأكاذيب "أميّة بن أبي الصلت" وغيره فنُظمت في الشعر، "وأمية توجد في شعره أخبارٌ كان ينقلها من الكتب الموجودةِ في أيدي أهل الملتين المخالفتين، منها أن الهُدهد قبر أمّه في رأسه، فلذلك ريحته منتنة، وقال(من الكامل):

غَيْمٌ وظلماء وفضلُ سَحابةٍ أيام كَفّن وَاسترادَ الهُدهدُ

يَبْغِي القرارَ لأمِّه لِيُجِنَّها فَبَنى عليها في قفاه يَمْهَدُ".[٢]

ولا يُبقي المعريّ الشخصيّة التاريخيّة كما هي، لذا يضيف إليها بعض التفاصيل ليتناسب تصرفها واللحظة السرديّة القائمة، وقد ظهر هذا الأمر في "الغفران"، فأفاد المعري من معرفته الخاصّة بتاريخ الشخصيّة، واستثمرها في إضاءة جوانب الشخصية، فظهرت في ردود أفعالها، وهيّأ لهذا الصراع جواً حركيّاً واستطاع أن يجمع في النهاية خيوط عمله الذي يبدو متكاملا، فالرسالة كما يتضح تعتمد على أدب الذاكرة، فهي "تستمدُّ مادتها من التاريخ، وتسوقها على نحو معين".[٣] ولذا، فإن تصرّف الشخصيّة يتلاءم والموقف الذي وضعت فيه، والراوي الحقيقي (المعري) يصف شخصياته وذلك بفعلها وسلوكها وموقفها وحركاتها، فالأسلوب التصويري طغى على تقديم شخصياته بغية الكشف عن خبايا أمور يخفيها ابن القارح، كما يتضح

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص١٧٣. الشمول: الخمرة الباردة (ابن منظور، لسان العرب، مادة شمل). صفقت: نقلت من إناء إلى إناء لتصفو (نفسه مادة صفق)؛ الجندعة: مصفاة الماء (نفسه مادة جندع)؛ الدّبح: اسم نبات يؤكل له زهر أحمر (نفسه، مادة ذبح)؛ توح: أسرع (نفسه ، مادة وحي)؛ حارية: نسبة إلى الحيرة (نفسه: مادة حري)؛ روح: إتساع (نفسه، مادة روح)؛ ووردت الأبيات في ديوان الأعشى، ص٤٢.

[٢]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٢٤٩-٢٥٠. وردت الأبيات في الشعر والشعراء (٤٢٠/١).

[٣]- الطباع، عمر أنيس، عبقرية الخيال (في رسالة الغفران)، ص٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من قوله للشماخ: "لقدْ كانَ في نَفْسي أشياءُ من قصيدتِك التي على الزاي، ووكلمتك التي على الجيم، فأنْشِدنيهما لا زلتَ مخلداً كريماً"[١]، والشَّماخ يرد كأنّه يسمع لأولّ مرّة: "لقد شَغَلتني عنهما النعيمُ الدائمُ فما أذكرُ منهما بيتاً واحداً" فيقول ابن القارح متابعا بتعجب: "لقد غفلتْ أيّها المؤمنُ وأضَعْت، أما عَلِمتَ أن كَلِمَتَيك أنفعُ لك من ابْنَتيْك؟ ذُكِرتَ بهما في المواطِن وشُهِرتَ عند راكبِ السَّفر والقاطن؛ وإنّ القصيدةَ من قصائد (النابغة) لأنفعُ لهُ من ابنتِهِ (عقرب) ولعلّ تِلكَ شانته وما زانته، وأصابها في الجاهليَّة سِباء (....) وإن شِئتَ أنشِدك قصيدتيك، فإنّ ذلك ليس بُمتعذّر عليَّ"[٢]. فيظهرُ الشماخ غير عالمٍ بما يسأل ويقول: "شَغلتني لذائذُ الخُلودِ عن تعهُّدِ هذه المُنكرات﴿إِنّ الْمُتَّقِينَ في ظِلالٍ وعُيُونٍ. وَفَوَاكِه مِمَّا يَشْتَهُونَ. كُلُوا واشْرَبُوا هَنِيئاً بما كُنْتمَ تَعْمَلُون﴾[٣]"[٤].

أما رسالة "الملائكة" فقد اتخذت من الشخصيات التراثية الأدبية (أهل اللغة والنَّحو) وغيرهم، أداة لتأكيد صراعهم وخلافاتهم، وهنا يتمثل الراوي باستدعاء الشخصيّة التاريخية وذكرها.

وجدير بالذكر أن الشخصيّة الرئيسيّة ممثلة بالراوي يتجنب الالتقاء المباشر بأهل اللغة والنّحو وغيرهم، إلا أنه أشار إلى آرائهم المختلفة ولم يناقشهم، ولم يدخلهم في خلافات أخرى جديدة، وكأن الموقع الأخروي (الجنة) لا يسمح بالجدل العنيف وتلك الخلافات الدنيويّة الممتدة.

وبما أن الرّسالة تقوم على رحلة إلى عالم الآخرة، فإن المعري يحرص فيها على التخلص من صور العجز، وما يحيط بها من أصوات الفكر المهزوم، ويتخذ صوتاً واحداً يدل على احترام الراوي (المعري) لجهوده التي قدمها في خدمة علم اللغة

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٣٨.

[٢]- نفسه، ص٢٣٨.

[٣]- المرسلات آية (٤١-٤٣).

[٤]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنّحو، ففي أحد المشاهد يظهر المعري مع جماعة من الأدباء (دون ذكر أسمائهم) على باب الجنَّة يتوسلون إلى رضوان أن يبعث إليهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، ويمثل حضوره في الجنة دوراً فاعلاً فهو الصوت المتفرد بين النحاة الذي يظهر صريحاً واضحاً، ويقطع الجدل الدائر؛ فعلم النحو والصرف تحول وجودهما وقضاياهما المتعددة إلى غياب في عالم الآخرة، واللغة رُفع عنها كل خطأ ووهم، كما أنّ كلام أهل الجنَّة كان العربية التي لم يُصبها تغيير أو تبديل، يقول الخليل منهياً الخلاف:

"إنّ اللهَ جلّت قدرتُه جَعَلَ مَنْ يَسْكنُ الجنَّة مِمّن يتِكلمُ بكلام العربِ ناطقاً بَأفْصح اللغاتِ كَما نَطق بها يَعرُبُ بنُ قحطان أوْ معدُ بنُ عدنان وأبناؤه لصُلْبِهِ لا يُدْركهم الزَّلل ولا الزَّيغ وإنّما افتقر الناسُ في الدَّار الغرارة إلى علم اللغةِ والنحو لأنّ العربية الأولى أصابَها تغييرٌ، فأمّا الآن فقد رُفعَ عن أهلِ الجنَّةِ كلُّ الخطأ والوهم، فاذهبوا راشدين إنْ شاءَ اللهُ"[١].

أمّا الخليل بن أحمد الفُراهيدي في "الصاهل والشاحج" وعلم العروض ومصطلحاته، فتجيء الإشارة إليهم متتابعة من بُداءة النص إلى نهايته، وكأنه طريقٌ للعودة من حيث ابتدأ المعري، لتضيف دلالات رمزية ما انفكّ عنها النّص، ذلك الساسة اختاروا الشعر وتركوا الاهتمام بالسيف والقنا السُّمر، ولعلَّ توظيف العروض ما كان إلا على سبيل السخرية والتهكم والتلغيز، ومن ذلك الحديث عن السلطان:

"وإقبالُ السُّلطانِ –أطالَ اللهُ بقاءَه– يُلقِي في نفسِ العدو أنّه إنْ خَرج ولّى سريعاً فقُفّيّ، وصُرّعَ، وكُشِفَ وصُلِمَ، وهذه أشياءُ ألغز بها من ألقابِ الشعرِ، لمْ تَكن مضتْ فيما تقدَّم".[٢]

---

[١]– المعري، رسالة الملائكة، ص٤٥.

[٢]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٦٩٢–٦٩٣. التصريع: هو البيت الذي ساوت فيه قافية العروض الضرب وزناً وروياً وحركة إعراب؛ الصلم: هو حذف الوتد المفروق من آخر الجزء؛ الكشف: علة مفردة وهو حذف المتحرك في آخر الوتد المفروق من آخر التفعيلة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يأتي على فك مصطلحاته الملغزة التي تكشف عن شخصيّة العدو الانهزامية بخوفها الداخلي وفزعها الخارجي بالاستعانة بالعروض، يقول:

"فقلت: ولَّى سريعا، لأنّ في الشّعر وزناً يقالُ لهُ السّريعُ، قُفِّي، أي تُبِعَ، وصُرِّع من تصريع القتلى...، وكُشِفَ العدو، إذا انهزم، والصَّلَمُ من قولِك صُلِمَ، واصطُلِم إذا استُؤصِلَ".[١]

ويستمر في السخرية من عزيز الدولة مستخدما مصطلحات عروضية رمزية إيحائية، ويكون توظيفه للعروض أداة تعبيرية عن الواقع المعيش، ويُحمّل تلك الشخصيات مدلولات المرحلة التاريخية المعيشة وتسير في خط بنائي واحد، مما يحدث تفاعلاً والتحاماً بين قهر السلطة والعروض، يقول عن قوة مصطنعة لعزيز الدولة على عدوه:

"ويَقبِضُ السّيد عزيزُ الدولةِ- أعزَّ اللهُ نصرَه -يدَ عَدُوّه أن تَنبَسِط، كما قُبِضَتْ عَروضُ الطويل. فلم يُنشْرها أحدٌ من الفُصحاءِ المتقدمين، ولا نشرها أحدٌ من فحولِ الإسلام... والقبضُ سقوط الخامس، ويجوزُ أن نعنِيَ بهِ قَبْضَ النفس، مِنْ قولِك: قبض اللهُ رُوُحَه".[٢]

وقد تتوسع الدائرة الدلالية التي يوحي بها النص، فالمعنى الظاهر للنص يعبر عن الأمل بسياسة عزيز الدولة وانتصاره على عدوه، أمّا المعنى الإيحائي فيعبّر عن الضيق بالتخبط السياسي، يمتلئ النص بالطاقات الدلالية، وهنا تأتي صورة للعدو مستعينا بعلم العروض بأسلوب ملغز مثير للسخرية، يقول:

"ولَوْ نَزلَ خَميسُهم بحيث يظنُّ المرجِفون، وهو وافرٌ كاملٌ، لرأيتَ الطويلَ العاتر مدَيداً فيهم، والخفيفَ المقبوضَ بسيطاً إليهم، فكثر المتقاربُ عند ذلك بينهم، وسمِعوا الهَزَج والرَّجز، فعجزوا عن الرَّمل والمضارع له في تلك السَّاعةِ، وكان السريعُ

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٦٩٣.

[٢]- نفسه، ص٥٨٣-٥٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمنسرحُ عندهم محمودين بهم، وظلَّ جيشُهمُ مجتثا وعميدُهم، مقتضَباً، واستغنَى بما أخِذَ منهم الخليلُ، وحَمِلَ جهازُهم على العَروض، وكثر فيهم المُقيِّد وقلّ المُطلقُ"[١].

ج-الجماعات في المجالس:

تسهم أساليب التصوير المختلفة في الكشف عن ملامح الشخصيّة الفكرية والنفسية والمادية، كما عمد إلى تصوير الشخصيّة بحركتها وحوارها وفعلها، وإذا كانت الشخصيّة الأدبية هي أساس رسالة الغفران، فقد اقترن وجودها عادة في جماعات كثيرة لا مشتتين متفرقين، وتتجلى في هذه المجالس أجواء من الأنس، وغالباً ما تطرح فيها التجارب الفكرية والاجتماعية، ولذلك طال الحوار بين المجتمعين، وتوحي تلك المجالس بالبعد عن السأم والملل، وتمنح التجدد بعرض تلك القضايا المتصفة بالاختلاف والتنوع مما يودي أحيانا إلى التنازع أو الانسجام.

وقد كان للصوت دور فاعل في تحريك السرد القصصي كما للحركة، فانتقال ابن القارح في الجنان كان محركاً سردياً أو مفتاحاً لأحداث عديدة، فالمجالس المنعقدة والمنادمة بين شخصياتها أتاحت للسرد أن يتسع، فظهر الإنشاد ممثلا بالمفاخرة والهجاء أحيانا، وابن القارح وسط هذا المجموع يبدو دائما في مقابلة مع الأدباء ومواجهة، ويسهم المجلس في إعلاء صوته، فالمجلس الذي اجتمع فيه النابغتان وعدي وغيرهم من الشعراء، ينتهي إلى صراع محتدم، فيقول ابن القارح محاولاً الإصلاح بينهما (أي النابغة الجعدي والأعشى): "يجبُ أن يُحْذرُ مِنْ مَلَكٍ يعُبرُ فيرى هذا فَيرفعُ حديثه: إلى الجبَّار الأعظَم، فلايَجرُّ ذلك إلا إلى ما تكرهان".[٢]

وفي المجلس عادة ما يحتشد عدد هائل من الناس، ففي مجلس آخر يجتمع فيه كل فقاعي الجنة (الفقاع: شراب من الشعير سمي بذلك لما يعلوه من الزبد) من أهل العراق والشام والولدان المخلدون يحملون السّلال، فيسألُ أهلَ العلم فيكونُ السؤالُ محفزاً للسّردِ كعادةِ ما جرت عليهِ الرسالةُ: ما تُسّمى هذه السِّلال بالعربيةِ؟ فيُرمُّون –

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٥٤٧.

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي يسكتون- ويقول بعضهم: هذه تُسّمى البواسن، واحِدَتُها باسِنَةٌ، فيقولُ قائلٌ من الحاضرين: مَنْ ذكرَ هذا من أهلِ اللغةِ؟ فيقولُ: -لا انْفَكَّت الفوائدُ واصلة منه الجُلساء- قد ذكرها "ابن درستويه"[١] وهو يومئذٍ في الحضرةِ".[٢]

وقد اجتمع في تلك المجالس أو الجماعات أصحاب التخصص في الجنس الأدبي كالنحاة أو الشعراء أو أصحاب العاهة الواحدة كعوران قيس، وقد انبنى مجلس الشعراء على الأسئلة الأدبية المتتابعة، فسؤال ابن القارح للبيد: "أخبرني عن قولك (من الكامل):

تَرَّاكُ أمكِنَةٍ، إذا لم أرْضَهَا أو يَرتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمَامُها"[٣]

ثم الأسئلة التي يطرحها نابغة بني جعدة على أبي بصير حول الرباب التي ذكرها في شعره وهي التي ذكرها المخبّل السعدي، ثم إجابته الاستنكارية: "أما عَلِمْت أنّ اللواتي يُسمين بالرَّباب أكثرُ مِنْ أنْ يُحصين؟"[٤] ثم مرور حسان بن ثابت وأسئلة الجماعة في المجلس له: "ألا تُحَدِّثُ معنا ساعة؟"[٥] و"أين هذه المشروبة من سَبيئتكَ التي ذكرتَها في قولِك؟

كأن سبيئة من بيت رأسٍ يكون مزاجها عسلٌ وماءُ"[٦]

ثم ما يعرض لابن القارح أن يقول له: "كيف قُلت يا أبا عبدالرحمن: أيكونُ مِزاجُها عَسَلٌ وماءٌ، أم مِزاجُها عسلاً وماءٌ، أم مِزاجُها عَسَلٌ وماءُ، على الابتداء والخبر ؟".[٧]

---

[١]- ابن دستوريه: هو عبدالله بن جعفر بن محمد بن دستوريه بن المزربان، من علماء اللغة، اشتهر في بغداد. (السيوطي، بغية الوعاة ٢٧٩؛ النديم، الفهرست ٦٣/١؛ الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ) تاريخ بغداد ٤٢٨/٩).

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٨٠-٢٨١.

[٣]- نفسه، ص٢١٦. ورد البيت في شرح القصائد العشر التبريزي، ص١٥٥، وفي مجالس ثعلب، ٥٠/١.

[٤]- المعري، رسالة الغفران ، ص٢٢٧.

[٥]- نفسه، ص٢٣٤.

[٦]- نفسه، ص٢٣٤.

[٧]- نفسه ، ص٢٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد أن يفترق ذلك المجلس الذي أقام كعمر الدنيا أضعافاً يلتقي ابن القارح بالعوران على خمس أينق ويتصفون بجمال مميز لعيونهم، وينفتح هذا الجمال على فضول واضح من ابن القارح.

ويتصف حضور الشعراء في الجحيم بالوحدة والعزلة والانفراد، فالمجالس ترتبط في ذهن المعري بالحياة وما فيها من ترف ولهو ومتعة؛ لذا ارتبطت بالغناء وحضور القيان الراقصات، أما عزلة أهل الجحيم من الأدباء فتفسر بالبعد عن أصناف المتعة صغيرها وكبيرها، لإحساسهم الدائم بالخلود في العذاب، مما ساعد في إطالة السؤال الذي يطرحه ابن القارح حول أدبهم الخاص الذي يجمع بين الماضي والحاضر، والإجابة قد تطول لإحساسهم أن الصوت أداة تخفيف من وطأة النار، كسؤال ابن القارح لأمرئ القيس المتتابع الواضح " فيقولُ: أخبرني عن قولك:

كبكرِ المقاناةِ والبياضِ بصفرةٍ"

ماذا أردت بالبكر؟ فقد اختلفَ المتأوِّلونَ في ذلك فقالوا: البَيضةُ، وقالوا: الدُّرةُ، وقالوا: الرَّوْضَة، وقالوا: الزَّهرةُ، وقالوا: البَرْديّة.

وكيف تُنْشِدُ: البياض، أم البياضَ، أم البياضُ؟

فيقول: كلُّ ذلِك حَسنٌ، وأخْتارُ "البياض"، بالكسر فيقولُ فرَّعَ اللهُ ذِهْنَه للآداب: لو شَرَحتُ لك ما قال النّحْويّون في ذلك لعجبت وبعضُ المُعلمِينَ يُنشِدُ قولك (من الطويل):

مِنَ السَّيْلِ والغُثّاءِ فَلْكَةُ مِغزَلِ

فَيُشدِّدُ الثاءَ....فيقولُ- لا برحَ مِنطيقاً بالحِكَم-: فأخبرْني عن كلمتِك (الصادِيّةِ) و(الضاديّةِ) و(النُّونيَّةِ) التي أوَّلُها (من الطويل):

لِمَنْ طَلَلٌ أبْصَرتُه فشَجاني كَخَطِّ زَبورٍ في عسيبِ يمانِ؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد جئت فيها بأشياء يُنكِرُها السَّمعُ كقولك (من الطويل):

فإنْ أَمْسِ مَكْروباً فَيارُبَّ غارَةٍ شَهِدْتُ عَلى أَقبَّ رخوِ اللَّبَانِ

في أشباهِ لِذلك، هل كانت غرَائزُكم لا تُحِسُّ بهذهِ الزَّيادةِ؟ أم كنتمْ مَطْبُوعينَ على إثْيانِ مغامِضِ الكَلام وأنتم عالمون بما يقعُ فيه؟.. ، فيقول أمرؤ القيس: أدْركنا الأوّلينَ من العَرب لا يَحْفِلون بمَجيءِ ذلك، ولا أدري ما شَجَنَ عنه، فأمّا أنا وطبَقتي فكنّا نَمُرُّ في البيتِ حتَّى نأتي إلى آخره، فإذا فَنِيَ أوقارب تَبَيَّن أمرُه للسامع"[١].

أو قد تقصر إجاباتهم لظنهم أن الصوت لا يجدي في تلك اللحظات؛ فالندم ظاهر بالارتداد إلى الماضي أو يتجاوزون جوهر الفكرة، فهم يتهربون، لذلك أظهر ابن القارح سأمه منهم لسلبيتهم في ردودهم، يقول المعري واصفاً ابن القارح في نهاية رحلته إلى جهنم:

"فإذا رأى قِلة الفَوائد لديهمْ، تَركهم في الشَّقاءِ السَّرمد، وعَمَدَ لمَحلّهِ في الجنان"[٢].

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٣١٤- ٣١٥ -٣١٧. البيت ورد في ديوان امرئ القيس، ص٦٥، ص٩٣.

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص ٣٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

بناء الشخصية ودور عناصر السرد

أولاً: البناء الخارجي

وجدير بالذكر أن نثر المعري حفل بالتركيز على النواحي النفسية والفكرية للشخصيات، ولم يركز كثيراً على التفاصيل الجسدية لها، إلا أنه أيضاً عني ببعض الملامح الخارجية التي تمثلت في:

أ- لفظة الشيخ[١] في تقديم شخصيّة ابن القارح:

تُعدُّ السخرية المبطنة من شخصيّة ابن القارح مرتكزاً أساسياً، لذا سعى المعري إلى تقديمها بشتى الطرق جاعلاً من البعد الجسميّ أيضا مرتكناً، فبدا شيخاً كبيراً، وسنّه بعيدة عن سِنِّ أهل الجنَّةِ، لذا بدا غريباً بينهم، كما ارتكز على البعد النفسيّ حينما وجدناه يخضع لأهوائه ورغباته، وكشف حواره الداخلي عن نزاعات مكبوتة في داخله ذات صلة مباشرة بمظهره الخارجي الدنيوي، مما يتعارض مع صفات أهل الجنة من صفاء ونقاء، فأعمال ابن القارح تنبع في صميمها من حياته الدنيوية الممتدة إلى الحياة الآجلة، وخاصَّة موقفه من المرأةِ، وإذا أراد المعري تمييز ابن القارح لمعرفته وعلمه، فإن ذلك بعيد عن جوّ الجنّة الذي يظهر من فيها في سِنِّ الثلاثين من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- كما أنه يتعارض مع حرص المعري على السخرية منه في أكثر من موضع.

وغير خافٍ ما للتكرار في لفظة شيخ من فاعلية، فيكون حميم الصلة بذات المتحدث عنه، كما تكشف عن الحالة النفسية المسيطرة على ابن القارح أثناء رحلته بين الجنّة والنار، فبعيداً عن دلالة الكلمة الدينيّة، تشتمل على تعاظم سخرية المعري من ابن القارح في دينه ومنهجه ووضعه الاجتماعيّ.

---

[١]- والشيخ: من أدرك الشيخوخة، وهي غالباً عند الخمسين، وهو فوق الكهل ودون الهَرِم أو ذو المكانة من علم أو فضل أو رياسة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هنا فإنّ التصوير الجسديّ لابن القارح الشيخ الطاعن يعكس منهجاً سلوكيّاً أخلاقيّاً انتهجه في حياته، فوصفه بالشيخ في الجنان يُعدُّ امتداداً لسوء أخلاقه قبل ذلك؛ إذن فمظهره الخارجي وصفاته لا تؤهلانه لدخول الجنة أو البقاء فيها، فهو كان في مكان ما ينبغي لأمثاله التواجد فيه.

وهكذا فإن اهتمام الراوي بوصف ابن القارح بتلك الصفة كان مبالغاً فيه، ويمتزج فيه، تقديمه ويتيح له دخول أعماقه النفسيَّة وكأنه دخيل متطفل. ومن ذلك وصف الراوي له في تصرفاته المختلفة في غير مشهدٍ يقول:

"وينظُرُ الشَّيْخُ في رياضِ الجنَّة فيرَى قصْرين مُنيفَينْ، فيقولُ في نفسِه: لأَبْلُغَنَّ هَذين القَصْرَينْ، فَأسَأَلَ لِمَنْ هُما"؟[١].

و"فُيقولُ الشَّيْخُ: يا أبا سَوادة"[٢]، "فيقولُ الشَّيخُ: أحسنتَ واللهِ أحسنت"[٣]. والأمثلة على تكرار تلك اللفظة كثيرة جدا[٤].

ب-تغييب عزيز الدولة:

يمثل عزيز الدولة شخصية السلطة السياسية، إلا أن سلطان التباين كان قد تحكم في بناء شخصيته، فطالما أن الأحداث تتعمق في الحاضر، ولا تتفاعل الشخصيات إيجابياً معها؛ وبات فعل المقاومة مستحيلاً لسيطرة مظاهر التخاذل وضبابية الرؤية والشك لدى الحيوانات، لذلك غيّبَ المعري البطل السياسي باللجوء إلى الأسلوب التقريري فهو يصف أحوالها ويقدم أفعالها دون ظهورها، فعزيز الدولة كان واضحاً جليا ويختفي وراء معظم الأحداث، إلا أن هذا التجلي كان على ألسنة الحيوانات ولئن كان كذلك، فإنه غائب عن الحديث والتكلم، فحضوره استحضار للحظة معتمة غرضها إدانته لسوء تصرفه إزاء الواقع، فهو الغائب الحاضر، وهنا تظل شخصية عزيز الدولة

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص١٨١- ١٨٢.

[٢]- نفسه، ص١٨٦.

[٣]- نفسه، ص١٨٩.

[٤]- نفسه، ص١٩١-١٩٧- ٢٠٩ وغيرها أيضا..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذات مغزى واحد وتؤدي الدلالة نفسها فهي جامدة وباهتة، فحين يتعلق الأمر به، تظل مشدودة لتصرفه، فالثناء المتكرر يدل على عدم انسجام هذه القالة مع الشخصية، إذ تبين الأحداث سلوكها ونمط عيشها، فبدت متهالكة على الشعر، كما لا تتأثر بحركة الأحداث من حولها فهي معزولة يُتحدث عن تصرفها، فالصاهل يذكر أن ادعاء الشاحج معرفة الشعر يجلب له المتاعب والسخرية من الآخرين ذاكراً مجالس عزيز الدولة وما فيها: "وهذا الأميرُ– أعزّ اللهُ نصرَه– الذي أومأتَ إليه، عارفٌ بغوامِض القريض، فإنّما يحَملُ التمرُ من حَضْرتِه إلى "هَجَر"[١] وتُهْدَي الزّهرة من مجلسِه إلى الرَّوضة العميمة، ويُسافَرُ بالنُّغبةِ مِنْ علمِه إلى البحر الزاخر. وما أغناكَ أيُّها البائسُ أن يُضحَكُ منك في الآدميين، وأن تصيرَ هُزْأةً في جِنْسِك"[٢].

إنّ الشاحج وغيره من الحيوانات دائم الحديث عن فضل عزيز الدولة، إلا أن الوصول إليه يبدو في غاية الصعوبة، فالهالة التي أحاط بها نفسه تحول دون وصول العامة إليه فهم لا يخالطونه ، وتجلى هذا الأمر في صعوبة وصول الرسالة إليه والاقتراب من بلاطه.

وهذه الشخصيّة المحكي عنها بضمير الغائب (غائبة) تبدو عاملا محركا للأحداث، ويأتي الحديث عنها بأسلوب مبطن، لذلك فإن خصوصيتها تكاد تفتقد لبيان انعدام قوة الفعل، فالشاحج ينفي دور الساسة، فلا يفجرون طاقتهم في عمل مفيد للرعية، وإنما ترتفع أيديهم وتوضع في يد العدو، فالشاحج يتحسس هموم أمته وقضاياها، وضمن هذا المضمار فإنّ عزيز الدولة لا يختلف حاله عن الرعية، فهو منشغل بمجالس الشعر واللهو عن أداء وظيفته الأساسية وهي الدفاع عن المعرة حين اجتمع عليها الأذى من عدو خارجي، يقول في ضرورة اعتماد أهل المعرة على قوة عزيز الدولة بأسلوب مبطن أيضا: "ويَتَّكِلون، بَعْدَ اللهِ العظيم، على سياسةِ "السِّيد عزيز الدولة أمير الأمراء"–أعزَّ اللهُ نصره– فإنه شَرَّابٌ بإنقاع! قد آلَ وائلٌ عليه، وركب الصعبة والذَّلولَ، وطعن بتامٍّ وقصير، وضرَبَ العدُوّ بالجُراز بعد الجُرَاز، ونزع في

[١]– هجر: اسم لعدد من البلدان: البحرين، نجران جازان، (الحموي، معجم البلدان، ج٢/٣٩٣).

[٢]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص١٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العاصيةِ والمطيعةِ، ... فَمثلُــه – أعــزُّ اللهُ نَصْــره- مَثَــلُ السَّــيفِ الصــارم تجــده علــى الوحدة أهيب من النَّبْل الزائدةِ في العدّة..."[١].

ج- الأسماء وسيلة لتقديم الشخصيّة:

تُعدُّ التسمية شكلا من أشــكال التشــخيص[٢]، وبــالرجوع إلــى القــيم الدلاليــة التــي يمنحها الاسم، بتعريف الشخصيّة، فــإن المعــري يتعامــل مــع أســماء شخوصــه بطــرق مختلفة، فهو مثلاً لا يعطي أسماء للزنادقــة، وفــي ذلــك تنكيــر لقيمــتهم أخلاقيــاً أو دليــل على كثرتهم، إذ أضحوا ظاهرة واضحة، أما بعضهم فقــد كــانوا يمتلكــون أســماء غريبــة "كشاباس"[٣] الذي يوحي اسمه بغرابــة مــا دعــا إليــه، أو بغرابتــه عــن البيئــة العربيــة، والمعري عادة ما يلجأ في ســرد أخبــار الزنادقــة إلــى ذكــرهم بإمــام المعتزلــة، وإمــام الشيعة، وأحد زعماء القرامطة[٤]، وهكذا.

وقد يكون اختيار أسماء الشخصيات بطريقــة معبــرة، تحمــل عــدداً مــن الــدلالات المعجمية والنفسية والجسدية، فحينما تحدث فــي "الغفــران" عــن ابــن الرومــي وتطيــره، جاء بحكاية تدّل على طبيعة العربي الذي يأخذ بنصــيب مــن دلالــة اســمه، فــأورد حكايــة امرأة قالت للأخرى:

"سَمّاني أبي "غاضية"، وإنّما تِلك نارٌ ذاتٌ غَضَى، فالحمــدُ لربِّــي علــى مــا قضــى، وتزّوجت من "بني جَمَرة" رجلاً أحْرق، وما أمْــرق – أي لــمْ يَكثُــر مَرَقُــه- وكــان اســمُه "توْرَبَاً" وإنّما ذلك تُرابٌ، فَشمِتَتْ بي الأترابُ، وكانَ أبوه يُــدعى "جَندلــة" فَعَضضْــتُ عِنــدَه بالجَنْدل. ما شمَمتُ رائحةُ مَنــدلٍ، وكــان اســمُ أمِّــه "سَــوّارةَ" فلــم تــزلْ تُســاورَني فــي الخصام، ولا تَنْفعُني بعصَام.

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٤٣٢-٤٣٣ الجراز: السيف القاطع (ابن منظور، لسان العرب،: مادة جرز) وأنظر كذلك الصفحات الآتية فهي تتحدث عن عزيز الدولة ٨٣-٨٤، ٨٥، ٩٥، ١٦٤، ١٨٩، ٢١٩، ٣٤٦، ٤١٥، ٤٤٦، ٥٢٠، ٥٨٧، ٦٦٤، ٧٠٢، ٧٠٩.

[٢]- ويليك، رينيه، ، وأوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، ص٢٩.

[٣]- المعري، رسالة الغفران، ص٤٩٤.

[٤]- نفسه، ص٤٦٦- ٤٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقالت الأخرى: لكن سمّاني أبي "صافية" فصفوتُ مِنْ كلِّ قذى، وجُنّبتُ مواقعَ الأذى، وزوّجني في "بني سعدِ بن بكرٍ" فبّكر عليَّ السعدُ. وأنجزَ لي الوعدُ. واسمُ زوجي "مُحَاسِن" جُزيَ الصالحة، فقد حاسَنَ وما لاسَنَ، واسمُ أبيه "وقاف" رعاهُ اللهُ فقد وَقفَ عليّ خَيْرَه. وأكثرَ لديّ مَيْرَهَ، واسمُ أمِّه "راضية" رَضيتْ أخلاقي، ولمْ تجْنحْ إلى طلاقي"[١].

أما أسماء الشخصيات في رسالة الغفران من الأدباء وعلماء اللغة، فهي أسماء حقيقية مستقاة من واقع الشخصيّة التاريخية، إلا أن المكان يعمل على تغيير دلالة الصفة التي تنتظم تلك الأسماء، ففي تلك الأجواء تظهر علاقة الصفة الملتصقة بالاسم بمفارقة عكسية واضحة، فالأعشى ميمون يمتلك بصراً حاداً، وعوران قيس يتفردون بعيون جميلة قوية الإبصار، ومن غير الأدباء شخصيّة توفيق السوداء التي أصبحت بيضاء كالكافور، فيتبدى أن دلالة الصفات قد تغيرت تغيراً عكسياً، وأصبحت تحمل بعداً جديداً ينأى عن المعنى الأول لتتناسب مع المكان.

وقد تكون الأسماء غريبة تنسجم والمسمى بها من مخلوقات لا نستطيع رؤيتها، ومن ذلك أسماء الجن في رسالة الغفران كبني الشيصبان (أي الخيتعور) ومسحل في رسالة الشياطين وغيرهم.

ويتخذ من الدلالة المعجمية أحياناً أخرى للاسم وسيلة للحط من قيمة أحدهم والتشويه استجابة لروح السلطة القائمة كما في اسم الوليد، يقول المعري في (الغفران) تعليقاً على الخليفة الأموي الوليد بن يزيد "فكانَ عقلُه عقلَ وليدٍ. وقد بَلَغ سِنّ الكَهلِ الجليد، مَا أغْنَته نيةٌ سابجةٌ، ولا نَفعِت البُنابَجة. وشُغِلَ عن الباطيةِ. بجريرةِ النَّفَس الخاطئة، دحاهُ إلى سَقَرداح..."[١]. وينم هذا على موقف المعري من خلافة الوليد بن عبدالملك!

---

[١]- المعري، رسالة الغفران ، ص٤٧٩.

[١]- نفسه، ص٤٤٣. نية سابجة: ذات جلد قوية (ابن منظور، لسان العرب، مادة سبج)، بنابجه: وعاء من ذهب (نفسه: مادة بنج)، الباطية: إناء من ذهب يملأ من الشرب (نفسه، مادة بطي).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ارتكز المعري في (الصاهل والشاحج) على اسم عزيز الدولة؛ لأن الواقع الذي يرصده المعري يموج بشتى المتناقضات، وأصبح فيه "عزيز الدولة" سيد المجموع وما عداه من سواد الناس لا وجود لهم، ولا يخلو لقبه من مفارقة فهو عزيز، إلا أنه لا يوفر تلك العزة للرعية فلا تتنعم بها.

وضمن السخرية الهادفة رمزية الأسماء ودلالتها، ويبدو أن توسل الراوي بهذا الأسلوب هو أقرب في إصابة الهدف المنشود، فالسخرية تنبيه، وقد يكون الاسم في (الصاهل والشاحج) وسيلة سخرية واستخفاف، إذ إن الخطاب المتكرر عن الحيوانات يشي أن هؤلاء السادة ليسوا بشراً، وأنهم فوق مستوى البشر، وأن الله خصّهم بالدعم والتأييد والتمييز والتفرد في كل شيء، إلا أن هذه المبالغة وهذا التهويل ما هما إلا إقرار حقيقي للتهوين من شأنهم وتعليق على سوء تصرفهم، فالشاحج يفرد في حواره تعليقاً على أسماء رجالات الدولة الذين تحكموا في الأمر معطياً لكل لقب دلالة إيجابية في الظاهر تخفي باطناً مستهتراً بهؤلاء، فهم يحملون ألقاباً مفزعة في ظاهرها مفرغة من مضمونها "فعزيزُ الدولةِ" عِزٌّ في الرواح والغُدُوِّ، و"فاتِكٌ" فَتكٌ بالعدوّ، وخادمُه "صائنٌ" مِنْ صيانةِ الحريم، وكاتبُه صدقة فتلك صدقة من كريم و"أبو نصر" نُصِرَ به مغلوبٌ و"الفلاحِي" أفلحَ صاحبٌ ومصحوبٌ".[١].

أما أبطال الجفلة فقد كان مجتمع معرة النعمان كاملا، وهؤلاء جميعهم خلا وصفهم من إعطاء ملامح خاصة مميزة، لذلك فقد كان وصفهم جماعياً؛ ذلك أن الحدث المفاجئ (الجفلة) قد أصاب الجميع دون استثناء، كما أن استجابتهم انهزامية، والشاحج وظف كل أدواته اللغوية ليسخر من الخوف الذي أصاب الرعية، فالأحداث تترى بفعل حركة الشخصيات وما أصابهم من هلع، واهتزت العلاقة بين تلك الشخصيات والمكان، فيجعلون من الهرب والحركة والفوضى وسيلة للتخلص من فعل القتل والإساءة، إلا أنهم يواجهون في فرارهم ما هو أسوأ من ذلك الخزي والندم والاضطراب، ولذلك راح المعري يتحدث عن أركان المنظومة الاجتماعية رجالاً ونساءً وأطفالاً دون أن يخص واحداً بعينه، فالدلالة عامة تنسحب على كل من شملته الجفلة.

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٦٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا لجأ المعري إلى تغييب التسمية عن الشخصيّة أو تجريدها، ويحمل هذا الأمر بعداً دلالياً قيماً لاتصال تلك الشخصيّة في تصرفها بالجماعة كما في الجفلة، فشخصيات الجفلة كما هو واضح مستقاة من الواقع، وتحمل تلك الشخصيات الاجتماعية العمومية، فالمرأة فيها تنسحب على كل النساء وما أصابهن في الجفلة، وكذلك الرجل والطفل وحتى الشيخ الكبير وأصحاب الحرف والمهن، فقد كانت شخصيات معرة النعمان تكشف عن مأساة الواقع في منعطف تاريخي، ويأتي وصفهم جماعيا دون ذكر لأسمائهم:

"ورُبَّما رأيتَ الجماعة الكثيرةَ وهم لقلة البصيرة وطيران الألباب يَجْرُون مَجْرى الفذِّ من الرِّجال"[١]. "فأمّا الوادع فإنَّه إذا عَصفت به شمالُ الرُّعبِ زفّ رالُه وفُزِّعتْ أجرالهُ"[٢] "وإذا فَجِئت هذه المُلِمّات وغيرُها من المُلمّات، حَسّنتْ للنساءِ ذواتِ الخَفَر أن يتبرجْن ويَجرين في المشي والعملِ مَجْرَى الرِّجال..."[٣] و "إنّ الجهَل ليصنُع بأهلِه أكثرَ من هذا الصَّنيع. أفلا ينظرُ هؤلاءِ القومُ حقيقةَ النظرِ ويُعطون قوسَ الرَّمْي "عَميرَة" وصعْدة الخط "رُديَنة" ، ويؤتون "عَمْراً" الصمصامة، ويُلقُون السَّهْم الأقذ إلى الرائش بطِبَّته"[٤].

وبذلك فإن لكل شخصيّة مهما قلّ عملها ودورها في الأحداث قالة خاصة تقدم بها نوعاً من السلوك ونمطاً من الوعي، ثم إن تلك القالة قد تكون ذات علاقة باسم الشخصيّة أو تغييب التسمية أحياناً. ولعل من أهم الحقائق والقيم الفنية التي يختفي تحتها "الصاهل والشاحج" تكمن في ارتباط دلالة الاسم بالشخصيّة التي تنتظم في علاقة واضحة، وقد يكون الاتفاق أحياناً بين الاسم والشخصيّة لا شعورياً، ومن هنا تبدو قوة العنوان في الصاهل والشاحج، فالقصة المترابطة تعرض لأوضاع معرة النعمان بمختلف شخصياتها ومواقفهم من الجفلة، وتخص قضية "السماع" الذي كان متمثلاً في

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٤٣٨.

[٢]- نفسه، ص٤٣٩. الوادع: المستقر (ابن منظور، لسان العرب، مادة ودع)؛ رالُه: لعابه (نفسه مادة رول)

[٣]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٤٣٧.

[٤]- نفسه، ص٤٣٢. ردنية: اسم لامرأة تنسب إليها القنا والرمح (ابن منظور، لسان العرب، مادة ردن)، الصمصامة: اسم للسيف (نفسه: مادة صمصم)، والأقذ: السهم عليه ريش (نفسه: مادة قذذ).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جو التهديد، وقد اتجه البناء الفني لترجيح صوت الشاحج والإعلاء منه؛ فالشاحج استغنى عن حاسة الإبصار وأحاطت عينيه عصابة، إيماناً من المعري أن فقد البصر لا يعني شيئا أمام الخضوع للمزاعم والأقاويل، ففعل السماع كما يتضح يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتنبيه دور الدماغ، فلا يقبل العقل ما يقال على شوائبه، بل لابد من تصفيته ومعرفة ما يختبئ وراءه.

وبذلك بدا فعل السماع أساسياً في النص، فدلالة الصوت تتمثل في عنوان الرسالة: "الصاهل من صهل صهيلا، وهو صوت الخيل، حِدّة مع بحة"[١]، والشاحج "من شحج وشحيج وشحاج، وهو صوت البغل"[٢]، فالدلالات الصوتية المهيمنة الأساسية في البنية الفنية للقصة، كما تسهم في انبعاث المغزى الدلالي لها في آن معا.

وهكذا فالسماع عدا وظيفته الأساسية المعروفة بدا المعبّر عن ديمومة الإنسان وثباته ووجوده، فالأذن بخضوعها لسماع الأخبار المكذوبة تعني انجراف المجتمع إلى الانهيار والتلاشي والضياع، وشخوص معرة النعمان كما تأكد من تعاملهم مع الأحداث الرئيسية تخضع للأقاويل وللإشاعات، وتغير المكان وتهرب، وكل ذلك لخبر سمعوه ولم يتأكدوا من حقيقته، ولا يخفى أيضا دورهم المتواصل في التهويل، يقول المعري واصفا المبالغة في أقوالهم: "ولعلَّ هذا الغرابَ المصغرَّ في قولِ العامةِ، يَعْظُمُ فيصيُر عُقاباً إنْ شاءَ الله".[٣]

وقد يكون لذكر بعض الأسماء دلالة خاصة حينما يرتبط بالنبي – عليه السلام– وتبيّن هذه الروايات آدابا خاصة بالتسمية. فالنبي كره غير اسم لدلالته السلبية ومعناه القبيح، ومن ذلك، يقال إنه "وُلِدَ لِرَجُلٍ مَوْلودٌ في زمانهِ فقالَ: "ما سَمّيتُم مولودكم؟". فَقالوا: الوليد: فَكِره ذلك وقالَ كلاماً معناه: "لا يزالون يُسمّون أبناءَهم بأسماء الجبابرةِ" يعني "الوليد بن المغيرة" وأنّ فِرعَون كان يُسمّي الوليدَ في بَعض الروايات! ويُقال:

---

[١]– ابن منظور، لسان العرب، مادة صهل.

[٢]– نفسه، مادة شحج.

[٣]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٥١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنَّه، صلّى الله عَليهِ وسلم، سمّيَ :الحُبَاب بن المنذر الأنصاري[١]: عمرا وقال: الحُبَابُ شيطان" ومعنى ذلك أنّ الحُبابَ من أسماء الحيَّات..."[٢].

د- الدعاء وسيلة لتقديم الشخصيّة:

لكل خطاب منطقه ونسقه الداخلي الذي ينسجم في نهاية المطاف مع الشخصيّة بفكرها وتجربتها، فكل ما يتعلق بوعي هذه الشخصيّة وسلوكها حاول أن يصوره المعري، وقد كان الدعاء أحد الأساليب التي استعان بها لتقديم غير شخصيّة، وخاصّة شخصيّة ابن القارح حينما تناول الراوي تصرفها إزاء موقف تمّ أمامها، أو حينما يسمح لها أن تُعبّر عن رأيها، ومن ذلك مثلاً:

"وكأنّي به -أدام اللهُ الجمالَ ببقائه-"[٣]، فيقولُ الشيخُ -حسَّنَ الله الأيَّامَ بطول عُمْرِهِ-"[٤] "ثمّ إنّه -أدامَ اللهُ تمكِنَه-"[٥] "فإذا سَمعَ الشَّيخُ -ثبَّتَ الله وطأته-"[٦] "قالَ -كتَّ اللهُ أنفَ مبغضِه-"[٧] "فيقولُ -أرغم اللهُ أنفَ شانئه-"[٨]، "فيقولُ -لافتِئَ خَصْمُه مُفْحَماً-"[٩] "وهو- زيّنَ اللهُ الآدابَ ببقائِه-"[١٠]، "فيقولُ -لا زال مِقوَلاً للخير-"[١١] فيقولُ- لا انفكّت الفوائد واصلة مِنّه الجُلساء-"[١]

ويبدو أن تلك الأدعية بلغت حداً كبيراً؛ ذلك أنها أسهمت بشكل واضح في تقديم الشخصيّة، إذ ترتبط تلك الجمل ظاهريا بالدعاء لتلك الشخصيّة. وعلى الكثرة التي

---

[١]- الحُباب بن المنذر الأنصاري من بني كعب، شهد بدراً، ومن الذين كانت لهم كلمة بوم السقيفة (العسقلاني، الإصابة، ج٢/١٠).

[٢]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٥٠٧.

[٣]- المعري، رسالة الغفران، ص١٦٨.

[٤]- نفسه، ص١٧٢.

[٥]- نفسه، ص١٧٥.

[٦]- نفسه، ص١٨٦.

[٧]- نفسه، ص٢٠٤

[٨]- نفسه، ص٢٠٥.

[٩]- نفسه، ص ٢١٦.

[١٠]- نفسه، ص٢٣٦.

[١١]- نفسه، ص ٢٤٠.

[١]- نفسه، ص٢٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توخاها المعري في تلك الأفعال الدعائية إلا أنها متنوعة ولم يكرر استخدامها إلا مرة واحدة في موضعين. ممّا يُدل على اعتنائه بها أشد العناية فهي عادة ما ترافق شخصيته الأساسية في الغفران، والمعروف أن تلك العبارات تضفي شيئاً من الخصوصية لأديب كبير في السن، إلا أن المعري في حقيقة الأمر يفتقد في ابن القارح حس الشعر والشاعر المجيد، أو لإشباع الغرور لديه، فهو دائم الادعاء بمعرفة العلوم، وفي ذلك إذاً سخرية من إحساسه بأنه فوق الجميع مدعياً المعرفة بصنوف العلوم والمعارف، وخاصة مسائل الأدب، لذلك جعل عبارات الدعاء مرافقة دائمة له، وكأنها جملة تنبيهية إشارية، يقول فيها المعري انتبهوا إلى تصرفه في هذه اللحظة، وانتبهوا إلى معارفه وردة فعله، وكل ذلك جعله مستندا إلى الدعاء الذي أثرى به الرسالة.

والجمل الدعائية عادة تتبع فعل السرد الذي يصف فيه تصرف ابن القارح في الجنة، كما تمثل في وقفة تفصيلية لأفعاله وأقواله، وتؤكد أن موقف المعري من ابن القارح ثابت غير متحول، مما يمنح النص ثباتاً وتماسكاً غير منقطع وتناغما في إصراره.

ويُعدُّ الدعاء أيضا من الأساليب التي برزت في رسالة "الصاهل والشاحج"، فقد أكثر منه المعري، والشاحج بالدعاء يصل إلى الحضرة، وتدخل تلك الجمل الدعائية ضمن السخرية الهادفة المقرونة بالتزلف، من مثل: "أعزَّ اللهُ نصَره"[١]، "وخَلّدَ اللهُ أيامه"[٢] و"أدامَ اللهَ عِزه"[٣] و"أطالَ اللهَ بَقاءه"[٤]، وهي تقترن دائماً بشخصيّة عزيز الدولة، وقد كان لتلك الجمل أثر واضح في شد البناء الفني، والكشف عن التواصل الذهني بين الحيوانات المتحاورة حول شخصيّة عزيز الدولة، إذ تأصلت السخرية في التكرار، فارتباط الشخصيّة بالجمل الدعائية لا يعد اختياراً تلقائياً، فهي مكون أساسيٌّ في صنع الشخصيّة الحكائية.

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٨٣-٨٤.

[٢]- نفسه، ص١٠٤.

[٣]- نفسه، ص٥٢٠، ٥٢٣.

[٤]- نفسه، ص٦٣٩. وانظر الجمل الدعائية ٨٣، ٨٤، ٨٦، ٥٤، ٦٢٩، ٦٣٦، ٦٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو قد يتوجه الشاحج بالدعاء على الجمل ساخراً أو للثعلب مادحاً، يقول في الجمل مستعينا بالمثل:

"وحَرّقكَ الظمأُ ثم صَادَفَك ماءٌ مِلْحٌ، وأكلكَ البُرامُ الطّلْحُ... وغَضِبَ عليك سِنّورُ أهْلِك، ولا ساعَفَكَ بالوصَالِ قِطٌّ"[١].

وكذلك قول الشاحج يدعو للثعلب "... مازلتَ ميموناً من رَهْطٍ مَيامينَ، فَعُمِرَ بكَ ناديكَ...، وسكنَت في أرضٍ كثيرة الوُجُر والدِّحال... وساعَفَتكَ الثُّرمُلَةُ، ولا نَأتْ عن وِجارك سَمَلَة، ومرّت بفِنائك الرَّطانة..."[٢].

ثانياً: بناء الملامح الداخلية:

اهتم المعري بإبراز النوازع النفسية والفكرية لشخصياته، بسلك طرق متعددة وتمثلت في الأساليب الآتية:

أ-التداعي وسيلة لتقديم الشخصيّة:

وجدير بالذكر أن نص المعري يكتسب حركية ما بتعدد الأزمنة وبتفاعل واضح بين الماضي والحاضر؛ مستنداً إلى عناصر عدة أسهمت في تقديم الشخصيات، ومن أهمها: التداعي.

واتكأ الشاحج على هذه الوسيلة في تقديم نفسه ومعاناته الداخلية، وغرضه نفسي ذهني، فهو يعاني حينما وصف طريقة تعامل بني البشر معه، ووصف سلوكهم، وشكا ممن يحيطون به والذين يستعيرونه ليقضوا حوائجهم من عمل إلى نزهة دون مراعاة لمشاعره، يقول واصفا ما فعله المستعير:

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٣٨٠-٣٨٣ (البرام والطلح، ضربان من القراد، وهو القر شام (ابن منظور، لسان العرب،: مادة برم وطلح) السنور: السيد (نفسه: مادة سنر)، القطّ، الحظ (نفسه: مادة قطط).

[٢]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٤١٣-٤١٤. الثرملة: أنثى الثعلب (ابن منظور، لسان العرب،: مادة ثرمل)، السملة: بقية الماء في الحوض (نفسه: مادة سمل)، الرطانة: الإبل التي تحمل من بلد إلى بلد (نفسه: مادة رطن)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"ولا أشعر فيما في الغيوب. لقد لقي أحد الشركاءِ فيّ رجلٌ من جيرانهِ يكرُمُ عليه، فسأله أن يُعيرني وَلدَه كي يركبَ مع الولدان، فأجابه إلى ذلك. فانصرفَ الرجلُ إلى ابنهِ بالحديثِ، وهو من عَرَمَةِ الصبيان. فأوّلُ ما صنَع أنْ استعارَ سَوْطاً مِنْ بعض الناس، فإن عدم ذلك أخذ قَصِيدةً قصيرةً يأمَنُ كسرها عند الضرب.

وبتُّ مُحَدِّثاً نفسي بالخير، حتى إذا كان بين الفَجْرين قبل أن يَضِحَ منهما المُستطيرُ، أحسستُ ببُرَة الرُّتاج تُقرعُ على أهل الدار. فقالوا: مَنْ؟ قال: فُلان بنُ فلان أنجز حُرٌّ ما وَعَدَ. فقالوا: دُوْنَكَ.

فَدَخَلَ فَحَلَّني مِنْ المَربَطِ، وذَهَبَ فركبني بأغباش وضع في مَرَةَ سَوْطٍ أو صدرَ وَبيل. الليل فلما فُرِقَ بين الشَبحين، وانتشِر أضوأ الصُّبْحَين وخرجَ الفِتيانُ على دوابِّهم، جعلَ يحثني بالضربِ لأحْضِر كإحضار الخيْل الجامَّةِ والشواحج المودعةِ".[١]

كما أخذ الثعلب والشاحج يسترجعان أحداث الجفلة، فالجفلة أشبه بالتقنية الفنية التي بها قدم المعري الشخصيات المختلفة، وتحمل داخلها مظاهر الشقاء والتعذيب والبعد والتغير، فالشاحج يخبر الثعلب عن تغير معاملة أصحابه له، فيقول: اما أنا فيَاسَرْتُ أصحابي وياسَروني ووجدتُ المياسرةَ أفضلَ من المعاسرةِ: أخفَّوا حِمْلي وأمَرتُ بالصبر نفسي، فَخَمدَ لهيبُ الفتنةِ وغيري الذميمُ، وأمَّأ أرضي فعادت جالِيتُها مِنْ كلِّ الأقطار...".[٢]

ثم إن الجفلة قدمت شخصيات معرة النعمان؛ فوصفت الحرف والمهن المنتشرة، فأعمال الشخصيات متنوعة: حداد، وصباغ، وحجام...، لذا قدم المعري صورة لتلك الشخصيات التي ارتبطت بتلك المهن، وكشف عنها في أكثر اللحظات شدة، كما سبر أغوار الشخصيّة النفسية والعقلية، فوقائع الأحداث والصرّاع تبين مواقف الشخصيات بعضها من بعض، وتقدم شبكة العلاقات المتداخلة. وقد تصدى المعري للكشف عن

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٩٩.

[٢]- نفسه، ص٦١٠. القصيدة: العصا وقطعة من الشيء إذا تكسر؛ الفجرين: الكاذب والصادق؛ المستطير: المنتشر في الأفق؛ الوبيل: عصا غليظة (حاشية الصاهل والشاحج، ص٩٩).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحياة اليومية، يقول في وصف الحداد مثلا وما ينتج مع الجفلة من أدوات لا تجدي فائدة لمن حوله لآثار الفزع والهول:

"وأمّا الهالكيّ في هذه الناحية، فإنما يَصْنعُ خَصِيناً، أو مِسْحَاةً، أو حِدَأةً، مُنحَاةً، أو سِنَّةً يُنَتَفعُ بها في المِعْزَقَةِ، وربما صَنَعَ مُدْيَة للأقلام وذاتَ جُزْأةٍ يذمُّها أوداجُ الذبيح. ومهما فَعَلَ فإنّه لا محالة سيُرفضُ فلا يُنظَر إليه".[١]

وفي الغالب فإن الحيوانات المتحاورة تطرح قضية وحكمها بالعودة إلى موقف النبي – عليه السلام– والصحابة. وهكذا تكثر العودة إلى التراث الديني برواية أحاديث النبي، فالرسول يمثل أقوالاً وأفعالاً جديدة لأفراد استهلكتهم حقبة هالكة (الجاهلية)، وقد امتلكت هذه الحقبة عقول أصحابها بأنساقها الفكرية والأخلاقية، فهو يردعهم عن الخطأ، ويحثهم على الفضيلة، وكان الخلاص من تلك الأنساق الفكرية ينطوي على تأسيس ثقافة تستوعب اللحظة الحاضرة، ومن هنا فقد نهى –عليه السلام– عن التطير، السلطة المسيطرة على الجاهلي في ميدان الحياة في ذلك الزمان، وبقيت رواسبها في تصرفهم، ويأتي ذكر موقف النبي –عليه السلام– من الطيرة في معرض حديث الثعلب عن الأماكن التي اتجهت إليها الجالية، فيؤكد قوله عليه السلام: "لا عدوى ولا طيرة".[٢]

ولا غرو فإن الاسترجاع كفيل بإثبات مفاهيم الحياة الممتدة، وإشارة إلى الأثر العميق الذي تركه النبي، –عليه السلام–، ليوجه أصحابه ويحمل من يأتي بعدهم وعياً أساسياً بالمسألة الدينية وارتباطها بالمعاملات الإنسانية، وبالطبع تتبع تلك المسائل من خصوصية البيئة العربية التي تمثل نافذة لبيئات عديدة، ومن تلك القضايا أن النبي خضّب مرة واحدة ولم يعد، أما الخضاب في الصحابة فهو كثير، وما يكره من الخضاب أن يَغُرّ به الرجل المرأة في التزويج فتظن أنه شابٌ.

---

[١]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٤٥٤. الهالكي: الحداد (ابن منظور، لسان العرب،: مادة هلك)، الخصين: الفأس الصغيرة (ابن منظور، لسان العرب،: مادة خصن)، الحدأة: الفأس (ابن منظور، لسان العرب،: مادة حدأ).

[٢]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٢٧٢، والحديث في النهاية في غريب الحديث والأثر ج١٣٨/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكثيراً ما يعود إلى السياق التاريخي حيث تدور الأحداث مع الشخصيات، فإحدى الوسائل التعبيرية عن التراث تتمثل بتحفيز لحظة السرد باللجوء إلى ذكر المواقف والأحداث التي مرت بها الشخصيّة التراثية، ويكون استخدام الحدث التاريخي موفقاً ليعمق العمل ويعطيه دلالات جديدة ضمن منظور فني متماسك، فيتداخل الحاضر الواقعي مع الماضي التاريخي لخدمة الحالة الحاضرة، فقد يكون التوجه الفكري منسجماً مع النسق الفكري السائد، وتنهل من معطياته، فالنبي يجعل من اللبن بركة في البيت، ويرد ذكر الحديث في معرض الفأل بلفظة "حلب" فمن معانيها حلب اللبن.

أما في رسالة الملائكة فكثيراً ما يجعل الراوي الماضي القديم يتسلل إلى الحاضر، وينساب فيه على اعتبار أنه لا حاضر بلا ماض، متخذاً من بيان الخلافات وتعدد الآراء وسيلة في هذا المضمار، إذ إن الإقناع أحد أصول علم النحو وأصل فيه، فيظهر استقراء القاعدة وتوضيحها، ومن ذلك ما قاله النحاة:

"وقدْ زَعَمَ سيبويه أنّ الفُعْلَى التي تُؤخذُ مِنْ أفْعَل مِنك لا تُسْتَعملُ إلا بالألف واللام أو الإضافةِ، تقولُ هذا أصغر منك فإذا رَدَدْتُه إلى المؤنثِ قُلْتَ الصّغْرَى ويَقْبُحُ عِنْدَه أنْ تقولَ صُغرى بغيرِ إضافةٍ ولا ألفٍ ولامٍ ولكنْ تقولُ هذهِ صُغْراك وصُغْرى بناتِك".[١]

ولما كان أي علم ينهض على الآراء بتأكيدها أو نفيها تظهر الصورة السالبة للعلماء، ويعبر المعري عن أفكار الشخصيّة من منظورها التاريخي فلا هَمّ لهؤلاء العلماء إلا تخطئة بعضهم، وسلب قدرات الآخرين، وتشتد هذه المعركة بينهم، وهنا أيضا يستند الراوي إلى آراء علماء اللغة بالرجوع إلى الحياة العاجلة، يقول في وصفهم:

"وقرأ بعضُ القُراء ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنى﴾ [١] عَلى فُعلى بغيرِ تنوينٍ وكَذلك قُرِئ في الكَهفِ ﴿ إمَّا أنْ تُعَذِّبَ وَإمَّا أنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنى﴾ [٢] بغيرِ تنوينٍ وزَعَم سعيد بنُ مسعدة أنّ ذلِكَ خطأ لا يجوزُ وهو رأيُ أبي إسحاق الزّجاج لأنّ الحُسْنَى عِنْد

[١]- المعري، رسالة الملائكة، ص٣٤.

[١]- البقرة، آية ٨٣.

[٢]- الكهف، آية ٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غيرهما من أهل البصرةِ يجبُ أنْ تكونَ بالألفِ واللام كما جاءَ في موضع آخر "وكَدَّبَ بالحُسْنَى" وكذلك اليُسرى والعسرى".[١]

وبما أن الغفران نقد للأدب في عصور مختلفة، فقد كانت العودة إلى الماضي أمراً ملحاً، وضرورة لإظهار النقد، كما كانت وسيلة المعري لتقديم شخصياته، فالشخصيات غالباً ما تعود بذاكرتها إلى الحياة العاجلة، وخاصة ابن القارح الذي غالباً ما يلجأ إلى سرد أخبار الشعراء ونقد أشعارهم، فكانت الجنة والجحيم مرتعا لتذكر الماضي، وأداة لتحفيز ذاكرة ابن القارح؛ فهو يتناول إحدى القضايا الصرفية في بيت من أبيات معلقة لبيد بن ربيعة (من الكامل):

"وصَبُوح صَافيةٍ وجَذْبِ كَرينةٍ بُمَوتَّرٍ تَأتالُهُ إبْهامُهَا

فإنَّ الناسَ يروُون هذا البيتَ على وجهين؛ منهم من يُنشِدُهُ: تأتَالُه، يجْعلُه تفتعله، من آلَ الشيءَ يُؤولُه إذا ساسه ومنهم من يُنشد: تَأتالُهُ من الإتيان، فيقول لبيد: كِلا الوَجَهين يحتملهُ البيتُ..." [٢].

كما أن شخصيّة ابن القارح تعتمد على الزمن المتداخل، إذ يستحضر أحداثا حصلت بعد نهوضه من القبر، فيحطم بروايته تلك الأحداث سؤال الأدباء حول امتلاكه للشعر وحفظه وتجاوزه للحظة الحشر التي أنست الأدباء معظم ما عندهم، فالحوار الذي يدور بينه وبين عمرو بن الأحمر "يفضي إلى ما تفردت بهِ ذاكرة ابن القارح على ما شهده من هول الموقف، إذ يقول له متعجباً: "فالعجبُ لك إذْ بَقِيَ مَعْكَ شيءٌ مِن روايتِك!" [١]، لذلك فإن إجابة ابن القارح تبنى على الشرح والتعليل، والعودة إلى الماضي ممثلا بحياته في الدنيا مستخدما الأفعال الماضية، يقول" فيقولُ الشيخُ: إنّي

---

[١]- المعري، رسالة الملائكة، ص٣٥.

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص٢١٧. الكرينة: القينة العوّادة التي تضرب على العود (ابن منظور، لسان العرب،: مادة كرن)؛ بموتَّر: الآلة ذات الأوتار العود (نفسه، مادة وتر)، والبيت ورد في ديوان لبيد، ص٣١٤.

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كُنت أُخلِصُ الدُّعاءُ في أعقابِ الصلواتِ، قبلَ أن أنتقِلَ مِن تلك الدار، أن يُمتِّعني اللهُ بأدبي في الدُّنيا والآخرةِ، فأجابني إلى ما سألتُ وهو الحميدُ".[١]

وبما أن تذكر لحظات معينة يسهم في الكشف عن حقيقة الشخصيّة، فقد احتل هذا الأمر حيزاً كبيراً يرتبط بالأبعاد السلبية في ابن القارح، الذي يبدو غير مستحق لكسبُ ودّ المستمع لقصته بل لسخريته وتعجبه، فكانت تلك الوقفة التذكرية الاسترجاعية ناجحة توحي بمراوغة ابن القارح، ويرتبط هذا الأمر بالمشهد الذي يعجب منه تميم بن أبي مقبل من حافظته وكأنه لم يشهد أهوال الحساب، فيرد عليه باللجوء إلى تقنية القصة في القصة، يقول: "أنا أقصُّ عليك قصتي"[٢]، وهو يتمثل فيها قصته في طلب الشفاعة بعد نهوضه من القبر، ولقائه بالملك الحفيظ، وحسناته القليلة، وإقامته مدة شهر في الموقف، وخوفه من الغرق في العرق، وثم تزيين النفس الكاذبة له أن ينظم أبياتاً في رضوان خازن الجنة، ومزاحمته للناس، ثم محاولته الاستغاثة بـ"رضوان"، وقوله: "أنا رُجلٌ لا صبَر لي على اللوُّاب – أي العطَشَ– وقد استَطلت مُدّةَ الحِساب، ومَعي صكٌّ بالتَوْبةِ، وهي للذُّنوبِ كلّها ماحِيَة، وقد مدحتُك بأشعارٍ كثيرةٍ وَوَسمتُها باسمِك".[٣]

ويُعدُّ الصكُّ الضائع مدخلاً دالاً ومترابطاً مع القصة، وله دور مركزي كما يكشف عن بعد آخر في ابن القارح، وتستمرُّ المكاشفة لإشباع فضول المتلقي وإثبات تطفل ابن القارح على كل الشخصيات، كما تدفع القارئ إلى الاقتراب أكثر من النص، وقد أخذ ابن القارح يزعج كل من يلقاه بإلحاحه وتكلفه وتملقه، ومن ذلك ما فعله مع حمزة، وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهما – وقد أطال المعري في الوقوف على قضية الصك الضائع، فالرسالة قامت على ما ارتبطت به من عنوان "الغفران" فكرةٍ لها بعدٍّ جوهريّ أساسيّ، إذ إن سقوط الكتاب الذي فيه ذكر للتوبة يعطي انطباعاً بأن فاقده لا يكتسب تبجيل الآخرين حتى لو سلطت عليه الإضاءة مراراً وتكراراً.

---

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص٢٤١.

[٢]– نفسه، ص٢٤٨.

[٣]– نفسه، ص٢٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبقي أن نشير في هذه النقطة إلى لجوء المعري إلى المزج بين الأحداث الدائرة في الحياة الدنيا وبين الأحداث في العالم الآخر، أي المزج بين الواقع والغيب وما يراه ويتذكره، ولكن الشخصيات نسيت الماضي، في حين يلح عليه ابن القارح، ويبدو منشغلا بجزئياته، فالحور يرقصن على أبيات للخليل، فتهتز الأرجاء طربا فيسأل ابن القارح: "لِمَنْ هذه الأبياتِ يا أبا عبد الرحمن؟ فيقولُ الخليلُ: لا أعلم. فيقولُ: إنّا كُنَّا في الدارِ العاجلةِ نَرْوي هذه الأبياتَ لكَ. فيقولُ الخليلُ: لا أذكُرُ شيئا من ذلك، ويجوزُ أن يكُون ما قيلَ حقاً، فيقولُ: أفنسِيتَ يا أبا عبدالرحمن، وأنتَ أذكَرُ العرب في عصرك؟ فيقولُ الخليل: إنّ عُبورَ السّراطِ يَنْفضُ الخَلد مِمَّا استُودع".[١]

ب-الشخصيات واستشراف المستقبل:

الزمن بمعنى عام يعطي حقبة ممتدة يصعب ضبطها بين الماضي والحاضر والمستقبل، واتسمت أجواء الغفران والملائكة باضطراب خط الزمان والمكان، حيث تقع حوادثهما في إطار عجيب، وتنتقل في أمكنة لا يمكن تصور الانتقال إليها.

وقد زاوج المعري في الغفران والملائكة بين الشخصيات المستمدة من التاريخ، والشخصيات العجيبة، وهما يوحيان بعالمين متناقضين يتميز أولاهما لمحدوديته، في حين يظهر ثانيهما اتساعه وعمقه، وهذا العالم في نهاية المطاف من تصور المعري، إذ أقحمه الواقع تعويضاً عن الإحساس بظلم عالم الواقع وأسره، ومحاولة لتجاوزه بكل ما فيه والخروج من حدوده وضيقه.

ففي نص الغفران والملائكة يجد القارئ نفسه أمام وحدتين سرديتين هَيْمَن على أولاهما الواقع المستمد من الحياة العاجلة، وثانيتهما: المسيطر عليها الخيال، وهي عوالم خاصة بالجن والملائكة والحيوانات المتحولة، والحيوانات الناطقة. ولعل ظهور مثل تلك الكائنات العجيبة محاولة للخروج من قيد الزمان والمكان وعالم الواقع المليء بالظلم، إلى مكان يمتلئ بنماذج جديدة ما هي في الحقيقة إلا صدى لأفراد حقيقيين، ومعظم تلك المخلوقات على تنوعها تتأثر بالأدب والشعر وتتذوقه أو تبدو عالمة به.

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٧٩-٢٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتراجع الشخصيّة المحورية (الراوي) ليمزج الواقع مع المستقبل والماضي في (رسالة الملائكة)، وقد أبرزت قدرة المعري على إمساك واقعه الموضوعي والتعبير عنه، ويشكل الموت مدخلاً للمعري للتعامل مع الواقع الجديد ضمن حرية تغيّر الزمن، فهو في النهاية جزء أساسي في حركة الواقع الاجتماعي الذي حاول أن يخرج منه، يقول:

"فالآن مَشيتُ رويداً وتركتُ عَمْراً للضاربِ وزيداً، وما أوثرُ أنْ يُزادَ في صحيفتي خطأ في النحو، فيخلُدَ آمناً من المحو،...، وقد بلغتُ سِنّ الأشياخ وما حار يبدي نفع من هذا الهذيان والظعن إلى الآخرة قريب. افترانـي أدافع ملك النفوس،...، فيعجبه ما سمع فينظرني ساعة لاشتغالهِ بما قُلت فإذا هَمَّ بالقبض قلتُ وزنُ مَلَك على هذا القول مَعَل...". [١]

أما شخصيّة ابن القارح فهي التي تملك القدرة على التنقل بين تلك الكائنات في (الغفران) وتكشف خباياها، فقد كان حرا له القدرة على الاختيار، إذ تتحول صورة الأشياء التي يتمناها أو تخطر في باله أو يفكر فيها إلى أفعال حقيقية، فحينما يجول في خاطره الراوة يتمثلون أمامه، فيدفعه ذلك إلى الاندهاش "لا إلهِ إلاّ اللهُ مُكَوِّناً مُدَوِّناً، وسُبحان الله باعثاً وارثاً. وتباركَ اللهُ قادراً لا غادراً".[٢]

وبذلك فإن ابن القارح بما يخطر له من تصورات يجعل السرد يتوالد عنه أحداث أخرى، أي أن الأحداث تتكون بعد أن يدفعها ابن القارح بتخيلاته اللامتناهية، ويتطور الحدث ويندفع وينمو، كافتقاده في أحد المشاهد لوجود الأعشى بينهم، وظهوره بعد ذلك. [١]

وقد اتخذ المعري من الشخصيات العجيبة قناعا يتستر وراءها لإبداء آرائه تجاه مواقف قد يكون التعبير عنها بصورة صريحة غير مجد، ومن ذلك الشخصيّة الأنثوية، وقد عمد إلى الخوارق في التصوير، وتكون مجالاً رمزياً لامتناهياً، فظهر التركيز

---

[١]- المعري، رسالة الملائكة، ص٥-٦. حار: الهذيان وكلام غير معقول (ابن منظور، لسان العرب، مادة حير).

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٠٦

[١]- نفسه، ص١٧٢ و٢١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليها في الجنان، في حين تلاشى وجودها في الجحيم، ويقف المعري بهذا أمام معادلة الحياة، وسار ضمن نواميس واقعه، فرغبات (أي الجواري) مسخرة، ولذلك فيها كل خير ومتعة وراحة لمن حولها.

والجارية كما تبدى من التحول والتغير أسيرة جمال جسدها، فابن القارح يراها جسداً يمنح اللذة، وخادمة تلبي الرغبة، ولا لذة أو غواية في الجحيم، لذلك لا نجد لها حضوراً في جهنم إلا حديثاً مختزلاً لتميم بن أبيّ الذي ذكر من يتلظى بنار جهنم الملوك ونساء ذوات تيجان، ولكن لم يصادف ابن القارح هؤلاء، فقد جعلهم مادة مسكوتا عن ذكرها، واكتفى بذكر الخاص بالشعراء، وغض الطرف عن غيرهم، لأن حوارهم لا جدوى منه أو فائدة في رسالة انتقدت الأدب وأهله.

والتحول في الجارية يشي بطبيعتها، فهذا التغيير يحمل إشارات رمزية عن طبيعة مجتمع فاسد، وقد التفّ كلّ من في الجنة حول هذه الشخصيّة، مما يوحي بقدرتها على التأثير فيمن حولها، فتغيرها عن صورة حيوان أو نبات تثير الشك في دورها في الواقع الاجتماعي.

والشخصيّة الأنثوية ظهرت حيث ابن القارح، وقد كان هذا الوجود منسجماً مع منحى نمو الشخصيّة، كما أن ظهورها الفجائي ما كان إلا لتوضيح السمات النفسية المغيبة من شخصيّة ابن القارح الذي لم يمط اللثام عن بناء شخصيته مرة واحدة، بل كان تدريجيا.

ويرتبط بناء الشخصيّة الأنثوية بوصف أفعالها وتصرفاتها والتركيز على طريقة تحولها، كما أنها تثير الانفعال النفسي وإظهار التعجب وخاصة ابن القارح، الذي طالما تمثلت استجابته بالدهشة والإثارة على تغير خلقتهن أو غنائهن، فحاله تومئ بالارتباط الشديد بهن، لذلك تتوهج قدرته في بيان جمالها المتنامي في الجنان، فهو يقول في أحد المواقف:

"فَتَبَارِكَ اللهُ القدُّوس نَقْلَ هؤلاء المُسْمِعات من زي ربَّات الأجنحة إلى زيّ ربّات الأكفالِ المترجحة، ثم ألهَمَهُنّ بالحكمةِ حِفْظَ أشعارٍ لم تَمْرُرْ قبل بمسامعهن، فَجئن بها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مُتقَنة، محمولة على الطرائق مُلحَّنة، مُصيبة في لحن الغناءِ، منزَّهة عن لحن الهُجناءِ".[١]

وتتكسر الثمار في مشهد آخر، وتخرج منها جارية تبرق، فتقول لابن القارح مستعينة بالتداخل الزمني الذي يبدو أشد وضوحاً في وصف انتظارها له، تقول: "إنِّي أُمنَي بلِقائِكَ قَبْلَ أنْ يَخُلق اللهُ الدُّنيا بأربَعةِ آلافِ سَنة. فِعْند ذلك يَسْجُدُ إعظاماً للهِ القدير".[٢]

ويهال من قدرة الله اللطيف، حينما يرى تلك الجارية فيخرج الدعاء معبراً عن عظمة وصف ما يشاهد، يقول مظهراً الدهشة وعظمة الخالق.

" يا رَازقَ المُشرقةِ سَناها، ومُبْلِغَ السائلةِ مُناها، والذي فعلَ ما أعْجَزَ وهالَ، ودَعا إلى الحلم الجُهَّالَ، أسَألُكَ أن تَقصُرَ بُوصَ هذه الحوريةِ على ميلٍ في ميل، فقد جازَ بها قدرُكَ حد التأميل فيقال له: أنت مخيّرٌ في تكوين هذه الجاريةِ كما تَشاءُ فيقتصِرُ من ذلك على الإرادة".[٣]

وجدير بالذكر أن المعري بعث في الكلمات المقدرة، ولجأ إلى الصورة من عالم الكلمات إلى عالم الفعل جاعلاً من المستحيل غير المتوقع ممكنا وواقعاً، لذلك تداخلت الأشياء فيما يشبه عالم السحر والأساطير.

وضمن هذا الإطار ظهر الحوار مع الملائكة والجن والحيوانات المتحولة؛ وتلك الحيوانات – مثلاً– خرجت عن المألوف في الجنان، واتخذت صفة أبعدتها عن واقعها في الحياة الدنيا، وبهذا تتخلص من صفاتها الحقيقية وتتخذ لها مكاناً ضمن الشخصيات العجيبة، فهي ناطقة، ولها القدرة على معرفة ما يدور في أذهان بني البشر، فابن القارح يقول في نفسه: "لقدْ كان الأسدُ يقْتِرُس الشاةَ العجفاءَ، فيُقيُم عليها الأيامَ لا يطعُم سِواها شيئاً.

---

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص٢٢٦.

[٢]– نفسه، ص٢٨٨.

[٣]– نفسه، ص٢٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيُلهمُ اللهُ الأسدَ أن يَتكلّمَ، وقد عَرَف ما في نفسه، فيقولُ: يـا عبـدَ اللهِ، ألـيس أحـدكم في الجَنّة تُقَدمُ..." [١]

ج- الحوار والشخصية

يتداخل الحوار بطبيعة الحـال مـع السـرد الوصـفي كاشـفا عـن حـال الشخصـيّة الرئيسيّة المحورية في عملية القص: صفاتها، وطبيعتهـا، وحقيقتهـا، وواقعهـا، وماضـيها، وحاضرها، ومصيرها، كما تكشف عن حقيقـة الشخصـيات الثانويـة التـي كانـت كثيـرة جدا في (الغفران)، كما أسهم في التمييز بـين الفـروق الخاصـة بـين الشخصـيات؛ لـذلك كثيرا ما تقلص حيز السرد لصالح الحوار.

ورسالة الغفران عمل متكامل، يمتزج فيها غيرُ فـنّ فـي الوقـت نفسـه، إذ اتصـفت هذه الرسالة بغير سمة، جعلت النقاد يحارون في جنسـها الأدبـي، فحملـت ملامـح القصـة عند بعضهم[٢]، وجعلت آخرين يُعدّونها فنـا مسـرحياً[١]، ولا يغفـل أن تلـك الرسـالة تقـع ايضا ضمن المكاتبات الإخوانية فقد كتبت وبعثت إلى ابن القارح.

وقد استحضر المعري فـي غفرانـه شخصـيات أدبيـة وتاريخيـة، وبعـض الفـرق الدينيـة، وكانـت المشـاهد تجمـع بـين الشخصـيات المتناقضـة والمتنـافرة والمتقاربـة والمتباعدة زمنياً لتعبر عن رؤية الكاتب الخاصة بالأدب والأدباء.

ويمكن القول: إنّ رسالة الغفران تتأسس فـي مجملهـا فـي تقـديم شخصـياتها علـى التناص[٢] الأدبي، إذ كثيرا مـا يـتم الاستشـهاد بقـول لأحـد الأدبـاء شـعراً أو نثـراً، أو يتناول القص حكايته، فالمتن الحكائي لرسالة الغفـران يتفاعـل فـي جملتـه مـع نصـوص

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٣٠٤.

[٢]- الواد، حسين، البنية القصصية في رسالة المعري، رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، ص ٦٠.

[١]- عبدالرحمن، عائشة، جديد رسالة المعري، رسالة الغفران نص مسرحي من القرن الخامس الهجري، ص٨٩- ص٢٢٣.

[٢]- التناص: أن يتضمن نص أدبي ما نصوصاً أو أفكاراً أخرى سابقه عليها عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النص الأصلي، وتندغم فيه ليتشكل نص جديد واحد متكامل. (الزعبي، أحمد، التناص نظرياً وتطبيقاً، ص٩٧).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مستحضرة من التاريخ، ومن ثم يقف بتلك الشخصيات التي مثلت قضايا سلوكية، ففتح المعري وجدان القارئ على سياقات اللغة المختلفة، كما أظهر مقدرته وتفوقه، وقد جاءت الإحالة والتفاعل بين الشخوص مبعثرة هنا وهناك في مقتطفات للعديد من الشعراء ولكن بأسلوب حكائي متماسك، وتمركزت خاصة في مواضع المعاناة حيث الجحيم، فسؤال ابن القارح عن قلة تشكي الشنفرى كبقية أصحابه يدفعه للقول: "أجل، إني قلت بيتا في الدار الخادعة فأنا أتأدبُ به حيرىَّ الدهر، وذلك قولي (من الطويل):

عَوى فعَوَت، ثمّ ارْعَوَى بعْدُ وارْعَوتْ وللصَّبْر إن لم يَنْفع الشَّكْو أجملُ"[١].

كما أن للحوار دوراً آخر في الكشف عن الحس الجماعي، وارتباط القبيلة بأفرادها، فيبين الاتصال بالقبيلة واقع الشخصيّة في الحياة الدنيا، كما استدعى مستوىً محدداً في التشكيل واللغة، كما في سؤال حسان في مجلس تجمع فيه الأدباء:

"كيفْ جُبْنُكَ يا أبا عبدالرحمن؟

فيقول: ألي يُقالُ هذا وقومي أشجَعُ العَربِ؟ أراد ستّة منهم أن يَميلوا على أهل الموسم بأسيافِهم، وأجاروا النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- على أن يحاربوا معه كَلّ عنُود. فرَمَتْهُم ربيعةُ ومُضرُ وجميعُ العَرب عن قَوْسِ العدَاوة، وأضمرُوا لهم ضِعْنَ الشَّنآن. وإنْ ظَهر منِّي تَحرَّزٌ في بعض المواطن، فإنّما ذلك على طريقةِ الحَزْم..."[١].

ثم فإن الحوار منح النص القصصي واقعيّة؛ فهو يؤكد طبيعة العربي الذي يميل إلى الاعتزاز بقومه والمفاخرة بقوتهم وتميزهم من أقرانهم إيماناً منهم أن الإنسان لا يكون عزيزاً إلا بقومه، والفخر بالقبلية من المواضيع التي استحوذت على اهتمام العرب كثيراً، فنظموا فيها الشعر، ومن هنا فإن المعايرة الصادرة من النابغة الجعدي لأبي بصير أنه غُرّ لعده رابع الشعراء الأربعة، في حين يعد نفسه (أي النابغة الجعدي) أطول نفساً وأكثر تصرفاً، يقول أبو بصير رادا:

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٣٥٨. حيرىّ الدهر: مدة الدهر. (ابن منظور، لسان العرب: مادة حير): والبيت ورد في ديوان الشنفرى ، ص٦؛ والشنفرى، لامية العرب، نشيد الصحراء، ص٨.

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٣٦-٢٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"أتقولُ هذا وإنّ بيتاً مما بَنَيْتُ لَيُعْدَلُ بمائةٍ من بنائِك؟ وإن أسهبتَ في منطقِك، فإنّ المُسهبَ كحاطبِ الليل، وإني لفي الجُرثومةِ من "ربيعةِ الفَرَس" وإنّك لَمِن، بني جعْدة، وهل جَعْدةُ إلا رائدةُ ظليمٍ نَفور؟ اتعيّرُني مَدَح الملوكِ؟ ولو قَدَرْت يا جاهلُ على ذلك، لَهَجْرتَ إليهِ أهلك وَوَلَدَكَ"[١].

كما يسهم الحوار في بيان طبيعة الآخر، من وجهة نظر خاصة، وبكثافة تعبيرية، الأمر الذي مكّن المعري من التعبير عن الموقف، مختزلاً الكثير من الحقائق التاريخية المرتبطة بإحدى الشخصيات، ففي الحوار بين النابغة وأبي بصير، يقول:

"ولكنك خلقت جبانا هِداناً، لا تُدْلجُ في الظّلماءِ الدَّاجية، ولا تُهَجّر في الوديقةِ الصاخدة، وذكرت لي طَلاقَ "الهزّانية" ولعلّها بانت عني مُسِرّة الكَمَد، والطّلاقُ ليسَ بمنكَرٍ للسُّوَق ولا للمُلوكِ"[١].

ويسير الحوار على وتيرة متصاعدة، فيرد الجعدي معتزاً بقبيلته مفتخراً بأفعالها وذاكراً لأيامها، بقوالب لغوية مشعة الدلالة، والمعري يقبض بمختلف أساليبه الفنية على لحظة تاريخية، يقول على لسان النابغة الجعديّ:

"واستَقْللتَ ببني جَعَدَةَ، ولَيَومٌ مِن أيَّامهم يَرْجَحُ بمساعي قومِك. وزَعَمْتَني جباناً وكذبت! لأنا أشَجعُ منكَ ومن أبيكَ. وأصْبرَ على إدلاج المُظلمةِ ذاتِ الأريز، وأشَدُّ إيغالاً في الهاجرة أمّ الصَّخَدان"[٢].

ولم يُنْسِ النعيمُ والتمتع به الخنساءَ أخاها صخراً، فهو مصدر عزتها، وموطن قوتها، وهذا يبيّن أن الشخصيات ما زالت تتأثر وتتصرف وكأنها في الدنيا، والمعري بمعارفه الخاصة بالشخصيّة يستقصي أعماق الشخصيّة وباطنها، فابن القارح يتعجب من أمرها ويسألها عن اسمها، فتقول:

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٢٩. الجرثومة: أي عنى من أصل قبيلة ربيعة (ابن منظور، لسان العرب،: مادة جرثم)؛ رائدة ظليم نفور: أي تريد ظليماً فرّ منها.

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٢٩- ٢٣٠. هدان: أحمق (ابن منظور، لسان العرب، مادة هدن)، الوديقة الصاخدة: في وقت الحر الشديد المحرق (نفسه، مادة ودق وصخد).

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٣١. الأريز: البرد (ابن منظور، لسان العرب،: مادة أرز)، الصخدان: اليوم الشديد الحر (نفسه: مادة صخد).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"أنا الخَنساءُ السُّلميّة" أَحْبَبْتُ أنْ انْظرَ إلى "صَـخْر" فاطَّلَعْـتُ فرأيتُـه كالجَبَـلِ الشَّـامخ والنارُ تَضْطَرِمُ في رأسِه، فقال لي: لقد صَحّ مَزْعَمُكِ فيّ! يعني قولي (من البسيط):

وإنَّ صَخراً لَتَأتَمُّ الهُداةُ بهِ كَأنّه عَلَمٌ في رَأسِهِ نَارُ"[١].

ويكون للحوار دور واضح في بيان أسباب دخـول بعـض الشـعراء الجنـة، ويتضـح هذا الأمر في غير موطن، فالحطيئة مثلا يـدخل الجنـة بأبياتـه التـي هجـا فيهـا نفسـه، فيسأله ابن القارح عن أبيات أخرى قالها :

"ما بالُ قولك (من البسيط):

مَنْ يَفْعلِ الخَيرَ لا يَعدَمْ جَوَازَيهُ لا يَذْهَبُ العُرْفُ بينَ اللهِ والنَّاس"[١]

وقد يتشكل بالحوار تصويرُ لأبعاد نفسية انفعاليـة أو تنـافرٌ بـين الشخصـيات، كمـا في الحوار السابق بين النابغة الذبياني ونابغة جعدة، والحـوار بـين ابـن القـارح ورؤبـة، ويحجز بينهما العجاج، فابن القارح يَعـدُّ الرجـز سَفْسـاف القـريض، يقـول ابـن القـارح ساخراً من طريقة نظمهم على حروف نافرة:

"يا ابا الجحّاف. ما كان أكفلك بقوافٍ ليسـت بالمعجبـة! تصـنع رجـزا علـى الغـين ورجزا على الطاء، وعلى الظاء، وعلـى غيـر ذلـك مـن الحـروف النـافرة. ولـم تكـنْ صاحب مثلٍ مذكورٍ، ولا لفظٍ يُستَحسَنُ عَذْبٍ"[٢].

فيغضب رؤبة ويستعين في رده بأسماء العلماء الـذين عمـدوا إلـى الرجـز، وشـكل كلامه بعدا نقديا يقول:

"ألي تقول هذا وعنّي أَخَذَ "الخليلُ" وكذلك "أبو عمرو بـن العـلاء" وقـد غَبَـرْتَ فـي الدَّار السالفةِ تَفْتخِرُ. باللَّفظةِ تَقَعُ إليكَ ممَّا نَقَلَه أولئك عَنّي وعن أشباهي؟"[٣].

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٣٠٨. ورد البيت في ديوان الخنساء، ص٤٣.

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٣٠٧. ورد البيت في ديوان الحطيئة ص٢٨٤.

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص٣٧٥.

[٣]- نفسه، ص٣٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللحوار دور في إظهار لهجة خاصة بإحدى القبائل العربية ويتصل بتباين اللهجات عند العرب، كما أظهر رأيا فيها، فقد وصف المعري اللغة في أحد المواضع بلفظة رديئة، فعدي بن زيد العبادي ينطق الجيم كافا على لهجة قبيلته العبادية.

"يا مَكبور، لقد رُزقت مايَكِبُ أن يشغلك عن القريض، إنما ينبغي أن تكونَ كما قيل لكَ: ﴿كُلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون﴾"[١] فرد المعري على لسان ابن القارح مفسراً:"يا مَكبور، يُريدُ؛ يا مَجبور فَجعل الجيم كافاً، وهي لغةٌ رديئةٌ يستعملها أهلُ اليمن. وجاءَ في بعضِ الأحاديث، أنّ "الحارثَ بَن هانئ بن أبي شَمِر بن جبلة الكِنْدي[١] استُلحِمَ يومَ "سابَاط"، فنادَى: يا حُكّرَ يا حُكّرَ -يريدُ حُجْر بن عَدّيّ الأدبر-[٢]. فَعَطف عليه فاستنقذه، ويَكِبْ: في معنى يَجب"[٣].

وقد يميط الحوار اللثام عن بُعدٍ سياسيٍّ أو نقدٍ لأوضاع السلطةِ، فتميمُ بن أبيّ يذكرُ أنه حُوسب حساباً شديداً؛ لأنه كان فيمن قاتل علي بن أبي طالب، كما يستعين بما شاهده ليؤكد وقود النار من الأكاسرة ونساء ذوات تيجان مشيرا إلى تدخل النساء في السلطة، فهو يتعجب من حفظ ابن القارح "كأنه لم يشهد هول الحساب" ومنادي الحشر، يقول: أينَ فلانُ ابنُ فلان؟ والشوْسُ الجَبابرةُ من الملوكِ تَجذبُهم الزَّبانية إلى الجَحيم والنِّسْوَةُ ذواتُ التيجان يُصَرْنَ بألسِنةٍ من الوقودِ، فتأخُذ في فُروعهنّ وأجسادهِنّ، فَيصحْن هل من فِداءٍ؟ هَلْ مِن عُذر يُقامُ؟ والشَّبابُ من أولادِ الأكاسِرة يَتَضاغَوْنَ في سَلاسِلِ النارِ ويقولون: نحنُ أصحابُ الكُنوز، نحنُ أربابُ الفانية، ولقد كانت لنا إلى الناس صنائِعُ وأياد فلا فادِيَ ولا معين"[٤]!!

---

[١]- سورة الطور، آية ١٩.

[١]- الحارث بن هانئ بن بن جبلة الكندي: وفد على النبي -عليه السلام- وشهد يوم ساباط في المدائن (العسقلاني، الإصابة ٦٠٥/١).

[٢]- حجر بن عدي بن معاوية : هو حجر الخير، وفد على النبي -عليه السلام- كما شهد القادسية (العسقلاني، الإصابة، ٣٧/٢).

[٣]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٠١.

[٤]- نفسه، ص٢٤٧-٢٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وضمن الحوار العجيب ما كان على ألسنة الحيوانات الناطقة، التي تقرأ الأفكار غير المصرح بها، فأسد القاصرة يكشف عما يخفيه ابن القارح من أسئلة حول وجوده في النعيم، والاستخفاف والتهكم أساس في كلامه، يقول: "أتدري من أنا آيها البزيعَ؟ أنا "أسدُ القاصرةِ"[١] التي كانت في طريق "مِصْر" فلمّا سَافَر "عُتبة بنُ أبي لهبٍ" يُريدُ تلك الجَهة، وقالَ النبيُّ– صلَّى الله عليه وسلم–: "اللهُمَّ سَلطْ عليه كَلْباً من كلابك" ألْهمتُ أنْ أتَجوَّعَ له أيَّاماً، وجِئت وهو نائمٌ بين الرُّفقَةِ فتخَلّلتُ الجماعة إليه، وأدخِلْتُ الجَنَّة بما فعلتُ"[١].

ويسهم الحوار في بيان الفروق الواضحة بين الجارية التي انتشرت في الجنان وبين المرأة، فالقارئ أمام امرأتين إحداهما (حمدونة) التي تكشف عن نفسها وهيئتها ، فقد كانت من أقبح نساء حلب، وقد طلقها زوجها لرائحة كرهها من فيها ، ولعل المستمع لكلام هذه المرأة يشعر بابتعادها عن الأنوثة، فهي تقر بحقيقة كان لها يد فيها، كما كان باستطاعتها الخلاص منها وهي الرائحة الكريهة من فمها، والأخرى "توفيق السوداء" التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد، وكانت سوداء وصارت أنصع من الكافور، فتقول رادة على عجب ابن القارح، وكأن المعري يختفي وراء صوتها: "أتعجبُ من هذا، والشاعر يقول لبعض المخلوقين (من البسيط):

لَوْ أنْ مِنْ نُورِهِ مِثْقَالَ خَرْدَلَةٍ في السُّودِ كُلِّهم، لابْيَضتِ السُّودُ"[٢]

إلا أن الجارية يفعم كلامها بالأنوثة، ولا تنفصل عن وظيفتها وهي الإغراء، فهي تقول: "إني أُمَنِّي بلقائك قبلَ أنْ يخلقُ اللهُ الدُّنيا بأربعةِ آلافِ سَنةٍ"[٣].

ولما كان الحيوان يتحول إلى جوار يرقن الناظرين ، فإن الحية امتداد للجارية التي تتقرب من ابن القارح، وتشكي انتظارها، جاعلة من الكلمات قادرة على التغيير في هيئتها، تقول:

---

[١]– أسد القاصرة: سبع كان بوادي القاصرة.

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص٣٠٥. البزيع: اللين الخفيف (ابن منظور، لسان العرب، مادة بزع)

[٢] المعري، رسالة الغفران، ص٢٨٧

[٣] نفسه، ص٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"إلا تُقيمُ عِندَنا بُرهة من الدَّهر؟ فإنِّي إذا شئتُ انتفَضْتُ من إهابي فَصِرْتُ مِثلَ أحسنِ غَواني الجَنَّة... ولو أدْنيتَ وسادك إلى سادي، لَفضلتني على التي يقولُ فيها الأوّلُ (من البسيط):

باتَتْ رَقُوداً وسارَ الرَّكبُ مُدّلِجاً وما الأوانِسُ في فِكْرٍ لسَارينَا[١]

وتلقى ابن القارح جارية متحولة قد خرجت من ثمرة، تكلفت عناء الانتظار، ويبين الاستفهام طول المدة التي انتظرت فيه ابن القارح، تقول:

"إني لأنتظِرُكَ مُنْذ حين فما الذي شَجَنَكَ عن المزار؟ ما طالتِ الإقامة معكَ، فأَمِلَّ بالمحاوَرةِ مَسمَعكَ، قد كان يحُقُّ لي أن أُوثِرَ لديك على حَسَب ما تنفرد بهِ العروس يخصُّها الرّجُلُ بشِيءٍ دونَ الأزواج"[١].

ويتضافر الحوار الخارجي مع الحوار الداخلي للكشف عن طبيعة ابن القارح مما يدهش القارئ ويثير انتباهه، فالسياق اللغوي مليء بالإيحاء مما يخدم الفكرة الرئيسية، فهو يقول في حوار نفسه الذي ينم على حقيقة ابن القارح المراوغ:

"فقُلتُ لِنفسي الكَذُوب الشّعرُ عِنْد هذا أنفَقُ منه عند خازن الجنان، لأنَّهُ شاعر، وإخوتُه شُعَراءُ، وكذلك أبوه وجدُّه، ولعلّه ليس بَينَه وبين مَعدِّ بن عَدْنانَ، إلاّ مَن قَدْ نَظَم شيئا من مَوْزُون. فعَمْلِتُ أبياتاً على مَنْهَج أبياتِ "كَعْبِ بن مالك" التي رَثَى بها "حَمْزةَ"..."[٢].

كما يظهر حوار النّفس تأثره بالدنيا ورواسبها، فيخطر له ذكر القُفّاع الذي كان يعمل في الدار الخادعة، فيقول في نفسه اللاهية: "قَدْ عَلِمتُ أن اللهَ قديرٌ. والذي أريد،

---

[١] نفسه، ص ٣٧٠– ٣٧١. البيت ورد في ديوان مجنون ليلي، ص٢١٩.

[١] المعري، رسالة الغفران ، ص ٣٧٢.

[٢] نفسه، ص ٢٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نحو ما كنتُ أراه مع الطوافين في الدَّار الذاهبةِ، فلا تَكْمُـلُ هـذه المقالـة، حتـى يجمـعَ الله كلَّ فُقاعيٍّ في الجنّة"[١].

ثم يخطر له في مشهد آخر وهو ساجد أن تلك الجاريـة علـى حسـنها أنهـا ضـاوية، فتأتيه المفاجأة دائماً، فكل الكائنات المحيطة به تكشف مـا يـبطن، وتقـرأ أفكـاره. وتفضـح نواياه[٢].

وإذا كان حوار النّفس عنصراً مكملاً فـي بيـان سـمات الشخصـيّة، ولاسـيما تلـك التي لم يكشفها الحوار الخارجي، فإنه يسهم أيضا في إثـارة الاسـتغراب مـن رؤيـة بيئـة مليئة بالعجيب وخاضعة للغريب، فيتفاجأ مـن فعـل الأسـد الـذي يفتـرسُ الشـاةَ العجفـاءَ "فيقُيمُ عليها الأيامَ لا يطعُم سِواها شيئاً، فـيُلهم اللهُ الأسـدَ أنْ يـتكلمَ، وقـد عَـرَفَ مـا فـي نَفْسِه،...[١].

فقد تحولت المناجاة الداخلية إلى رموز تصور حـال المعـري الباطنيـة وتعبـر عـن أحاسيسه من ابن القارح، وهي مشاعر وجدانية، كمـا تبـرز قـدرة المعـري علـى تقـديم شخوصه والارتقاء بهم خطوة خطوة إلى أن يبدو في النهايـة كـلاً متماسـكاً؛ فزمـان ابـن القارح ميزان لعصر المعري المليء بالتناقضـات، وقـد اسـتند إليـه لبيـان ذلـك الفسـاد والخلل في المجتمع.

اما في رسالة الملائكة فإن المعـري لـم يـذكر سـبب تسـمية هـذه الرسـالة، إلا أنّ الواضح من تسميتها بالملائكة الإشارة إلى قيمة الحوار الذي نشـأ بـين الـرواي (المعـري) وبين الملائكة ضمن عالم الآخـرة، كمـا قصـد مـن هـذه التسـمية الإشـارة إلـى الآراء والأفكار التي أنطق بها المعري الملائكة في عالمه الخيالي.

وقد قام الحوار في رسالة الملائكـة بـين الـراوي (الشخصـيّة الرئيسـّة) والمَلَـك بالاستعانة بقضايا صرفية، وذلك بطرح أسـئلة متتابعـة يواجههـا الملـك. وبـدلاً مـن أن

---

[١] المعري، رسالة الغفران ، ص ٢٨٠.

[٢] نفسه، ص ٢٨٨.

[١] نفسه، ص ٣٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يجيب عنها، كان المعري المتخفي وراء الراوي يُدلي بعلمه فيما يسأل، فبدا علمه غزيراً، وإحاطته شاملة باللغة، وحفظه واضحاً للكثير من مفرداتها وتراكيبها. وهنا فإن الملائكة قد تظهر علمها أحيانا ببعض القضايا الصرفية، أو تستنكر مظهرةً عجزها وقلة حيلتها، أو يعجبها ما تسمع فتتصت متأملة، يقول المعري واصفا موقف الملك من سؤاله عن أصل كلمة الملك:

"فُيعجُبه ما سَمِعَ فَيْنظُرني ساعةً لاشْتغَالِه بما قُلْتُ فإذا هَمّ بالقبضِ قُلْتُ وزنُ ملك على هذا القول مَعل لأنّ الميَم زائدةٌ. وإذا كان الملكُ من الألوكةِ فَهو مقلوبُ من ألك إلى لأك والقلبُ في الهمزةِ وحروفِ العلةِ معروفٌ عند أهلِ المقاييس..."[١].

وقد بدت الإفاضة واضحة في حواره مع ملك الموت، فهو لا يبدأ بتناول معنى من المعاني حتى ينطلق منه إلى آخر، ثم يودي به هذا المعنى إلى قضية أخرى يهتم بإيراد الأمثلة عليها والاستشهاد على أدلتها والاحتجاج بها، كما يجهد الراوي نفسه علّه يلهي ملك الموت عن قبض روحه بتصريف كلمة ملك، والملك منشغل عن عمله بلغة الراوي وفصاحته، ثم يعي حيلته، فيهمُّ بقبضِ روحه، فسرعان ما يشغلهُ بإتمام حديثه عن اشتقاق ملك، جاعلاً من الشعر وسيلة لمدِّ الوقت واستغلاله من جديد، وقد استعان بالشواهد الشعرية لتأكيد فكرته.[٢]

ولا يتوقفَ به الأمر عند هذا، فما زال ملك الموت مصغياً لحديثه غير المنقطع؛ لأن توقف الصوت والجلبة هنا يعني توقف حياة الراوي، لذلك يتوسل إليه أن يمنحه وقتاً بإمهاله ليزن له كلمة (عزرائيل) محتجاً فيها على زيادة الهمزة، يقول:

"فأقولُ أمهلني ساعةً حتى أخبرك بوزنِ عزرائيلَ فأُقيمُ الدليلَ على أنّ الهمزةَ زائدةٌ فيه"[٣].

---

[١] المعري، رسالة الملائكة، ص٦.

[٢] نفسه، ص ٦.

[٣] نفسه، ص ٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إلا أن الملك لا يلبث أن يدرك غرض الحديث وغاية امتداده واتساعه فقد ضاق صدره ونَفَدَ صبره، فيخبره أن الأجل إن جاء، فلا مجال لرده، مؤكداً ذلك بآيات من القرآن الكريم، وقد جاءت الآية مناسبة للسياق ضمن الموضوع فتلتحم مع البناء الحكائي؛ "فالآية القرآنية تأتي في نثر المعري بكثرة، أو عندما يدعو إليها المعني دون إفراط أو اجتلاب، وزادت المعاني قيمة، وجعلتها أقرب للأنفس، وأعلق للقلوب"[١]، يقول ملك الموت: "هيهات ليس الأمر إليّ ﴿فإذا جَاءَ أجَلُهم لا يَسْتَأخِرون سَاعة ولا يَسْتَقْدِمون﴾ [١]".[٢]

ثم يبدأ مشهد جديد، ولكن هذه المرة بين يدي الملكين منكر ونكير، فيحاول العودة إلى حيلته الأولى التي اتبعها مع ملك الموت، ويرتكز أسلوبهِ هذه المرة على أسلوب الاستفهام، يقول: "فيسألهُما كيفَ جاءَ اسماكما عربيين متصرفين وأسماء الملائكةِ أكثرُها الأعجمية"[٣].

وهكذا فقد كان السؤال محفزاً للحوار ولأسئلة أخرى، وينسلُّ منها إلى قضايا جديدة، فيسألهما عن وزن (موسى) كليم الله "ما تريان في وزن موسى كليم اللهِ الذي سألتماه عن دينه وحجته فأبانَ وأوضحَ..."[٤]، وإذا كانا لم يجيبا عن المسألة الأولى، فإنهما يجيبان عن المسألة الثانية "فإن قالا موسى اسم أعجميٌّ إلا أنه يوافق من العربية وزن مفعل وفُعلى، أما مفعلُ فإذا كان من ذواتِ الواو مثل أوسيت وأوريت، فإنّك تقولُ موسىً وموروىً..." [٥].

وإذا سألهما عن تصغير الأرَزبّةِ ، فيستند الملكان إلى رأي سيبويه مظهرين علماً بأقوال أهل اللغة "فإنْ قالا أليسَ قَدْ زَعَمَ صاحبُكم عمر بن عثمان المعروف

---

[١] صلاح، رزق، نثر أبي العلاء (دراسة فنية)، ص١٩٦.

[١] النحل: آية ٦١.

[٢] المعري، رسالة الملائكة، ص ٩.

[٣] نفسه، ص ١٠.

[٤] نفسه، ص ٩.

[٥] نفسه، ص ٩-١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسيبويه أن الياء إذا شدّدتْ ذَهَبَ منها اللينُ وأجازَ في القوافي حيناً مع ظبي"[١]، إلا أن الراوي يميل إلى تخطئة الملكين محاولاً أن يثبت معارفه بالاتكاء على قاعدة مشهورة عند علماء اللغة، يقول: "قد زعم ذلك إلا أنّ السَّماعَ من العربِ لمْ يأتِ فيه نحو ما قال إلا يكون شاذاً"[١].

وفي حين يُظهر الملكان استهانتهما بما سمعا، يظهر الراوي تعجبه، فيقول الملكان: "ولو جَمَعَ ما عَلِمَه أهلُ الأرض على اختلافِ الأزمنةِ لَمَا بلغَ عِلْمَ واحدٍ من الملائكةِ يعدونه فيهم ليس بعالمٍ"[٢]، أما غرض المعري من إظهار تفوقهم في أحيان وتخطئتهم في أحايين أخرى، فما هو إلا لإظهار تميزه لعدِّه علم الملائكة يفوقُ علم البشر، ومحاولة أيضاً للتزلف والتقرب منهما بالمديح.

ويعود المعري إلى الإفاضة مرة أخرى حتى يكاد القارئ يحار في مقدرة المعري اللغوية، فهو يطلب من الملكين أن يوسعا له في الجدف ثم ينتقل إلى مسألة لغوية ترتبط بتلك الكلمة وهي الإبدال، ويستدل عليها بالشواهد ويستعين بالقراءات والشواهد الشعرية، وأخيراً رأي الفراء، يقول:

"وأقولُ قد صارتْ لي بكُما وسيلةٌ فوسّعَا لي في الجَدَفِ، إنْ شِئْتُما بالفاء وإنْ شِئتما بالثاءِ، لأن إحداهَما تُبْدلُ من الأخرى كما قالُوا: مَغَاثيرُ ومَغَافيرُ وأثافيٌّ وأفافيٌّ وثُومٌ وفُومٌ. وكيف تقرآن – رحمكما الله– هذه الآية: ﴿وفُومِها وعَدسها وبَصلها﴾ [٣] أبالثاءِ كما في مصحف عبد اللهِ بن مسعودٍ، أم بالفاءِ كما في قراءةِ الناس، وما الذي تختاران في تفسيرِ الفُوم، أهو الحنطة، كما قالَ أبو محجن (من الكامل):

قد كنت أحسبني كأغنى واحدٍ قدم المدينة عن زراعة فوم

---

[١] المعري، رسالة الملائكة، ص ١٥-١٦.

[١] نفسه، ص ١٦.

[٢] نفسه، ص ١٦.

[٣] سورة البقرة، آية ٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أم هو هذا الثوم الذي له رائحة كريهة وإلى ذلك ذهب الفَرَّاء"[١].

وينتهي المشهد الثاني حينما يسأل الراوي عن بناء الـريم، فينهيـان الحـديث بإظهـار تفوق تلك الكائنات العجيبة التي تستهين بمقدرة بنـي البشـر "تَربـاً لـكَ ولمـن سـميت أيُّ علمٍ في ولدِ آدم إنّهم للقوم الجاهلون"[١].

ثم يحاول التودد، في مشهد آخر جديد، إلـى مالـك (خـازن النـار)، ويمتـاز حـوار الراوي معه بالهدوء والـدعاء لـه بغيـة التحبـب، مُـدركاً وظيفتـه وارتباطهـا بالعـذاب والقسوة، مستعيناً بالسؤال من جديد "فأقولُ – رَحِمَك اللهُ– ما أوحـدُ الزبانيـة فـإن بنـي آدم فيهم مختلفون بعضهم الزبانية ولا واحد لهم من لفظهـم وإنمـا يجـرون مجـرى السواسـيةِ أي القوم المستوون في الشّر"[٢].

ويحاول الراوي بذكائه أن يمتصَّ غضب "مالـك" بأسـئلة متلاحقـة تجـذب المسـتمع حول نون غسلين، والنون في جهنم أهي زائدة، وهو يسـتعين بـاللفظ الغريـب كحالـة فـي نماذجه النثرية، فالمعري "كان يطلب الغريب من حيـث هـو كـأن الإغـراب زينـة ينبغـي أن يتحلى بها جيد أعماله"[٣]، وقـد يكـون تكلـف المعـري بالغريـب ليبـين مـا تحتفظـه ذاكرته، وليخفي مقاصده في نقـد واقـع عصـره[٤]، أو ليـؤدي واجبـه العلمـي، فالنزعـة التعليمية استدعت الغريب وليس التشدق "وربما كـان شـغفه بالغريـب مبنيـاً علـى تحقيـق الهدف التعليمي، فالغريـب يقتضـي الشـرح والتفسـير والتوضـيح، وتلـك أهـم جوانـب

---

[١] المعري، رسالة الملائكة، ص ١٦. مغاثير ومغافير: صمغ حلو يسيل من شجر يؤكل (لسان العرب، مادة غثر وغفر)

[١]المعري، رسالة الملائكة، ص ١٩.

[٢] نفسه، ص ٢٠.

[٣] ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص ٢٦٩– ٢٧٠.

[٤] علي، فاطمة محمد، الصورة الفنية في نثر أبي العلاء المعري، رسالة ماجستير، جامعة تشرين ٢٠٠٣، ص ٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التعليم"[١]، فهو يقول في أحد المواضع لخازن النار: "فأما سقر فإن كان عربياً فهو مناسب لقولهم: صقرتْهُ الشمس إذا آلمت دماغه، ويقال بالسين والصاد"[٢].

إلاّ أنّ مَالِكاً يَضعُ حداً لأسئلتهِ ومعلوماتهِ الصرفيّة واصفاً إيّاه بالجهل، ومستعيناً بطبيعتِه إذ كانت نبرتُه حادةً "فيقولُ مالكٌ: "ما أجهلك وأقلَّ تميزك، ما جَلَسْتُ هاهُنا للتصريفِ، وإنّما جَلَسْتُ لعقابِ الكَفْرة القاسطين[١].

وينتقل بعده إلى مخاطبة السائق والشهيد بطريقة ما عهداها، ويجهلان السبب الذي جعل الراوي يخاطبهما خطاب الواحد وهما اثنان، إشارة إلى قوله يا صاح، فيقولان: "لِمَ تُخاطبنا خطابَ الواحد ونحنُ اثنان، فأقول: ألمْ تَعْلَما أنّ ذلك جائزٌ"[٢].

يجتمع في مشهد آخر مع خمان (الجهابذة والعارف بطرق النقد) الأدباء، الذين قصرت أعمالهم عن دخول الجنة، ولكن لحقهم عفو الله فزحزحوا عن النار، ومرة أخرى يكون صوت الراوي هو المسموع، ويختبئ وراء أصوات الأدباء، مظهرا حاجة أهل الجنة لعلمهم الغزير، عامداً إلى وسائل الحيلة والإقناع، لعل "رضوان" يسمح بفتح أبواب الجنة، وإلا فكيف يأكل المتقون من الكمثرى، ويشربون من ماء الحيوان، ويستظلون بشجرة طوبى، ويفترشون السندس، ويتكئون على العبقري دون أن يعرفوا أصول هذه الكلمات وأوزانها واشتقاتها وحروف العلة فيها، والحروف الزائدة من الأصلية وغيرها، فقد نبّه الراوي إلى التطور الدلالي لغير لفظةٍ، فالعربية الأولى أصابها التغيير، ومن ذلك الإشارة إلى لفظة العبقري، يقول: "وهذا العبقريُّ الذي عليه إتكاءُ المؤمنين إلى أيِّ شيءٍ نُسِبَ فإنّا كُنَّا نقولُ في الدّار الأولى أنَّ العربَ كانت تقولُ عبقرٌ: بلادُ تسكنُها الجنُّ، وأنّهم إذا رأوا شيئاً جيداً قالُوا: عبقريّ؛ كأنّه من عمل الجنِّ إذ كانت الأنس لا تقدرُ مثله، ثم كَثرَ ذلك حتى قالوا: سيدٌ عبقريٌّ وظلّم عبقريّ"[٣].

---

[١] الحمصي، محمد طاهر ، مذاهب أبي العلاء في اللغة وعلومها، ص ١٦١.

[٢] المعري، رسالة الملائكة، ص ٢٣.

[١] نفسه، ص ٢٤.

[٢] نفسه، ص ٢٤-٢٥.

[٣] نفسه، ص ٤١-٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويستطرد في ذكر الكلمات باحثاً عن وزنها وتصريفها، كمّا في لفظة "سفرجل" مقدماً وجوهاً لتصريفها، ورأياً يختصُّ بهذه اللفظة، إذ لا يشتق منها فعل. يقولُ في معرض حديثه مع "رضوان":

"وما يحملُ بالرجل من الصالحين أنْ يُصيبَ من سَفَرجَلِ الجنَّةِ في النعيم وهو لا يَدْري كيفَ تصغيرُه وجمعُه ولا يشعرُ أيجوز أن يشتقَّ مِنه فعل أم لا، والأفعالُ لا تُشتق من الخماسيّة لأنهم نقصوها عن مزية الأسماء فلم يبلغوا بها بناتَ الخمسةِ وليس في كلامِهم مثل اسفرجل يسفرجل أسفرجالا"[١].

وهكذا فإن المعري لا يترك كلمة صعبة أو سهلة أو غريبة إلا وأتى بها في سياق النص فإن "كان أهلُ الجنّةِ عارفين بهذه الأشياءِ قدْ ألهمهم اللهُ العَلَم بمّا يحتاجون إليهِ فلن يستغني عن معرفته الوالدان المخلدون، فإن ذلك لم يقع إليهم"[٢].

وجدير بالذكر أن موقف الراوي يتناسب ومهمة الملائكة، فمعرفة الراوي لمهنة ملك الموت وملائكة العذاب: منكر ونكير والسائق والشهيد يجعله يتودد لهم، ويحاول أن يمتصَّ غضبهم. في حين يغضب ويكفهر خازن النار من إلحاح الراوي وسرده لثقافته الصرفية، يبتسم رضوان خازن الجنة، ويُجيب الراوي بابتسامة تنم على الرضا مبيناً حال أهل الجنة، فهم في شغل فاكهون، وأن هذه أباطيل زخرفت في الدار الفانية فذهبت، ويقول لهم: "فانْصَرِفوا– رَحِمَكم اللهُ– فقَدْ أكْثَرتم الكلام فيّما لا منفعة فيه، وإنّما كانت هذه الأشياء أباطيلَ زخرفت في الدّار الفانيةِ فذهبت مع الباطل"[٣].

ويُعدُّ الحوار من الأساليب الغالبة على رسالة (الصاهل والشاحج)، وقد عمد المعري في هذه الرسالة إلى اختزال الشخوص في شخصيتين في كل مشهد؛ فالصاهل والشاحج، والشاحج والجمل، والشاحج والضبع، والشاحج والثعلب، وهذا أشبه ما يكون بالعمل المسرحي الذي تتنازع رقعته شخصيات إحداهما رئيسية والأخرى ثانوية، وقد تمثلت أولى علاقات الحيوانات في تلك الأجواء بالصراع الذي يقود إلى خفايا السلطة

---

[١] المعري، رسالة الملائكة، ص ٢٨–٢٩.

[٢] نفسه، ص ٤٤.

[٣] نفسه، ص ٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسيادة، والظلم المتفشي في المجتمع وأوضاع الرعية الفاسدة التي تشهد على فساد السلطة.

وجرى الحوار بين الحيوانات في أثناء ورودها على حوض الماء متتابعة، والشاحج رابضٌ عند الحوض معصوب العينين، تمرُّ به الحيوانات الأخرى، وهو يسأل عن أحوال الأمة (العامة والخاصة)، واستطاع المعري في حوار طويل أن يثبت طول نفسه ومقدرته اللغوية، إذ يخلص إلى الحديث عن صفات الخيل وأسمائها وأهميتها، وكذلك وصف الإبل، أو يبرز الأبعاد الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك العصر، ويصف إنسان ذلك الزمن.

واتسم الحوار في مجمله بالطول المفرط، يُسقط فيه كل حيوان الآراء الخاصة به، ويتبين مدى سعة المقدرة والتفوق التي يمتاز بها كل حيوان ولاسيما الشاحج الذي امتاز حواره بالإقناع وتحكيم العقل والحجة الأقوى، وهو في حواره يستلهم أحداثا وشخصيات تاريخية وسيلة للبرهان.

واتكأت الحكاية في مشاهدها المختلفة على حوار بين الشاجح والشخصيات الأخرى، وغالبا ما كان يتحول إلى سرد على لسان الشاحج، وعلى ألسنة سائر الحيوانات؛ فالحكاية بدأت بحوار قصير بين الشاحج والصاهل، لكنه لا يلبث أن يتحول إلى سرد مطول تحدث فيه الشاحج عن معاناته، ثم يرد عليه الصاهل بسرد مطوّل، ويبقى السرد طويلاً مفصلاً باستثناء موضعين اثنين هما: الموضع الذي دخلت فيه الضبع في أحداث الحكاية؛ إذ دار حوار قصير بين ثلاث شخصيات: الضبع، والشاحج، والجمل إلى أن جاء الثعلب. أما الموضع الثاني فقد كان عند عودة الثعلب بعد غياب دام شهراً أو شهرين ليتبادل مع الشاحج حواراً قصيراً.

ومن هنا فقد تنوع الحوار بين الطول والقصر بناء على ارتكاز الشخصيات في عرض أفكارها على الحجة والدليل والتوضيح والأمثلة من مصادر متعددة؛ كذلك جاء الحوار في بعض المواضع متسماً بالطول المفرط الذي يقربه من السرد، ويدل في نهاية المطاف على قوة حجة الشخصيّة في تقديم المعلومات وقد يصل إلى حد الثرثرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما أن الحوار بين الصاهل والشاحج بدا قصيراً؛ إذ كانا في طور التعارف، وهو لا يتطلب حديثا طويلاً، إلا أن الحوار يطول في لحظات الخلاف والصراع ومحاولة الدفاع عن النفس، ويوحي حوار الشاحج بالقهر والظلم النفسي، فأول فعل قام به من استعاره من صاحبه أن جلب سوطاً ضربه به، فتَكوّن لديه حقد فأراد الانتقام، يقول الشاحج:

"حتى إذا اليومُ مَتَّعَ وَجُهدَ أقصى الرَّمَق، عثرتُ عثرةً، فإذا الغلامٌ قد سقط على الأمِّ البَرَّةِ. فلولا أني خشيت البارئَ لوطِئَتُ رأسَه وطأةَ مُتَثاقلٍ تُلْحِقه بعادٍ وثمودَ. ولكنّي رَهِبتُ العاجلَ من العقوبةِ، وهبت أن تكون له أمٌّ صالحةٌ فتدعَو عليَّ مَلِك الملوك. فقام سَليماً من صَدْعتِه، يَعْتمدُ كشحي بوبيله"[١].

وتبتدي الضغوط النفسيّة التي عاناها الشاحج، وقد ظهرت هذه الآثار على جسده الذي بدا منهكاً متصدعاً لشدة الألم، فبدأ يصف أثر المشقة في أعضاء جسمه، يقول:

"فحوافِري من العَفر عُبْرٌ، إنّما تقعُ بغبراءَ مَنعها القَدَمُ والسُّنبُكُ من النباتِ، وجحافلي من عُضِّ المِصْرِ متقرِّيات، وأعمامي من القُمْر الوحشيّةِ وربائط الأهل، كأن جحافلها من الخُضرةِ مُسبَداتُ المُقْتبَلين"[٢].

وبما أن مقصد الصاهل مِصْر حيث الحضرة، يكشف الحوار أن كل ما ذكر تمهيد من الشاحج ليطلب إيصال بيتين من الشعر إلى الحضرة حيث النية والمقصد، يقول للصاهل لما لاحظ فتوراً في همته متكئاً على الاستفهام:

"فما بالي يا خَالي، لا أعرفُ فيكَ بشاشة للمسألةِ؟ لا تكُنْ من الذين إذا طُلِبتْ منهم الحاجة سكتوا، وإذا سُئلوا الشيء المُعْرض نَكَتوا"[٣].

---

[١] المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ١٠٠. الأم البرة: الأرض (ابن منظور، لسان العرب،: مادة برر)، الوبيل: الحزمة من الحطب والعصا الغليظة (نفسه، مادة وبل).

[٢] المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ١٠١. العفر: التراب (ابن منظور لسان العرب، مادة عفر)، العض: علف الإبل من يابس الحشيش (نفسه مادة عضض)، المصر: الطين الأحمر (نفسه، مادة مصر)، (مسبدات المقتبلين: إذ ابتدأ الشارب ينبت بعد الحلق (نفسه: مادة سبد). وينظر معاني الكلمات حاشية الصاهل والشاحج، ص١٠١.

[٣] المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ١٠٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويجره الكلام إلى قضايا جانبيه، فهو يأتي على تأكيد الخؤولة التي تربطه بالصاهل، ويبين أن الخال أثبت من العم؛ لأن الرجل يشك في نسبه من أبيه، ولا يشك في نسبه من أمه، ثم يصف أثر صوته في الصاهل، فيقول:

"وكأنّي بقِلّةِ الجَدّ قد شَنَّعتْ صوتي في أذنِك، وأساءَت تُقبتي في نظرك، وضعَّفت حوَاري في لُبّك"(١).

ثم يأتي على تصنيف القدر وأنواعه مستخدماً الفعل المضارع، فالقدر نوعان: جَدٌّ وحَدّ، "فالجدّ يَرْعى النِّعم وربُّه نائم... والحدُّ يُخْرجُ الأكْلة من فم الغَرْثان حتى يُلقيها في جُولِ القليب، ويُقلّد المُخَدَّرة ذاتَ العِفةِ قلائد الرَّوَادِ المَومِس..."(٢).

ويبدو الصاهل مستاءً وغاضباً من كلام الشاحج، وجعل كل ما قاله كذباً، كما يخفي الصاهل في كلامه حنقاً وضيقاً نافياً العلاقة بينهما باستخدام لفظة (الزعم)، ثم يسأله أسئلة استنكارية مبينا إصابته بالخبل حتى بدا غير مميز للأشياء فتساوت وهي ليست كذلك، وإنما شتان بين الأمرين، ثم إنه يوجه كلاماً قاسياً إلى الشاحج، موظفاً في ذلك حصيلة معارفه من الأمثال العربية الدالة على الحط من شأن الآخر، يقول:

"أغَرَّك أنّ جاهلاً من القوم كان يدعو أمَّك فرساً؟ ليت لسانه من قبل ذلك أشْعِرَ خَرَساً. حنَّ شُجَيْرٌ في الرَّبابة، وضَبَحَ دِرصٌ في الغابة. كيف تُنسَبُ الحُوَّاءَة إلى السَّخبْرة، والوَبْرُ المُتَوَقّلُ إلى وَبْرَةِ ؟"(٣).

ويبلغ الحس الطبقيّ أعلى درجاته، حين يقولُ الصاهل كلاماً موظفاً فيه دلالات إشارية تاريخية، يقول:

---

(١)المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ١٠٧.

(٢) نفسه، ص ١٠٧-١٠٨. الغرثان: الجوع الشديد (ابن منظور، لسان العرب، ماد غرث)

(٣)المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص١١٣-١١٤. الربابة: الجلدة التي تجمع فيها السهام (ابن منظور، لسان العرب، مادة ربب) الشجير، الغريب من الناس والإبل (نفسه، مادة شجر) ويضرب المثل "حنّ قدح ليس منها" في الرجل يدخل نفسه في القوم ليس منهم(أبو علي القالي: إسماعيل بن القاسم (ت ٣٥٦هـ)، أمالي القالي ٢٠٠/١) الدرص: ولد الفأرة واليربوع والقنفذ والكلبة والذئبة ونحوها (ابن منظور، لسان العرب، مادة درص). الحواءة: بقلة لازقة بالأرض (نفسه، مادة حوء)، السخبر: ضرب من الشجر: (نفسه، مادة سخبر)، المتوقل: الصعود إلى الجبل (نفسه، مادة وقل)، وبرة: دويبة أصغر من السنور (نفسه، مادة وبر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وإذا دعا العبدُ سَيَّد القوم عَمَّـه، فغيـرُ آمـن أن يرجَـع لطـيمَ الوجـه. وإذا الأمـةُ أرادت أن ترضعَ ولدَها من ثدي الحُرَّةِ السَّيدة، جاز أن يُرَدَّ أملهـا بالنَّجْـهِ. مـا ظنُّـك بـ "جليلة، أختِ جَسَّاسٍ" يدعوها ابن الراعية: يا خَالَـة؟ ومـا قولـك فـي "بنـت الخُرشـب أم الكملة" يهتفُ بها ابنُ العبد المُجدَّع: يا أُمَّه؟"[١].

ويستنكر عليه حديثه عن المعاناة من مصائب الـدهر، سـائلاً عـن الحيوانـات أيهـا لا ينصب أو يعاني، حتى إن الهَمَّ والمعاناة ممتدّان إلى صـدور بنـي البشـر، يقـول: "وأيُّ شيءٍ من أصنافِ الحيـوان لا يَنْصَـبُ ويُقصَـبُ؟ ألا تعلـم أنّ بنـي آدم ملـوكَ الأرض، لا يَعْدَمون هماً آنبا وسهماً من سهام القدر صائباً؟ في كلِّ صَـدْرٍ مـن النـاسِ شُـجونٌ، ولكـل نطفةِ أجون"[٢].

وهنا تتعدد المواضيع المطروحـة، فالحيوانـات تنسـلُّ مـن موضـوع إلـى آخـر، ولكنها كلها في النهاية تصب في نقد العامة والسلطة معاً، فإذا كـان كـلام الشـاحج محركـاً للصراع فإن محرك الأحداث يتمثل في ردود الصاهل الذي يمثـل أنفـة الـبعض مـن بنـي البشر، فشخصيّة الصاهل ترمز إلى رؤى فكريـة غرسـت فيـه وتجـذرت، فهـو يتحـدث عن الخيول ورفعة نسبها وقيمتها العظيمة للبشر، واعتـزاز العربـي بهـا فهـي أداتـه فـي المعارك، يقول:

"فأمّا نحن معاشـر الجَبْهـةِ، فنُرمـى بهوادينـا الغمـراتُ، وتَشْـهَدُ علـى ظهورنـا الغارات" وقلمّا اطّرد فريقان من العرب إلا وأجْلى النقـع الثـائر عـن قتيـلٍ مِنّـا وَعقيـر، وبذلك سلفت العادة من قديم الزمن"[٣].

---

[١] المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص١١٤. النجه: أقبح الرد (ابن منظور، لسان العرب، مادة نجا)

فاطمة بنت الخرشب الأنمارية، من بني بغيض بن ريث بن غطفان، منجبة جاهلية، يضرب بها المثل: "أنجب من فاطمة بنت الخرشب الأنمارية" وكانت امرأة زياد بن سفيان العبسي، وولدت له أربعة أبناء يوصفون بالكملة (الميداني، مجمع الأمثال ٤٠١/٣)

[٢] المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ١١٥.

[٣] نفسه، ص ١١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحرك الصاهل مشاهد وصوراً تعبر عن وظيفة الشاحج ذات الصِّلةِ بجذور تاريخية غرضها التحقير، مشتملة على مقارنة بين الشواحج والخيول في المعارك، فيرى أن شأن الشواحج في حمل الأمتعة، يقول بنبرة فوقية:

"كم بين معيشة في دَعةٍ، وكَبدٍ بالأسَّنةِ مُتَصَدّعة! وإن كانت الشواحج في شقاء فإنها لا تهلك أوان اللقاء... فمتى أصاب أحداً من رهطِك سِنانٌ بشَرّ، أو قُتِلَ في كَرٍّ وفَرٍّ؟ وهل حُدِّثتَ عن بعضِ أسْرتك أن مَهنَّداً أفْرَى عنقه، أو أصاب المِفْصَل فَطبقه"؟[١].

ويزداد المشهد توتراً في التقليل من دور الشواحج؛ فهم كحمام الحرم يأتيهم القضاء فيموتون؛ إذ إن أسرة الشاحج لا يصيبها أذى الحسام أو القتل في الكرِّ والفرِّ. ثم يبرز ما لحق الشواحج من أذى بني البشر لما له من أثر في نفس الشاحج، فمع خدمتهم لهم ونقلهم إياهم من مكان إلى آخر فإنهم يلحقون بهم الذل والهوان، وقد اتكأ في مقالته على ما ضربوا من مثل، وما قالوه من شعر للإساءة إلى الشواحج، يقول: "وَلَمْ يكفِ وَلَدَ الإنسانِ ما أحلّوا بأسرتِك من الكَدِّ والهُون، حتى أتبعوا ذلك قبيحَ المقال، فَضربوا المثَلَ بهن في الذُّل، وقرنوا إليهن في التشبيه من يستغبون من الرّجال، وقال قائلهم على وجه الدهر:

إنّ الهوانَ حِمارُ الأهلِ يَعرفُه والطِّرْفُ يُنكرُه والجَسْرةُ الأَجُدُ"[٢]

ولما جاء على ذكر قيمه الشاحج للإنسان، راح يبين مشاهد من الصراع بين الحيوانات وقوانين البشر: ويذكر الحيوانات والمعاناة التي نالتها من بني البشر كالإبل وتعذيبهم المطايا وإطعامهم إياها للذئب، والبقرة التي استعملوها ثم إذ كبرت أسنوا لها السكين، وكيف أفاد المجتمع من بنات بعرة(الغنم) في اللحم والجلد، ولا يقف أذى الإنسان على الأليف من الحيوان بل تجاوزه إلى الوحش البري، يقول موظفاً المثل

---

[١]المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ١١٦-١١٧.

[٢] نفسه، ص ١١٩. الجسرة الأجد: الناقة القوية الموثقة (ابن منظور، لسان العرب،: مادة جسر)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدال، والمعري معنيّ في نثره بالأمثال، وقد يوردها كما هي، أو بزيادة أو حذف فيتصرف بالمثل وَفقاً للحاجة، يقول:

"ولم يَكفه ما فعلَ في البهائم الأهليةِ حتى عَمِد للوحش الباهلة. يانارُ، أما يقتصرُ شرارُك على أن يحترقَ بهِ جارُك، حتى يسافرَ إلى أبعدَ؛ ما أعظمَ أذاتك"[١]!

ثم يستطرد في إنكاره على الشاحج دعواه المتكررة قول الشعر، فعالم الخيل كما يرى أولى العرب من كل الحيوان، إلا أنها لا تدّعي قول الموزون وإنما تلك فضيلة للبشر، ثم نَصّ على الاستخفاف من صوته، يقول:

"وقَدْ علمت أن صوتَك له نوعان: الحَمْحمة والشَّحيج. وكلاهما لا مَسْلك له في الموزونات"[٢].

وبعيداً عن تتابع الحوار فقد ظهر رأي المعري الذي اختبأ وراء بقية الأصوات، واستطاع به أن ينقل أفكاره ويقدم كثيراً من نقده، وهكذا تصبح الذات الجوهرية العميقة تياراً مستمراً لعدة آراء، فهو على سبيل المثال لا ينتقد الأديان، وإنما يوجه نقده لأتباعها الذين قد يكونون ضرراً لغيرهم، فالعلاقة في الدين بين العبد وربه، وقد ظهر هذا متجليا على لسان الثعلب بعد أن وجه أسماء رجال النصارى من الروم على سبيل الفال والطيرة، مستخدماً أسلوب المقابلة حين قال:

"ولستُ أبغضُ على الملةِ، لأنها بين ابن آدم وبين ربّه، وإنما أحَبُّ الناس إليّ أكثرهم نفعاً لي، وأبغضهم إلى نفسي من كثرت منه مضرتي"[٣].

وتتحكم الحيوانات في المادة اللغوية، وتسير بها إلى بعيد لمصلحة المسلمين في صراعهم مع الروم، فالثعلب تطيرٌ بأسماء الأماكن على الروم، فأي طريق سلكوا جعل مصيرهم الهزيمة، معطيا للأماكن قيمتها، يقول في زعيم الروم:

---

[١] المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ١٣٠.

[٢] نفسه، ص ١٦٢.

[٣] نفسه، ص ٦٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"إنّ هذا الطاغية إن أخذ طريقَ (مَرْعَشَ) فقسمناها شطرين، ...، فإنّ شطرها الأوّلَ من قولك: مرّ فلانٌ وذهبَ أي ماتَ وهلكَ، وَعَش، مقِاربَةٌ لفظ: عشَّ الشَّجر، إذا يبس ورقه وقصرت أغصانُه"[١].

وتبدو الحيوانات مفسرة للفظة، وهذا التفسير يستجيب لرؤية المعري، فهي تجعل كل الأشياء المحيطة لمصلحة المسلمين لا الروم، فالمعري يوجه أسماء الأزهار والثمار متفائلاً بها للمسلمين، متطيراً بها على الروم، يقول الثعلب:

"ولَوَجَدَ الرَّيحانَ، رَيَّاً حانَ، والرَّي المصدر من قولك: رَوَيْتُ على الأسير بالرِّواء، وهو الحَبْل إذا شَددته ،...، وأمّا الرّيحان فهو للمسلمين ريٌّ حانَ. من ريّ العَطَش"[٢].

ثُمَّ إنّ المعري يختار قدراً كبيراً من الألفاظ مما هو أقرب دلالة وأكثر إيحاءً بما يريد التعبير عنه، يقول في بعض الثمار متفائلاً، ولم ينس ربطها بعزيز الدولة، ومن ذلك قوله:

"والسُّماق، للسّيد "عزيز الدولة"–أعزَّ الله نصره– فألٌ بالسُّموق، لأنّه جَمْعُ سامق، أي: أصحابه يَسْمُقون ويَعْلون، وإذا حملناه على الطِّيرة للعدوّ فهو:سُمٌ أقَّ أي اطّلعَ[٣].

وهكذا فقد أصر المعري بما "أوتي من قدرات لغوية ، وثروة واسعة، على أن يأتي بما لم يستطعه الأوائل؛ إذ عزم على أن يأتي بالغريب، وبما سبق به قومه من علوم اللغة ليظهر مكانته الأدبية واللغوية"[٤]؛ ويتجلى هذا الأمر في وصفه صوت الإبل، إذ ينتقل من لفظة إلى أخرى، يقول:

---

[١] المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ٦٥٠. مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق. (الحموي، معجم البلدان، ١٢٦/٥)

[٢] نفسه، ص ٦٧٣–٦٧٤.

[٣] نفسه، ص ٦٧٥.

[٤] رزق، صلاح، نثر المعري، ص ١٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"والإبل أكثر افتناناً في الأصوات؛ لأنّ من أصواتِها الحنينَ، والأطِيط، والسجعَ، والتحوّبَ، والعَجيج، والجرجرة، والهدرَ، وأصنافه وهي: الفحيحُ والكتيتُ، والكشيشُ، والقصفُ، والقَرْمَرة، والزّعْدُ، والشَّحْشَحَة والقَلخ".[١]

ولإبراز مقدرته وثروته اللغوية، عمد إلى إظهار رغبة الشاحج في معاياة من في الحضرة من الفقهاء والمتكلمين ، ويظهر المعري قوة في الحجة وعلماً بفروع العلم، وقد تخيل الشاحج ما سوف يقوله للمتكلمين والشعراء في "بلاط عزيز الدولة"، يقول: كنتُ أقولُ للفقهاءِ: ماذا تقولون في رجُلٍ طاف بالكعبةِ سبعاً وهو يُنشِدُ "قفا نَبْكِ" ماذا توجِبونَ عليه؟ فإذا أجابوا، فرَّعتُها عليهم...، وكنت أقولُ للمتكلمينَ: أخبروني عمن يقول بقِدَم العالم: "أقِفَانبك" كانت قبل أمرئ القيس أم بعده؟ وأخبروني عن قفانبك، أجوهر هي أم عَرض، فإن قالوا: جوهر، فقد أحالوا في رأي المتكلمين، وإن قالوا عرض، قلت فالأعراض لا قوام لها في أنفسها، إنما تعرف إذا تعلقت بالجوهر"[١].

كما يكثر في حوار الحيوانات استخدام مصطلحات النحو والعروض لتعبر عما يريد. ويكون الاهتمام بتلك المصطلحات وصفاً تفصيلياً للشخصيات، فالرسالة التي يأتي على ذكرها مرتبطة بزعيم الروم، وهي امتداد للتوتر الداخلي من العدّو، يقول: "وزَعَمَتِ العامّةُ بجهلِها أنَّ رسالته إلى زعيمِ الرُّوم، أمسكَ عن جوابها لأمرٍ لا يُعْلَم، فَهَلْ شَعروا أنّ مَثَلَ رسالتهِ مَثَلُ واو القسم يجيءُ جوابُها بعد واو المهملة المتراخية، وإنْ ظنَّ السامع أنّ الكلام قد انفصلَ بعضُه من بعض؟ ألا ترى أنّ الواو في قوله تعالى ﴿والفَجْرِ﴾[٢] جاء جوابُها بينه وبينها ألفاظ كثيرة، وجملة معترضة وهو قوله تعالى: ﴿إنّ ربَّكَ لِبَالمِرْصَادِ﴾.[٣]".[٤]

---

[١] المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص١٦٣.

[١] نفسه، ص١٩٠.

[٢]- الفجر، آية ١.

[٣]- الفجر، آية ١٤.

[٤]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٤١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا كان الحوار قد كشف عن طبيعة الصاهل (الخيل) الذي يُعدُّ قناعاً رمزيّاً للعربيّ، فإنه كان وسيلة للتعامل مع قضايا المجتمع، ولذلك فقد كان الصاهل أداةً لبيان طبيعة الصراع الطبقي، وكانت الحيوانات المتحاورة أقنعة للواقع وأبعاده المختلفة. ومن ذلك أيضاً الثعلب الذي ظهر برؤية جديدة مشبعة بالتفاصيل، فقد خالف ما عُرف عنه من مكرٍ وخداع، وظهر بمظهر اللطيف الودود، واتّصف بصفات الحكمة والصدق، ولذلك وثق به الشاحج وطلب منه إحضار أخبار الجَفْلة، وبعد غيبة طويلة يعود، ويستقبله الشاحج بفرح غامر، ويقول كاشفاً عن أبعاد شخصيته:

"أهلاً بك يا أبَا كُتَع، كيف أدْراصُك وثُرمُلتُكَ؟ هل من جائبةٍ خبر عندك؟ إنك لبَريكٌ صدوقٌ، والبركة كُلُّها في الصِّدق ومَنْ وَلَع فليته في البحر ملعَ".[١]

كما أظهر الحوارُ الجملَ بأفقه الضيق، وسذاجة تفكيره، فهو لا يُعنّي نفسه بالنظر فيما وراء الظاهر من معنى باطن، إضافة إلى عجزه في نهاية المطاف عن حمل أخبار الشاحج المستطرفة؛ لذلك فقد كان كلام الشاحج ينسجم وتصرفات الجمل فيكثر الشاحج الدعاءَ عليه والسخرية منه، يقول في أحد المواطن مثلاً:

"يا عَوْدُ يا عَوْدُ لا قُدِّرَ لك جَوْد. نَقِبْتَ وحَقِبْتَ، وأصبتَ الفاحشة فعوقبتَ، ومُنِيتَ بالأوْقِ المثقل في صعود ذات الزقباتِ تحت الهاضِبةِ في الأرض المُقْدِرةِ...".[٢]

وتمثل شخصيّة الضبع من لم يخض تجارب واضحة في الحياة، فخبرتها بدت قليلة، مما سَهّل خداعها، فالشاحج يسخر منها لمّا جعلها أفضل بهيمة على وجه الأرض، وقد تمثل هذا في مشيتها وكبريائها، تقول:

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٦٠٩-٦١٠

أبا أكتع: ولد الثعلب (ابن منظور، لسان العرب،: مادة كتع). أدراصك: ولد الأرنب والهرة (نفسه: مادة درص). ثرملة: أنثى الثعلب (نفسه: مادة ثرمل), ولع: كذب (نفسه: مادة ولع). ملع: اختلسه (نفسه: مادة ملع).

[٢]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ، ص٣٨٠.

الجود: المطر الغزير (ابن منظور، لسان العرب،: مادة جود). النقبة: جرب في البعير (نفسه: مادة نقب). الحقب: احتباس البول (نفسه: مادة حقب). الأوق: الحمل (نفسه: مادة أوق). الزقبات: الطرق الضيقة (نفسه: مادة زقب).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"السلامُ عليك أيها الشاحجُ، إنّ لِمَا تَسْأل جهة ومَنْفَذاً، وفي نفسي سُؤالٌ كُنتُ أُريدُ أن أسأل عنه بعضُ العلماء، وقد سمِعتُ مخاطبَتكَ للجَملِ فدلّتني على فَهْمِك ومعرَفتِك، وقد عزمتُ أن أسألك مسترشدةً فأخبرنَي بما عِندكَ أسْعَ لكَ فيما تُحِبُّ إن شاء الله".[٣]

فيردُّ عليها الشاحج الذي عَلِم أنها من أحمق البهائم، فيقول:

"هلُمِّي لِلّهِ أبوك. فتقول: لي ثلاث كُنُى متجانساتٌ في اللفظِ: أمّ عامرٍ وهي المشهورة، وأمّ عُوَيْمر، وامّ عمرو... فأخبْرني أصلحك اللهُ، أيِاي عَنى القائلُ بقوله (من الوافر):

تصدُّ الكأسَ عَنَّا أمُّ عَمْرو وكانَ الكأسُ مَجْراها اليمينا".[٤]

ولهذا فإن شخصياته الحيوانية مستمدة من الواقع إلا أنه حملها بُعداً رمزياً لتغيير الواقع والسير نحو حياة اجتماعية أفضل، كما استبط قسماً آخر من شخصياته من الواقع التاريخي، وهي تشبه التاريخ في كونها صادقة ومؤلفة لعالم قائم من الأحداث، ويتمثل هذا فيما ذكره من شخصيات مثل "عزيز الدولة" وغيره في بلاط قصرهِ إضافة إلى الشخصيات الأدبية المشهورة المذكورة بكثرة.

وقد بدت واقعية الأحداث في تدرجها، فالشاحج شخصيّة واقعية مقنعة، ساهمت الأحداث المختلفة في تطويره، وقد أتى تطوره مع إحساسه بأمثاله المعذبين، وجاء تعاطفه معهم نتيجة طبيعية لِما صادفه من عمل شاق وجفلة ومحاولة مسايرة أصحابه في نهاية المطاف.

د- الشعر وسيلة لتقديم الشخصيّة:

لعل وجه الشبه الذي يجمع الشخصيات الرئيسية على اختلافها هو حفظهم للشعر واهتمامهم بالأدب، فابن القارح والشاحج والراوي، على تباين تصرفاتهم، فإنهم جميعا أظهروا امتلاكهم للشعر، ولذلك ظلت النصوص التراثية، ولاسيما الأشعار القديمة،

---

[٣]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٤٠٩-٤١٠.

[٤]- نفسه ، ص٤١٠. وقد ورد البيت في ديوان عمرو بن كلثوم، ص٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تسيطر على بناء النصوص السردية، والمعري يهدف بها إلى تجسيد المشهد أو تصوير الانفعالات النفسية للشخصيّة كما تروي العوالم الداخلية لها.

واستعان المعري بالشعر الذي يروي الشخصية، وهي من الوسائل الكثيرة التي أسهمت في تقديم الشخصيّة وفكرها الأخلاقي، لذا كان ابن القارح يمعن في قول الشعر، وأسرف كثيراً في الجنوح إليه، حتى بدا كأنه يتباهى به، مقلداً ما قاله غيره، فهو يتخذه معبراً إلى الجنة؛ وحيثما يرى رجلاً عليه نور يتلألأ يسأل عنه، فيقال له بأن الرجل حمزة سيد الشهداء، ومن حوله من استشهد من المسلمين في أُحُد، فيسرد ابن القارح بأفعال ماضية ما فعل معه، فيقول:

"فعمِلتُ أبياتاً على مَنْهَج أبياتِ "كَعْبِ بن مالك" التي رثى بها "حَمْزَة" وأولها (من المتقارب):

صفيَّة قُومي ولا تَعْجزي وبكّي النِّساء على حَمْزَةِ

... فقال: ويْحك! أفي مثل هذا الموطن تَجبُنْني بالمديح"[١].

وقبل ذلك كان قد انصرف إلى "رضوان"، يقول وقد "زيّنتَ لي النفسُ الكاذبةُ أن أنظِمَ أبياتاً في "رضوان"، خازن الجنان عَمِلْتُها على وزنِ "قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان" ووسَمتها "برضوان"، ثم ضانكتُ الناس حتى وقفت منه بحيثُ يسمعُ ويرى، فما حَفِلَ بي، ولا أظنه أبَه لما أقولُ. ،...، فتَركتُه وانصرفتُ بأملي إلى خازنِ آخَرَ يقالُ له: "زُفْرُ" فعملتُ كلمة ووسْمتُها باسمِه في وزن قولِ "لبيد" (من الطويل):

تَمَنَّى ابنَتايَ في أنْ يَعيشَ أبوُهُما وهل أنا إلا مِن رَبيعة أو مُضَرَ"[٢].

ومن هنا فإن الشعر كان حاضراً في رسالة الغفران، وهو يؤدي أدواراً مهمة في نسيج العمل، فهو يقوم بوظيفة استعراضية للبطل تدعيماً لبطولته القصصية، وإثباتاً

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٥٣. البيت ورد في ديوان كعب بن مالك ص٢١٧.

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٤٩-٢٥١. البيت ورد في ديوان لبيد، ص٢١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لتميزه عند الأدباء الآخرين من أهل الجنة، كما أنه مولد للسرد داخل كل المشاهد التي قام عليها النصُّ، ويستخدم أيضاً في مجالس الجنة للتسلية واللهو[١].

وهكذا فإن النصوص الشعرية في أعمال المعري النثرية جاءت للتعبير عن الحالة الشعورية التي تنتاب الشخصيّة السردية، وقد نوّع المعري في استخدامه لهذه النصوص؛ فالشعر يتغلغل في بنية النصِّ السردي ليستوحي دلالته التي تساير الواقع الاجتماعي والمتغيرات، ولم يأتِ منفصلاً عن النص السردي في الصاهل والشاحج، "ولعلّ المعري أدرك أكثر من غيره أهمية الشعر في رفد المشهد بنزعة درامية، فالشعر في رسالة الصاهل والشاحج يقوم بمهمة التشخيص الحركي للشخصيّة معبّراً بذلك عن وصفها الدرامي".[٢] فتارة تكون تعبيراً عن واقع الجَفْلة وآلامها، إذ إن آراء الناس في الجفلة تختلف، يقول مستعيناً بالشعر:

"وتختلف آراء الناس في هذه الجولةِ وغيرها من الجولاتِ، ويكون اختلافُها متبايناً كاختلافِ العربِ في النشيدِ: فالمقيمُ منهم مثلُه مثل الذي يقفُ على البيتِ المطلق إذا أنشده بالسكون، فيقول (من الوافر):

أقلِيِّ اللَّومَ عَاذِلِ والعِتابْ وقولي إن أصَبْتُ لقد أصَابْ[٣]

وتارة يكون الشعر تعبيراً عما سمع من أخبار زعيم الروم، فالمعري يستوحي الشعر ليعبر عن فكرة ما، فالأحداث تنسجم مع النصوص الشعرية وتخضع لمنطق السرد، يقول في وصف وجهة زعيم الروم: "... إلا أنه قد نَهَدَ عن كرسيّ مُلْكِه وقرُبَ من بلادِ المسلمين. وهو في ذلك يُخفي أخبارهَ ويضبط المسالك ويقطُع السُّبلَ، وليست هذه أفعال الملوك، إنّما أفعالُ المتلصّصين والخُرَّاب، كما قال الراجز في صفة الذئب:

هو الخبيثُ عينهُ قُرارُه
أطلسُ يُخفي شخصَه غُبارُه

---

[١]- روبي، ألفت كمال، تحول الرسالة وبزوغ شكل قصصي في رسالة المعري رسالة الغفران، فصول، م٣، ع٣، القاهرة ١٩٩٤، ص٨٧-٨٨.

[٢]- عبدالسلام، عبدالحكيم، أبو العلاء المعري ونظرة جديدة إليه، تمحيص نقدي حضاري وفني، ١٠٨/٢.

[٣]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٤٦٥. البيت في ديوان جرير، ص٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فـــي فمِـــــهِ شَقْرَتُه ونارُه
بَهْمُ بَني مخارقٍ مُزدارُه"[١].

وتتعدد النصوص الشعرية وتتنوع تبعـاً لخضـوعها لعلاقـات الـنص، فكـل معنـى يرتبط بالمعنى الذي يليه، والمعري لم يتخذ من الشـعر حليـة أو زينـة فـي السـرد، فقـد يكون ما يذكر حول أقوال الشـعراء بغـرض الاسـتخفاف والسـخرية، وتمثـلَ ذلـك فـي حديث الشاحج للضبع: "وكلُّ ما تسـمعينه فـي الشـعر الغَـزِل مـن أم عَمـرو وأم عـامر، فإياك عَنى به الشاعرُ؛ إذ لـيس فـي الأرض بهيمـةٌ أحسـن منـكِ، لاسـيّما مَشْـيُكِ، ألـم تسمعي قول الشاعر (من البسيط):

غَرَّاءُ فَرْعاءُ مَصقولٌ عَوارضِهُا تمشي الهُوينا كما يمشِي الوجى الوَجِلُ

كأنّ مِشيتَها من بيتِ جارتِهـا مـرُّ السحابـة لا ريثٌ ولا عَجـلُ"[٢].

ونحا المعري منحى آخر في رسالة الملائكة متخذاً من كثـرة الشـعر الـذي استشـهد به وسيلة لمناقشة بعـض المسـائل الصـرفية واللغويـة، كشـأن سـائر أعمـال المعـري النثرية، فقد ظهر الشعر للتدليل على صـحة هـذه الفكـرة، أو دعمهـا أو تأييـدها، أو لنقـد حجة والتدليل عليهـا، كمـا أن ورود هـذا الشـعر لا يتعـدى البيـت أو البيتـين، فيكـون استيعاب معناه وربطه بالمعنى العام للرسالة من الأمور المعينـة علـى فهمهـا فـي سـياقها، المثيرة للإعجاب بمعانيها."ولقد وفق أبو العلاء في هـذا المجـال أيمـا توفيـق. وبلـغ مـن ذلك أنه يقدم جزءا من المعنى في النثر، ثم يتممه في بيت من الشـعر، حتـى يبـدو الشـعر وكأنه جزء لا يتجزأ من الكلام المنثور السابق والتالي له"[٣].

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٦٤٣. فراره: كشف عن أسنانها لينظر ما سنها(ابن منظور، لسان العرب، مادة فرر)، مزداره: مقصده (نفسه مادة زار).

[٢]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٤١١. غراء: بيضاء (ابن منظور، لسان العرب، مادة غري)، فرعاء: كثيرة الشعر طويلة الوجه (نفسه، مادة فرع)، الوجى: الذي حفي حافره أو قدمه (نفسه، مادة وجي).

[٣]- العلواني، مصطفى، رسالة المعري، رسالة الملائكة للمعري، مجلة التراث العربي، دمشق، ع١٥-١٦، يوليو ١٩٨٤، (د. ص)، جوجل مجلة التراث العربي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ذلك إقامة الحجة على أصل مَلَـك، فـالراوي دائمـاً يحـاول أن يقنـع الملائكـة بوجهة نظره مستنداً إلى الشعر، "فأقولُ أصل مَلَك مَألَـك وإنّمـا أخـذ مـن الألوكـةِ وهـي الرسالةُ ثم قلب، ويدلنا على ذلك قولُهم الملائكـةُ فـي الجمـع وأن الجمـوعَ تـردُّ الأشـياءَ إلى أصولِها. وأنشده قول الشاعر (من الطويل):

فلستُ لإنسْيٍّ ولكن لملأك تنزل من جو السماء يصوب"[١].

ومحاولته إثبات مفرد الزبانية بإخضاع كلمـات شـبيهة لهـا فـي الـوزن الصـرفي كسواسية "فأقولُ رحِمَك اللهُ ما أوحدُ الزبانيةِ فإنّ بني آدمَ فـيهم مختلفـون بعضـهم الزبانيـة لا واحد لهم من لفظهم إنما يجرون مجـرى السواسـية، أي القـومُ المسـتوون فـي الشّـرِّ، قالَ الشاعرُ (من الطويل):

سواسية سوء الوجوه كأنما بطونهم من كثرة الزاد أوطب

ومنهم من يقول واحد الزبانية زبينة وقال آخرون: واحدهم زبَّنيٌّ أو زُبْنيٌّ"[٢].

هـ-المكان والشخصيّة

ظهر المكـان فـي رسـائل المعـري الحكائيـة فـاعلاً أساسـياً، ومحركـاً رئيسـياً للشخصيات واستحوذ على أبعـاد الأحـداث جميعهـا، ومـارس سـلطته وسـطوته؛ ولـذلك تمحورت الشخصيات حوله، فالشخصيات غالباً ما تتأثر به وتتفاعل معه.

وهكذا فإن المكان الجديد في الغفران والملائكـة يشـكّل بُعـداً ذا أهميـة؛ فقـد شـحن المعري الجنة بشخصيات عجيبة تتوافق وتركيبة المكـان وطبيعتـه المـذكورة فـي الأثـر، وقد أوحى بطبيعة المكان من بداية الرسالة حين جعـل اللغـة تُحلّـق معبـرة عـن أجـواء العالم الآخر، يقول:

---

[١]- المعري، رسالة الملائكة، ص٦.

[٢]- نفسه، ص١٩-٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وتجري في أصول ذلك الشَّجر، أنهارٌ تُخْتَلجُ من مـاءِ الحيـوان، فـي الكـوثرُ يمـدُّها في كلِّ أوانٍ؛ من شرب منها النُّغبة فلا موتَ. قد أمِـنَ هنالـك الفَـوتَ، وسُـعُدٌ مـن اللـبن متَخرِّفات، لا تُغَيَّرُ بأن تطولُ الأوقاتُ. وجعافرُ من الرحيق المختوم...". [١]

ويمتلك ذلك المكان بمزاياه قدرة فائقة على تشـكيل أمزجـة الشخصـيات، وهـو فـي الوقت نفسه يمثل مشهداً مثيراً للخيال والجمـال، ويحمـل مـذاقاً متميـزاً، وينطـوي علـى الراحة، فليس غريباً أن نجد في الجنة صفاء وابتعاداً عـن كـل المكـدرات، فمـن فيهـا لا يخوضون فيما يخوض فيه ابن القارح من مسـائل الأدب والنقـد، فقـد كـان ابـن القـارح متأثراً بقضايا دنيوية منهمكاً فيها، لذلك فقد بدت سـيطرة الحيـاة الـدنيا علـى تفكيـر ابـن القارح، فكل ما حاول أن يفكر به إنما هو امتداد لحقيقة دنيويـة أو شـبيه لمـا كـان يـراه، فهو ما زال متعلقاً بكل ما هو دنيوي، لذلك ظهرت المقارنـة الواضـحة بـين خمـر الـدنيا والآخرة، كما ظهر إصراره على إحضار طهـاة حلـب فـي مشـهد آخـر علـى الترتيـب يقول:

"ويَذكُر – أذكَره اللهُ بالصَّالحات – ما كَانَ يلحق أخا النِّـدام، مـن فُتـورِ الجَسـدَ مـن المُدام، فيختارُ أن يَعرضَ له ذلك من غير أن يُنَزفَ له لُـبٌّ، ولا يَتَغَيَّـرَ عليـه خُـبٌّ، فـإذا هو يخال في العِظام النَّاعِمَةِ دَبيبَ نَملٍ".[٢]

"حَصلَت النُّحوضُ فوقَ الأوَفاض، والأوْفـاضُ مِثـلُ الأوْضـام بلُغـة طـيء؛ قـال – زادَ الله أمرهَ من النَّفاذِ – أحْضِروا مَن في الجَنَّةِ مـن الطُّهـاة السـاكنينَ بـ"حَلَـبَ علـى مَمرِّ الأزمان فتَحضُرُ جماعةٌ كثيرةٌ فيأمُرُهم باتِّخـاذِ الأطعمـةِ وتلـك لـدّة يَهَبُهـا اللهُ عَـزَّ سُلطانُه".[٣]

---

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص١٤١–١٤٢، سُعد: مجاري الماء إلى النهر (ابن منظور، لسان العرب، مادة سعد). متخرفات: متسعات (نفسه، مادة خرق).

[٢]– المعري ، رسالة الغفران، ص ٣٧٧–٣٧٨. خبّ: الأرض الغامضة (ابن منظور، لسان العرب، مادة خبو).

[٣]– المعري، رسالة الغفران، ص٢٧١–٢٧٢. النحوض: اللحم (لسان العرب، مادة نحض)، الأوضام: خشبة يقطع عليها اللحم (نفسه، مادة وضم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمكن القول، إن المعري كان ينحو في الجنة إلى ملامح دنيوية معروفة امتدت إلى غير شخصيّة، وكأن الشخصيات لم تألف بعد ما في الجنة فما زالت ألفاظها ممتدة إلى الحياة الدنيا، وما تشتهيه، من ذلك قول المعري في الرواية عن الشخصيات: "ويعَرضُ لهم لبيدُ بن رَبيعة، فيدعوهم إلى مَنْزله بالقيسيّة، ويُقسمُ عليهم ليذهبن معه".(١)

كما أنّ أبا ذؤيب يوصف بأنه يحتلب ناقة في إناء من ذهب، "فيقولان: حُيِّيتَ وسَعِدتَ، لا شَقِيتَ في عَيْشِك ولا بَعدت، أتَحتَلِبُ مع أنهار لبن؟"(٢)

وقد تنسجم غير شخصيّة مع أجواء الجنة ويهالهم ما يرون وينسون الماضي ممثلاً بالحياة الدنيا وما فيها، لذا بدت ردود فعل ابن القارح محيرة لمن حوله، فهم لا يكادون يفهمون أغراضه، لذلك تبقى أسئلته الأدبية بلا جواب بين الموجودين، لمّا طرأ سؤاله حول قضايا في شعرهم، يقول متعجباً في غير موقف:

"أفنسيت يا أبا عبدالرحمن وأنت أذكر العرب"(٣). "لا أراك تفهم ما أريده من الأغراض (٤) "ولا مَلامة إذا نسيت ذلك". (٥)

وقد احتلت الجنة حيزاً مهماً مترامي الأطراف، وهذا الاتساع اللامحدود للجنة، جعل فيها كل عجيب ومرتفعة عن الواقع إلى أقصى درجة متوقعة في: البشر، والحيوانات، وطبيعة الأماكن، ويعكس هذا الوجود مدى الشعور بالراحة والطمأنينة؛ إذ عمد المعري إلى الاستعانة بأماكن محيطة بالشخصيات أبرز ما فيها تحقيق المتعة واللذة لمن يقطنها، لذلك أكثر من ذكر رياض الجنة والقصور والأنهار، وغيرها، ومن تلك المشاهد وصفه لجمال السحب بقوله:

١- المعري، رسالة الغفران، ص ٢٦٨.

٢- نفسه، ص١٩٩.

٣- نفسه، ص٢٧٩.

٤- نفسه، ص١٩١.

٥- نفسه، ص٢١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"فيُنشِئ اللهُ -تعالت الآؤه- سحابة كأحسن ما يكونُ من السُّحبِ من نَظَرَ إليها،...، أنّه لم يرَ قطُّ شيئاً أحسنَ مِنها، مُحلاةٌ بالبرق في وسَطِها وأطرافها، تمطِرُ بماءِ وردِ الجنةِ من طلٍّ وطشٍّ، وتنشرُ حصى الكافور فإنّه صغارُ البَرَدِ".(١)

ومن المشاهد الأخرى في الجنة الوصف المستمر للرياض، وهذا الوصف المستمر يحكمه الانتقال من مكان إلى آخر، بحثاً عن أديب آخر ويكون ابن القارح مرتكزاً في تحديد ماهية المكان، وما فيه من قصور، يقول: "وينظُرُ الشَّيْخُ في رياض الجَنَّةِ فيرَى قصْرين مُنِيفَين، فيقولُ في نفسه: لأبْلُغَنَّ هذين القَصْرَيْن فأسَألَ لِمَنْ هما؟ فإذا قرُب إليهما رأى على أحدِهما مكتوباً: هذا القَصْرُ لِزُهَير بن أبي سُلمَى المُزَني وعلى الآخَر: "هذا القصْرُ لِعبَيدِ بن الأبرص الأسَدي".(٢)

والجنة بدت متعددة الدرجات، وليست سطحاً جغرافياً واحداً، مما يدفع للالتصاق بالمكان وإبراز مشاعر مختلفة، ومعظمها ترتبط بالشعور بالمفاجأة وانتظار شيء جديد سيظهر، فهنالك أمكنة مختلفة وأنماط من الفضاء متعددة: الرياض، والكثبان، والأهاضيب، ومدائن الجنة، يقول في وصف مشاهد متعددة:

"فلا يلبثُ أن ينزلَ على تِلكَ الرُّوضةِ ويقفَ وقوفَ مُنتظرٍ".(٣)

"ألهمنا أنْ نسقطَ في هذه الرّوضةِ فنُغني لِمن فيها".(٤)

"فإذا هَو ضَربَ في غيطانِ الجنةِ، لقيته الجارية التي خرجت من تلك الثمرةِ".(٥)

الثمرةِ".(٥)

"فيركبُ بعض دوابِ الجنةِ ويسيرُ، فإذا بمدائنَ ليست كمدائنِ الجنةِ"(٦)

١- المعري، رسالة الغفران، ص ٢٧٦.

٢- نفسه، ص١٨١-١٨٢.

٣- نفسه، ص ٢١٢.

٤- نفسه، ص ٢١٢.

٥- نفسه، ص ٢٨٨.

٦- نفسه، ص ٢٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"فاتبعيني بين كُثبِ العَنبر وأنقاءِ المِسكِ. فيتخللُ بها أهَاضِيبَ الفِردَوس ورمالَ الجِنانَ".[١]

ولم يقتصر دور المكان عند المعري على حضن الأحداث، لذا أعطاه في الغفران دوراً فاعلاً، إذ أسهم في تشكيل البشر بفعله الجغرافي الممتد، وقد ظهر هذا بالتحولات البادية على الشخصيات، فهو حيز مليء بالمتغيرات، وله دور أساسي ومهم في تكون الشخصية، فلم يقتصر فعل المكان على ابن القارح وحده، بل أعطى الأفراد القدرة على التحول والتغير، وأكسبهم جمالاً وبصائر نافذة وثروة عظيمة، ولذلك فقد شحن الأماكن العجيبة بقدرة عجيبة على تكوين شخصيات خارقة، فالحيوانات متكلمة وناطقة وتدرك ما يدور في خفايا الإنسان، كما أن المكان غيّر أيضاً في ملامح البشر، واختزن طاقات جديدة غريبة ومنح قدرة على رؤية مخلوقات لا يمكن رؤيتها كالجن والملائكة، وهكذا تتفاعل الشخصيات مع المكان، فتفقد خصوصيتها السابقة، وتصبح قابلة للتغيير، ويكتسب كل من انخرط في المكان ملامح ترتبط بالمثوبة على فعل دنيوي، فالمحرومون يعوضون في الحياة الآخرة، وهكذا فالأعشى أضحى عشاه حوراً معروفاً وانحناء ظهره قواماً موصوفا[٢]، وحميد بن ثور يكون في مغارب الجنة فيلمح صديقه بمشارقها، وقد كان يقول (من الطويل):

"أرى بصري قد رابني بعد صحةٍ وحسبك داءً أن تصح وتسلما"[٣]

والعوران الخمسة عيونهم[٤] من أحسن عيون أهل الجنة، وكذلك امرأة تدعى حمدونة[٥] زهدت بعد نفور زوجها منها فأصبحت في الجنان من أجمل نساء الأرض، وأخرى تقول لابن القارح، "أنا "تَوفيقُ السَّوداءُ" التي كانت تَخُدُم في "دار العِلم ببغدادَ" على زَمانِ "أبي منصورٍ محمد بن علي الخازن" وكنتُ أخرجُ الكتَب إلى النُّسَّاخ فيقولُ:

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص ٣٧٢.

[٢]- نفسه، ص١٧٧-١٧٨.

[٣]- نفسه، ص٢٦٣.

[٤]- نفسه، ص٢٣٧.

[٥]- نفسه، ص٢٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا إله إلا اللهُ، لقد كنتِ سوداءَ فصِرتِ أنصَعَ من الكافور وإن شئِت القافورَ. فتقولُ: أتَعْجَبُ من هذا، والشاعر يقول لِبَعْضِ المخلوقين (من البسيط):

لو أنّ من نورهِ مِثقالَ خَرْدَلَةٍ في السُّودِ كُلِّهمُ، لابْيَضَّتِ السُّودِ"[١]

ويلقى ابن القارح زهيراً[٢] وكأنه لم يشكُ من كِبر العمر؛ لما يرفل فيه من شباب وفتوة وقوة، وكذلك لبيد، يقول:

"أنا بحمد اللهِ في عَيشٍ قَصَّر أن يَصِفَه الواصفون. ولَديَّ نواصفُ وناصفونَ. لا هَرَمَ ولا بَرَم. فيقولُ الشيخُ: تَبارَكَ المِلِكُ القُدُّوسُ وَمن لا تُدْرِكُ يَقِيَنَهُ الحُدُوسُ، كأنَّك لَمْ تَقُلْ في الدَّارِ الفانيةِ (من الكامل):

ولقد سَئِمَتُ مِن الحياةِ وطولِها وسُؤال هذا الناسِ: كيف لَبيد؟"[٣]

وجدير بالذكر أن المكان في الغفران يمتلك خصوصية مميزة، تنعكس هذه الخصوصية بأثرها على الشخصيات التي تشعر بالرضا، فما أن يخطر ببال أحدهم خاطر أو يظهر اشتهاءه الشيء حتى يراه أمامه، فلا عناء ولا تعباً أو شقاء في الحصول على أي شيء.

وطالما أن الجنة مُنِحت لغير شاعرٍ بفضل شعره، فإن للمكان دوراً واسعاً في بيان قيمة الشخصيّة ، ومسرحاً في أسرار النفس الإنسانية وخفاياها، فالمعري يوظف جزئيات العالم الخارجي توظيفاً فنياً موحيّاً ليكشف عن أعماق الشخصيّة وحقيقتها في الحياة العاجلة، فالحطيئة ينال الجنة بعد هياط وميـاط (أي شدة وأذى)، وظهر بيته في أقصى الجنة حقيراً، وكأنه بيت لعبدة ترعى الماشية إلى جانبه شجر حقير،[٤] إذ كان

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٢٨٧

[٢]- نفسه، ص١٨٢.

[٣]- نفسه، ص٢١٥.

[٤]- نفسه، ص ١٨٣-١٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في حياته سيء السمعة لهجائه المتكرر، وهكذا فإن أوصاف الأمكنة ترتبط بالشخصيّة وقد أسقط المعري عليها أحاسيسه ومشاعره ونقده للأدباء.

وقد ارتبطت الجنة أيضاً في رسالة الغفران بالشِّعر، والمفاهيم الأخلاقية التي يحض عليها الأدب، كما سعى الراوي إلى تقديم فضاء جغرافي يشكل نقطة انطلاق من أجل تحريك خيال القارئ، أو من أجل تحقيق استكشافات منهجية للأماكن، كما تمثل في الجولة التي قام بها ابن القارح. [١]

ثم إنّ القسم الثاني من رسالة الغفران فيه حديث مطول عن الزنادقة والزندقة، وأماكن انتشارها، وقد ظهر الإلحاد في الإسلام مبكراً، على أن ظهوره كان يختلف قوة وضعفاً بحسب الإقليم، وتبعاً لظروف الزمان والمكان: فهو في الأطراف البعيدة عن مركز الخلافة أقوى منه في الوسط، وهو بعد أن مازج العرب غيرهم، أشد استفحالاً مما كان في جزيرتهم".[٢]

ولعل اليمن من تلك الأماكن التي أشار إليها المعري، إذ كثر فيها المدعون ومن فسدت عقيدته فادعى الربوبية، يقول المعري:

"وقد كان باليمنِ رَجلٌ يَحتَجبُ في حصنٍ لـه، ويكونُ الواسطةُ بَيْنَه وبينَ الناسِ خادِماً لهُ أسْوَدَ قد سماه "جبريل"، فقتلهُ الخادِمُ في بَعضِ الأيَّام، وانصرَفَ، فقالَ بعضُ المُجَّانِ (من مخلع البسيط):

تَبارَكَ اللهُ في عُلاه فَرَّ مِنَ الفِسقِ جَبْرئيلُ

وظلّ مَنْ تزعُمون رَبَّاً وهوَ على عَرشِهِ قتيلُ"[٣]

ومن ذلك أيضاً الإشارة إلى المكان وكثرة المحتالين فيه والغاية من وراء ذلك المال، يقول:

---

[١]- لحمداني، حميد، بنية النص السردي، ص٥٣.

[٢]- عبدالرحمن، عائشة، رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، ص١٨٣-١٨٤.

[٣]- نفسه، ص٤٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وما زال "اليَمنُ" منذ كان، مَعـدِناً، لِلمُتكسـبينَ بالتـديُّن، والمُحتـالين علـى السُّـحْتِ بالتَّزيُّن، وحدَّثني مَن سَافر إلى تلك الناحيةِ، أنّ بهِ اليـومَ جماعـةً كلَّهـم يَـزعُم أنَّـه القـائِمَ المنتَظَرُ، فلا يَعْدَمُ جبايَةً من مالٍ، يَصِلُ بها إلى خَسيسِ الآمال".[١]

أما في رسالة الملائكة، فقد تمثل المكان في طمـع الـراوي ومـن معـه مـن الأدبـاء في دخول الجنان، ويفرض عليهم ذلك الأمر أن يستعرضـوا مهـاراتهم حولـه ومـا يشـتمل عليه؛ فهم يحاولون أن يناقشوا صرفياً كل ما فيه. وبقـدرة فنيـة عاليـة اسـتطاع المعـري أن يرسم ملامح الجنة متخذاً من النص المأثور المؤكد دليلاً لـه، فلـم يكـن المكـان مجـرد وعاء للأحداث، وإنما فجّر طاقة الأدباء، وقـد ظهـر الاعتنـاء بأصـول اشـتقاق الكلمـات التي وردت في القرآن الكريم في وصف نعـيم الجنـان: كالاسـتبرق والعبقـري والسـندس وشجرة الطوبى وماء الحيوان وحور العين والآرائك والولدان المخلدون.

ويأتي الفضول والسؤال الحائر، ومحاولـة حشـر الـنفس وإقحامهـا، فكيـف يتـأتى لمن في الجنة أن يأكلوا من نباتها ويشربوا مـن مائهـا، ويتكئـوا علـى مـا فيهـا دون أن يكونوا عارفين بأصول تلك الكلمـات وأوزانهـا واشـتقاقها وحروفهـا الزائـدة والأصـلية، لذلك تعلو أصواتهم محاولة الإقناع علهم يدخلون الجنة، يقولون:

"وإن كان أهلُ الجنةِ عارفين بهذه الأشياء قـد ألهمهـم الله العلـم بمـا يحتـاجون إليـه فلن يستغنى عن معرفته الولدان المخلدون، فإن ذلك لـم يقـع إلـيهم وإنـا لنرضـى بالقليـلِ بما عندهم جزاء على تعليمِ الولدان".[٢]

ومن هنا فإن الجنة بصفاتها وخصائصها حملت قيمـة خاصـة بهـا، فكـل مـا فيهـا مطمح ومطمع مناسب لهؤلاء المنتظرين، لـذلك اتخـذوا مـن قضـايا الصـرف المحيطـة بمكنوناتها ذريعة للوصول إليها، ومن هنا توالـت المواضـيع الخاصـة المطروحـة، ومـن ذلك الحديث عن حور العين، يقول:

" هل يدري ما معنى الحور ومن أي شيء اشتقت هذه اللفظـة فـإن النـاس يختلفـون في الحور، فيقول بعضهم هو البياض ومنه اشـتقاق الحـوّاري مـن الخبـز والحـواريين إذا

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص ٤٤٢.

[٢]- المعري، رسالة الملائكة، ص٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أريد بهم القصارون والحواريات لذا عني بهن نساء الأمصار، وقالَ قومٌ الحورَ في العين أن تكونَ كلها سوداء وذلك لان يكون في الإنس وإنما يكون في الوحوش"[١] وكذلك قوله: "والذين يشربون ماء الحيوان في النعيم المقيم هل يعلمون ما هذه الواو التي بعد الياء وهل هي منقلبة كما قال الخليل أم هي على الأصل كما يرى غيره من أهل العلم".[٢]

أما المكان في رسالة الصاهل والشاحج فيتعدد ويتنوع، وتبدأ أهمية المكان منذ بداية الرسالة، فهي تختصُّ بالأرض (المظلمة) التي تتعلق بأبناء أخي المعري، فتلك الأرض كانت محطّ السؤال والاهتمام، يقول:

"ولهؤلاء القوم أرَيضةٌ ليست بالأريضةِ، هي من قلّةِ العملِ كالمريضةِ وغِراسُها ليس بعميمٍ، وثمرُها بين الثمَرِ كبني يربوعَ في بني تميم؛ إلا أن أولئك حُمِدوا في الغارةِ".[٣]

وتكون تلك الأرض المكان الأول في القصة حيث مورد الماء، وتتمثل فيه مكاشفة النفس ومراجعة الذات بأسرارها، فعند بئر الماء تظهر حقيقة الحيوانات وهي تتحاور، وهكذا فإن المكان يوحي بالكشف والإفصاح والمواجهة، وباعث من البواعث التي تشكل نفسية الشخصيّة الذي من شأنه أن يخلق صراعاً بين الأفكار المطروحة يقول:

"ولا يمتنعُ في قدَرةِ اللهِ، أن يَردَ فارسُ كُمَيتٍ أو وَرْدٍ، فإذا شَرَعَ في نَميرِ ذي بَرْدٍ، ربطَه بالكَثبِ من المَثاب".[٤]

ثم فقد ركز الشاحج على إيقاع الحياة اليومي للناس فحسّ المكان في نفس شخوصه ينبع من الحياة الجماعية، وأتى على ذكر المكان وتصرف من فيه، ومواقف

---

[١]- المعري، رسالة الملائكة، ص٣٨.

[٢]- نفسه، ص٣٦-٣٧.

[٣]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٨٩.

[٤]- نفسه، ص٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشخصيات من معرة النعمان حيث جفلة الناس وجولتهم، وقد شكل المكان لهؤلاء مصدر حماية من الأخطار الخارجية، ثم تتلون مشاعر ساكنيه بحسب ما يجري، وشعورهم أن المكان سيتعرض للبؤس والخطر حملهم على الانشداد لغيره، إلا أن الحيوانات تعي قيمة المكان وتنشد إليه، فقد كان شأنه أيضاً أن يخلق ألفة حميمة بينه وبينهم، وهذا ما يفسر ارتباط حلب عامة ومعرة النعمان خاصة على ألسنتهم بالجُمل الدعائية، فهي حصينة منيعة يقول المعري معظماً على ألسنة الحيوانات:

"ومثلُ "حَلَبَ" حرسَها اللهُ مثلُ عِنْدَ، ومثلُ "السيدِ عزيزِ الدولةِ" – خلَّدَ اللهُ مُلْكَه– مَثَلُ مِنْ، ولا يجوزُ أن يَدخُلَ على عِنْدَ شيءٌ من الحروفِ العواملِ غيرُ مِنْ".[١]

وأيضاً الإشارة الأخرى حينما يقول: "وإنّما مَثَلُ أعمالِ "السِّيدِ عزيزِ الدولةِ" –أعزَّ اللهُ نصرَه– مثلُ الدوائرِ الخَمْس التي تجمعُ أوزانَ الشعر:

الأولى: "حلبُ، حرسها اللهُ" وهي دارُ المملكةِ.

الثانيةُ: "معرةُ النعمان" وما كانَ مثلها.

الثالثة: "كفر طاب وحماة" وما كان مثله...".[٢]

ولا يخفى أهمية المكان، وهو يشي بارتباط الشاحج به وتفضيله، لذلك فقد لجأ إلى تصوير الأوضاع السياسية باستخدام أسلوب "الفأل والطيرة"، وقد استغل ذلك في السخرية، مبيناً جزءاً مهماً من مقدرته اللغوية، كما أنه تأكيد منه على ضرورة البقاء في حلب، لأن الخروج منها سيكلفهم كثيراً، فأينما اتجهت الجالية لقيت تعباً وعناء ومشقة، فالتنكر والتذبذب بين النفور والحب يتضح في تصرفهم، يقول:

"وإنّما ذكرتُ ذلك لأخبرَ أن الجالِية إذا عَمَدتْ لِلشرقِ والمنازلِ المتقدِّم ذِكْرها في كراهةِ الأسْماءِ، كانوا قد أخذوا بما يكرَهُه بعضُ الناس. ولو قُدِرَ لهم التوفيقُ لأجمَعوا على السيرِ إلى "حَلَبَ" حَرَسها الله"، لأنّ في دُنُوِّهم إلى الحَضْرةِ العاليةِ أعظَمَ

---

[١]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٤٢١.

[٢]– نفسه، ص٦٤– ٦٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سعادةٍ وأسَنْى حَظٍّ".[١] وامتداداً لذلك، فقد جعل المعري كل ما يحيط بمعرة النعمان أهلاً للفأل والخير والنصر، وما يحيط بالعدو أهلاً للهزيمة والانكسار يقول في دلالة لفظة "حلب" مثلاً:

"وأما "حلب" – حرَسها اللهُ– فلفَظُها يَحتملُ أمرْين كِلاهما فَألَ مَحْمودٌ: إنْ كانت من أحْلَبت القومَ أي نَصرتهم فحَسْبُها فألاً بالنصر. ويقالُ: للذين يَنصُرون الرجلَ من بَني أبيهِ أو قبيلهِ الحَلائبُ".

"وإنْ كانت من الحَلب، حلبِ اللَّبن، فحَسبُها بذلك خيراً وبرَكة. وقد رُوِيَ عن النبيِّ – صلى اللهُ عليه وسلم – أنّه دخل على امرأة فقال: "مالي لا أرى في بَيْتِك بَركة" "قالت وما البَركةُ؟ قال: "مالي لا أرى في بيتكِ شاةً. وإنما سمّى الشاة بَركة من أجلِ اللبن".[٢]

ثم إن الشخصيات بفقد المكان، تفقد الإحساس بالأمان، وتصبح عرضة للخطر وتفتقد الحماية، لذلك فقد كانت أية منطقة يحاول أن يلتجئ إليها الجالون يتحلق حولها الخطر، وقد أسهم المكان في وصف التشتت الذهني الذي ألمّ بشخوص الجالية في الفتنة وقرارهم الهرب، فالفوضى إحدى الملامح التي أحاطت بالصيدلاني ودكانه الذي كان مرتباً، وصاحب الدكان الذي يباع فيه الجوز واللوز، والبستان وعامله يقول المعري في وصف المكان :

"فأمّا الصَّيْدلانيُّ فكان دُكَّانُه مرتَّباً على أحسَنِ هيئةٍ... فانتفض ترتيبُ الدُّكان .. فترى الدُّكانَ وقد اختلط إهْليُجه بالعُنَّابِ والصبَار، وَوَتِيرُة المعلولُ بسَليلِ المُصَابِ وقد وقع فيه بعضُ الأدهان. وكذلك القاهي صار عُنجُدُه مع البَلسَن وخليطِ الضرو، وفُريَ

[١]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ٥١٠.

[٢]– نفسه، ص٥١١–٥١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عفزه بالقُمْروض، ولحِقَ في تَغيُّرِ الهيئةِ بالصيدلاني"[١]، أما العامل فقد "يَئِسَ العامِلُ مِمّا في البُستان فَيذرُ الاستقاءَ. وأفوزُ بالراحَةِ بَعْضَ ساعةٍ من اليوم، فأكونُ كما قيل في المَثَل" نَعيمُ كَلْبٍ في بُؤْسى أهلهِ".[٢]

والمكان الذي التجأ إليه الظاعنون، وهو ظاهرة مكانية جديدة، وقد بدأ ظهورها لتكون إحدى الظواهر المرتبطة بالهروب ونتائجه، وهو ذو مكونات خاصة، ويحمل صفات القهر والمرارة والفقر، فنتجت عنه أوضاع اقتصادية؛ إذ ساوى بين المعدم الفقير والغني، كما أظهر عطف الأغنياء على المعدمين الفقراء، كما كشف عن حقيقة المدعين للفقر، وأسهم في الكشف عن ضعف المرأة والطفل وعجزهما، وأثار الخصومات بين الشركاء، وقرّب بعض العلاقات، في حين نفر بين بعضهم، ولذلك فقد خلق الهرب حالة من التأزم بين المكان والشخصيّة، فهم لا يستطيعون اتخاذ قرار، يقول في وصف قلة الانسجام بين الجالين والمكان الجديد:

"وخرجتُ أقفّوا آثار الجاليَةِ فانتهى بي الأثر إلى "تلٍّ مَنَّسَ" وقد نزل معظمُ الناس. فسمعتُ الجالية يَشتورون في المساجدِ والكنائس ويُديرون الرأيَ، فلا تنصرمُ لهم عزيمةٌ ولا تُبْرَمُ بأيديهم مِرّة" بل يَختلفون اختلافَ العربِ في الوَقْفِ".[٣]

والخوف كان أحد أسباب الهرب وارتبط هذا الشعور بالتوتر والقلق والغربة، لذلك تصبح الأماكن الجديدة موحشة مرعبة، وأظهرت المعالم النفسية للشخوص، وراح

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص ٤٥٠-٤٥١-٤٥٢. الصبار: التمر الهندي (ابن منظور، لسان العرب، مادة صبر)، الوتير: نور الورد (نفسه، مادة وتر)، سليل المصاب: ما يؤخذ من قصب السكر من عسل وسكر (نفسه، مادة سلل)، عنجد: العنب صار عنجداً (نفسه، مادة عنجد)، البلس: الزبيب والتين (نفسه، مادة بلس)، الضرو: البطم (نفسه، مادة ضرو)، العفز: الجوز (نفسه، مادة عفز)، القمروض: اللوز (نفسه، مادة قمرض).

[٢]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٤٥٣، ويضرب المثل (نَعيمُ كَلْبٍ في بُؤْسى أهلهِ) في الرجل الذي يتنعم في مال غيره (الميداني، مجمع الأمثال، ٣٧٦/٣).

[٣]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٥٠٦. تل منس: حصن قرب معرة النعمان بالشام (الحموي، معجم البلدان، ٥٢/٢).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعري يعلل أخطاءهم ويرى أن الأساس فيها خوفهم لذلك لم تكن الأماكن الجديدة مستقراً وحامياً لتلك الشخصيات، يقول:

"ولقد تركَ أولئكَ القومُ، أعني الذاهبين عن أوطانِهم، جهة الحزامةِ وهم عليها مُقتدِرون، ولو كاتَبوا الحَضْرةَ العالِية مُنتَصِرينَ بما يَفِدُ عليهم من الآراءِ، لكُفُوا مئونة الرحلةِ. ولكنهم هابُوا الحَضرةَ وأعظموها، وأعرضَتْ لهم الفائدةُ فأعرَضوا عنها، وأرادوا التخفِيفَ عن السلطانِ – أعزَّ اللهُ نصرَه– فثقَّلوا على أنفُسِهم".[١]

وقد كان الخوف من وصول الجالية إلى بيوت الأعراب سبباً في الإسهاب في وصفهم، وبعداً آخر في الحديث عن مجتمع صفته التحول وعدم الاستقرار، كما يتمثل فيهم البعد الطبقي في عدد الأعمدة التي يؤسس عليها البيت، يقول:

"وما كَانَ في بيوتِهم مبنياً على ثمانيةِ أعمِدةٍ أو نسائجَ ثمانٍ، فهو يُشبُهِ ما كان الشِعْرِ على ثمانيةِ أجزاءٍ، وتلك بيوتُ أمرائهم وأملاكهم والذي يُبنى من بيوتهم على ستةِ أعمدة ،...، وهذه دون تلك في الرتبة، وهي لِمن دون الأمراءِ ،...، وما كان من بيوت الباديةِ على أربعةِ أعمدة أو مبنياً من أربع نسائجَ فهي بيوتُ العامّةِ ،...، وما كان مِنْ بيوتِهم على ثلاثةِ أعمدة أو مبنياً من ثلاثِ نسائجَ فتلك بيوتُ الضعفاءِ والعبيدِ".[٢]

فالمكان يتساوى مع مشاعر الشخصيّة وأفكارها، ولم يكن معزولاً عن الشخصيّة، فدلالات المكان وإشاراته تعكس بشكل كبير نفسية ساكنيه، وهنا فإن ذكر بيوت الأعراب يُعدُّ مفتاحاً لمعرفة شظف عيشهم وخشونة تصرفهم، فالمعري يسخر من بيوتهم لينال منهم، ويتمثل هذا الأمر في معرض تحذير الجالين من النزول في أرض الأعراب وبيوتهم، يقول:

---

[١]– المعري ، رسالة الصاهل والشاحج، ص٥١٢.

[٢]– نفسه، ص٥١٥–٥١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"وأحذِّرُ الجالية من بيوتِ الأعـرابِ. يـا حَضَـريةُ لا تَصـلُحين لِجَـوار البدويـةِ! إنّ بيتَ الأعرابيةِ من الشَّعْرِ وكأنه بيتُ الشِّـعْرِ إنّمـا هـو رائـحٌ وغـادٍ، يَسْـلُكُ بهَضْـبٍ أو وادٍ...". [١]

ويصف منهجهم وسلوكهم في الحياة، فهـو يـذم بيـوتهم وأسـلوب معيشـتهم ونظـام حياتهم، فهم لا يراعون النظافة في حياتهم؛ ولذلك تعافهم حتى القينة الحضرية، يقول:

"إنّ الكلبَ إذا ربَضَ بفنائهم لا يُكهر، وإذ ا ولغ فـي إنـائِهم لـم يُطّهـره، لـو حَلَّـت فيهم قيْنة الحَضر لجُنَّ جُنونُها من عيشٍ مذمومٍ".[٢]

وبعد أن يطيل المعـري فـي وصـف بيـوتهم، وابتعـادهم عـن الفصـاحة موظفـاً العروض والشعر وعلماء اللغة، يظهر أنه ليس المقصـود بيـوتهم وإنمـا سـوء تصـرفهم، فهم يتواطئون مع العدو في الشدائد، ويخذلون مـن يجـاورهم، ويظهـر هـذا فـي معـرض إخبار الشاحج الثعلب عن عودة الجالين سالمين:

"وقد وقاهَم اللهُ صحبة العربِ وتتبـعَ الميـاهِ معهـم، لأنَّ الباديـة لـو قـرُبَ العـدُوّ –خَذله الله – لم يَنزلوا بأهلِهم إلا فـي مَظـانِّ الأمْـنِ، ومـن منـازلهم "الصُّـبَيْرَةُ" واسـمُها مجانِسٌ اسمَ الصبر. وفي بعضِ الحدَيثِ "لأن أُعَـافى فأشـكُرَ، أحَـبُّ إلـى مـن أن أُبتَلـى فأصْبرَ" والصُّبيَرةُ كثيرةُ الأسْدِ وكانَ فيها بَعضَ السَّنينَ أَسَـدٌ يَقـالُ لـه "الصُّـبَيْرىُّ" تتنـاذرُه العربُ لا يقامُ له، دهاءً وجرأةً. [٣]

ثالثاً: كيفية تقديم الشخصية:

الراوي:

تتخذُّ ذات المعري في رسائله، ممثلة فـي ضـمير المـتكلم، نقطـة البـدء والنهايـة، فغالباً ما تتحرك القصة بالبدء والنهاية إليها دائماً، وهي التي تمـلأ وحـدها البنـاء الحكـائي

---

[١]– المعري ، رسالة الصاهل والشاحج، ص٥١٤.

[٢]– نفسه، ص٥١٨.الكهر: القهر ووالانتهار (ابن منظور، لسان العرب، مادة كهر).

[٣]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٦٢٤–٦٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتشحنه بالسؤال والهواجس الفردية. وكلّ ما حول هـذهِ الـذات إنّمـا هـو تمثيـل لحالتهـا الخاصّة ومعاناتها الفكريّة والنفسيّة. أمّا الشـخوص والأشـياء المحيطـة فغالبـاً مـا تمثـل تراجيعَ تردد الصوت المحوري وتعطيه أبعاده المتنائية، يقول المعـري فـي مقدمِـة رسـالة الغفران:

"قد عَلِمَ الجَبْرُ الذي نُسِبَ إليه "جبرائيـل" وهـو فـي كـلِّ الخيـراتِ سـبيلٌ، أنّ فـي مسكني حَماطةً ما كانت قطُّ أفانِيَةً، ولا الناكَزةُ بها غانية، تُثمـرُ مـن مـودةِ مـولاي الشـيخ الجليل – كَبَتَ اللهُ عَدُوَّه، وأدامَ رَواحَه إلى الفَضْـل وغُـدُوَّه- مـا لـو حملَتـهُ العاليـةُ مـن الشّجر، لدنَت إلى الأرض غُصونُها، وأذيل من تلك الثمرةِ مَصُونُها".[١]

ويبدو إحساس المعري بالمكـان دلالـة علـى الواقـع النفسـي وإسـقاطاً للحاضـر، وتستمدُّ رسائله أهميتها مِن ارتباطها بتجربته الخاصّة ومـا يتصـل بهـا فـي ذلـك الـزمن، وبما أظهره فيها من مظاهر البؤس، فما يقع أمامه يتخذُ صـورة قاتمـة يتجلـى فيهـا قـبح المحيط كما يتصوره، والأوصاف جميعهـا التـي يُقـدمها فـي الرسـالة تـتلاءم والحـزن النفسيّ العميق، لذا فهو يمارس وجـوداً متمـرداً علـى واقـع مـريض، وقـد راح يصـف منزله بصورة تشي بهذا المحيط العليل، وهو يقصـدُ ابـن القـارح ومـن يتصـف بأخلاقـه من الأدباء وهم أهل ذلك العصر يقول"وأنّ في منزلي لأسْـوَدَ، هـو أعـزّ علـي مـن عنتـرة على "زبيبة"[٢] وأكرمُ عندي من "السَّلِيْكَ" عند "السَّلكهِ"[٣]. [٤]

---

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص١٢٩–١٣٠. (الجبر: العبد، وروي في جبريل وميكائيل، وذكر الأصمعي معنى أيل الله فأضيف جبر وميكا إليه (ابن منظور، لسان العرب، جبر)، حماطة القلب سواده، والحماط أيضاً من ثمر اليمن معروف عندهم يُؤكل، وهو يشبه التين، وحماطة أيضاً جنس من الحيات، شيطان، (نفسه، مادة حمط)، أفانية: نبتّ ما دام رطباً، فإذا يبس فهو الحماط (نفسه، مادة فني)، الناكزة:حية لا يدري ما ذنبها من رأسها ولا تعضّ إلا نكزاً أي نقزاً (نفسه، مادة نكز)، الغانية: التي غنت بحسنها عن الزينة (نفسه، مادة غني).

[٢]– زبيبة: أم عنترة أمَة حبشية، وكان لها ولد عبد من غير شدّاد.

[٣]– السليك بن السلكة: هو السليك بن عمير، والسلكه أمه، فاتك عداء أسود من شياطين الجاهلية.

[٤]– المعري، رسالة الغفران، ص١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما يؤكد إمعان المعري في تصوير شذوذ العالم المحيط به الذي اتخذ منه موقفاً بالعزلةِ، أنّه كان ينتقي غير مشهدٍ يُعدُّ قاسياً في الحياة لما يتصف بهِ ببعدٍ عن العدالةِ والإنصاف، وخاصة حينما أكد ذكر: مسكني ومنزلي، وحين ذكر ما فيه من حيّات شديدات المكر والخطر والخبث: الحِضِبْ، وأسود.

ثم إنّ حالة الشعور بالضآلةِ التي يبديها المعري دائماً في مقدمةِ رسائله إلى الحدِّ الذي يصبح معه الفرد كائناً لا يساوي شيئاً يُشعر في الوقت نفسه بحالةٍ من التفوق الذي يتحول معه الشخص إلى كائن يُوازي في تفوقه العالم باتساعه ولامحدوديته، إذ يبدأ رسالته في (الصاهل والشاحج) بمقدمة تمهيدية يُسلمُ فيها على الحضرةِ العالية قائلاً بتواضع شديد:

"أسلّم على الحضرةِ العاليةِ تسليم العاجز المقصر، كما ينظرُ الهادي المُدْلِجُ إلى فَرْقدِ الليل، واليَمانُي المُشِيم إلى سهيل".[١]

إنّ مسألة الرمز واردة في مثل تلك المقدمات، مما يُوحي بالضيق والأسى والغضب الذي يُحسُّه المعري نتيجة لما وصلت إليه أوضاع البلاد. وتبدو صورة الهيمنة المكانية، فالحيز المكاني: "تحت الصَّبير" (السحاب الأبيض)"وثبير" (جبل في مكة) يُلامس الإحساس النفسي، فالوصول إلى تلك الحضرة يتطلب زمناً يتصف بالامتداد والطول كحال ثبير، كما يعني التعب الشديد والمعاناة كما في "تحت الصبير"، وهكذا صار التواضع طريقاً يسير فيه المعري ليصل به إلى رمزه، يقول بتواضع شديد فيما يملك من علم:

"ولو كنتَ بالغاً في العلم أطْوَرِيَّ[٢] لكُنْتُ في تلك الحضرة كالقَطْرةِ تحتَ الصَّبير، والحصاةِ إلى جانبِ ثبير. فما بالي وأنا مُثقل استعانَ بذقنِ[٣]، وطفلٌ بَهَشَ إلى يَفن"[٤].

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٨١.

[٢]- بلغ أطوريه "بلغ في العلم أي حديه يعني أوله آخره، وكان أبو يزيد يقول: بلغ أطوريه-بكسر الراء- على معنى الجمع، أي أقصى حدوده ومنتهاه (الميداني، مجمع الأمثال، ٩٣/٢).

[٣]- مثقل استعان بذقن يُضرب بالذي يستعين بما لادفع عنده. (الميداني، مجمع الأمثال٣/ ٢٤٧)

[٤]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٨١، اليفن: الشيخ الكبير (ابن منظور، لسان العرب، مادة يفن)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وارتبطت أحداث رسالة الملائكة في قسمها الأول بالراوي الذي بدأ الكلام بضمير المتكلم، فهو يريد أن يوهم القارئ بأن ما يجري من أحداث حقيقة، ويزيل من نفسه الشك، ثم إنّ هذا الضمير أراده المعري، ليعطيه الحقّ في الكشف وتعرية الواقع الذي تعيشه اللغة، فوظيفته تتمثل في قضّ ذاكرة المجتمع حينما شكّل عالمه الجديد في الآخرة. وناقش قضايا الصرف وأفاض. ومرّة أخُرى فإنّ المعري يفرض تواضعه، وقد وصف إبراهيم السامرائي تواضع المعري بالتقليديّ؛ وذلك ليجعل القارئ يُقرُّ بتفوق المعري وعلو كعبه على أسلافه في علم الصرف،[١] يقول المعري بتواضع واضح متحدثاً فيه عن كبر سنه ولزومه بيته وقلة معرفته التي توحي بعلمه الممتد:

"وكنتُ في غيسان الشبيبة أودّ أنني من أهل العلم فشَجنتني عنه شواجن غادرتني مثل الكرةِ وهي المحاجن فالآن مشيت رويداً وتركتُ عمراً للضارب وزيداً، وما أوثر أن يُزادَ في صحيفتي خطأ في النحو فيخلد آمناً من المحو وإذا صَدَقَ فجر اللمّةِ ،...، فأمّا أنا فَحِلْس البيت إلاّ أكِن الميت فشيبة بالميت ،...، وما رغبتي في كوني كبعض الكروان،...، كرا أطرق كرا أطرق كران النعام في القرى وحقّ لمثلي ألا يُسأل فإن سُئل تعين عليه إلا يجيب فإن أجاب ففرض على السامع ألا يسمع منه..." [٢].

وقد كانت صورة الموت إحدى القضايا التي أثارتها (الغفران) (والملائكة)، ويعدّها المعري على ما يبدو شكلاً من أشكال الخلاص والحرية في قول ما يشاء، إذ استهلّ رسالة الملائكة بموت المعري (الراوي) وكان الموت فردياً، في حين بدا الموت والانتقال إلى العالم الآخر في (الغفران) جماعياً وهنا يستمرّ الوجود بالراوي، وينتقل في الأزمنة

---

[١]- السامرائي، إبراهيم، مع المعري اللغوي ، ص٧.

الكروان: طائر ويدعى الحجل وجمعه كِرْوان، ويقال له إذا صَيد: أطْرِقْ كرا أطرق كرا أن النّعام في القرى (ويُضرب للذي ليس عنده غنَا، ويتكلم فيُقال له: اسكت وتوَّق انتشار ما تلفظ بهِ كراهة ما يتعقبه، وقولهم "إنّ النعامة في القرى أي تأتيك فتدوسك بأخفافها (الميداني، مجمع الأمثال، ٢/٢٨٥).

[٢]- المعري، رسالة الملائكة، ص٢-٥. غيسان: حدتها وقمتها (ابن منظور، لسان العرب، مادة غسن)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منتقياً ما يشاء من علوم، يقول في لحظته حين وافته المنية: "افترانـــي أدافـــع ملـــك النفـــوس... فيُعجبه ما سَمِعَ فينظرني ساعة لاشْتِغاله بما قُلتُ..." [١].

أمّا عن علاقة الراوي بنسيج الأحداث الحكائية في الغفران، فقـد كـان ثمـة انفصـال ظاهري بين الراوي وبطل القصة (ابن القارح)، ولكـنّ المعـري تـوخى فـي تقـديم قصـة الغفران طريقة في الرؤية متميـزة، واسـتطاع بهـا أن "يسـوق الكـلام علـى لسـان راوٍ مشارك في الأحداث، إلا أنه عليم بالظواهر والمكنونـات، فهـو يـذكرُ الأعمـال والأقـوال ويصف الأحوال وبهذا يتماهي في أكثر الأحيان مع المعـري، ويضـطلع بـدورٍ بـارزٍ فـي التوسط بين القُرّاء والكون والممثل في مختلف عناصره"[٢].

ثم يتبين أنّ الراوي يقوم "باتباع ابن القارح في الجنة، وينقل كـل مـا يقـع لـه فيهـا، وأنه يتردد في ذلك بين البروز والاختفـاء، فهـو يبـرز فـي الأوصـاف والتـنقلات وفـي تقديم الأشخاص أنفسهم فإذا ذاك تنحصر مهمتـه فـي ذكـر "يقـول" إعلانـاً عـن المـتكلم، ولقد جعل معرفته للوقائع والأشياء تفوق معرفتهم لهـا، ولـم يطلعنـا الـراوي علـى كيفيّـة حصوله على ما نقله لنا، ولكن انتماءه إلى زمن خـارج عـن الـزمن الـواقعي هـو الـذي مكنّه من حصول مثل هذهِ المعرفة".[٣]

وهكذا فالراوي في الغفران ملم بكلِّ شيء، يبـث خطابـه علـى لسـان الشخصـيات، كما يسيطر على شخصيات تنتمي إلى حقب زمنية مختلفـة: الـزمن الحاضـر ممـثلاً بـابن القارح الذي عاصر المعري، والـزمن الماضـي ممـثلاً بالأدبـاء والشـعراء مـن مختلـف العصور.

وبدا المعري راوياً من خارج السّرد؛ فلذلك اسـتخدم ضـمير الغائـب، وبخاصّـة فـي وصف المشاهد والتعقيـب علـى التصـرفات أو السـخرية أو الـدعاء السـاخر، وأحيانـاً

---

[١]- المعري، رسالة الملائكة ، ص٦.

[٢]- القاضي، محمد، جدلية النص السردي في رسالة للمعري، علامات في النقد، م٣١، ع٢، سنة ١٩٩٩، ص١٠٧.

[٣]- الواد، حسين، البنية القصصيّة في رسالة الغفران، ص٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يختفي وراء ابن القارح في استعراض مقدرته اللغوية، وينفصل عنه حينما يسخر من قلة عقله وتدبيره والانجراف وراء غرائزه بالتعامل مع الجواري.

وهنا يظهر الراوي الحقيقي حانقاً على ابن القارح ساخراً من أفعاله التي تنحو منحى دنيوياً، ويُلغز بهذا اللجوء إلى عبارات دعائية. ومن الأمثلة على تدخل الراوي في وصف حركة ابن القارح والتقائه غير شاعرٍ مستعيناً بالفعل المضارع ليضفي إيقاعاً أن ما يحدث حقيقة، يقول:

"ثم إنّه – أدام الله تمكينه– يخطرُ لهُ حديث شيءٍ كان يُسمّى النُّزهة في الدّار الفانيةِ فيركبُ نَجيباً من نُجب الجنَّةِ".[١]

"فيلتفتُ إليه الشّيخ هَشَّاً بَشَّاً مرتاحاً، فإذا هو بشابٍّ غُرانِقٍ غَبَرَ في النَّعيم المُفانِق وقد صارَ عَشاه حَوَراً معروفاً وانَحناء ظهره قواماً موصوفاً".[٢]

"ويَمرُّ رفّ من إوزِّ الجنة فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة، ويقف وقوف منتظرٍ لأمرٍ ومن شأن طير الجنة أن يتكلم".[٣]

"فَيَجِيءُ به إلى حدائقَ لا يَعلمُ كُنْهها إلا الله"[٤]، "فَيَرْكبُ بعضَ دوابِّ الجنَّةِ ويسيرُ فإذا هو بمدائنَ ليستْ كمدائنَ الجنّةِ ولا عَليها النور الشعشعاني، وهي ذات أدحال وغماليل... فيعرّج عليهم فإذا هو بشيخ جالس على باب مغارة"[٥] "فيُخَلّفه ويمضي، فإذا هو بامرأةٍ في أقصى الجنَّة قريبة من المُطَّلَع إلى النّار"[٦]، "ثم يضرب سائراً في الفردوس فإذا هو بروضةٍ مؤنقة، وإذا هو بحيات يلعبن ويتماقلن، ويتخافَتْنَ

---

[١]– المعري، رسالة الغفران، ص١٧٥.

[٢]– نفسه، ص١٧٧–١٧٨.

[٣]– نفسه، ص ٢١٢.

[٤]– نفسه، ص٢٨٨.

[٥]– نفسه، ص٢٨٩–٢٩٠.

[٦]– نفسه، ص٣٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتثاقلن"[١]، "ويذهبُ مهرولاً في الجنّة، ويقول في نفسه وكيف يُـرْكَنُ إلـى حَيّـة شَـرَفُها بالسّم".[٢]

ويسيطر الراوي على الحكايـة وشخوصـها ويوصـلهم إلـى نقطـة النمـو المنطقـي للأحداث؛ فهو يقوم بوصف سريان الغناء فـي الجنـان وأثـره فـي المسـتمعين، بتشـويق واضح ويُلمح إلى تحكم الراوي بالشخصيّة، ودوره أيضـاً فـي إظهـار عواطـف السـرور، فهو يدرك تمام الإدراك ما يعنيه غناء الجواري للمجتمعين، يقول:

"فَتَضْنَعُه فتجيء بهِ مطرباً وفي أعضـاء السّـامع مُتَسـرِّباً، ولـو نُحِـتَ صـنمٌ مـن أحجار أو دَفٌّ أشِرَ عنـد النّجـار، ثـم سـمع ذلـك الصـوت لـرقص وإن كـان متعاليـاً هبط...". [٣]

ويبدو الراوي حاضراً في السّرد ومسـتغرقاً فـي وصـف الشخصـيّة، وعلـى هـذا الأساس نما فعل القصّ، كما يبدو الراوي لصيقاً بالأحداث، فكـان شـاهد عيـان علـى كـل ما جرى ويجري، فهو يهتم بوصف حركة الجواري وتحولهن إلى إوز يقول:

"فينتفضن فيصرن جواري كواعـب يـرفلن فـي وشـي الجنـة، وبأيـديهن المزاهـر وأنواع ما يُلْتَمَس بهِ الملاهي. فيعجب وحُقّ له العجب، ولـيس ذلـك ببـديع مـن قـدرة الله جلّت عظمته".[٤]

ويفسح الراوي المجال لدخول الشخصيات، وقد أظهـر عـدداً كبيـراً مـن الأدبـاء إلا أن سيطرته كانت تتبدى في نسيج الحكاية، "فقد شاعت ظاهرة تلغـي الفواصـل بـين تمنـي الأشياء في النفس وتحققُها في الخارج"[٥]، فإذا تمنى ابن القـارح وعَـدي بـن زيـد والنابغـة والنابغة الذبياني والنابغة الجعـدي أن يكـون معهـم الأعشـى وقـالوا: "فكيـف لنـا بـأبي

---

[١]- المعري، رسالة الغفران، ص٣٦٤.

[٢]- نفسه، ص٣٧١.

[٣]- نفسه، ص ٢١٣.

[٤]- نفسه، ص٢١٢.

[٥]- درويش، أحمد، تقنيات الفن القصصي (عبر الراوي والحاكي)، ص٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بصير؟" فلا تتم الكلمة إلاّ وأبو بصير قد خَمَسَهم فيسبِّحون الله ويُقدِّسونه ويَحْمَدونه على أن جمع بينهم ﴿وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾".[١][٢]

ويكون لأفعال الحركة والحرية دور واضح في الكشف عن الشخصيات، فابن القارح حين تجول في الجنة مع عدي بن زيد اكتشف وجود غير شخصية، ومن ذلك قوله: "فإذا هما برَجُلٍ يَحتلب ناقةً في إناءٍ من ذهب، فيقولون: من الرّجل؟ فيقول: "أبو ذؤيب الهُذليُّ" فيقولان: حُيِّيت وسَعِدتَ..." [٣]

وحينما مضى ابن القارح في رحلته التقى بشابين يتحادثان "كلٌّ واحدٍ منهما على باب قصر من دُرّ، قد أعفي من البؤس والضُّرِّ، فيسلم عليهما ويقول..." [٤]

ثمّ إنّ الراوي قدّم حيزاً مريحاً يتسمّ بالاتساع والتنقل، فالأماكن التي استدعاها تحتمل خيالاً بعيداً، إذ استطاعت الكلمات رفع المعري من عالمه الأرضي إلى عالم الآخرة، وما تشتمل عليه، يقول في مقدمة الرسالة:

"وفي تلك السُّطور كَلِمٌ كثير، كلُّه عند الباري، تَقَدّس، أثيرٌ؛ فقد غُرس لمولاي الشيخ الجليل –إن شاء الله– بتلك الثناء، شجرٌ في الجنة لذيذ اجتناء، كلُّ شجرةٍ منه تأخذ ما بين المشرق إلى المغرب بظلِّ غاطٍ... وتجري في أصول ذلك الشجر، أنّهار تُختلَج من ماء الحيوانَ، والكوثرُ يمدُّها في كل أوانٍ...". [٥]

وللراوي تدخل واضح في تفسير اللغة، ففي غير موضع بدا المعري شارحاً موضحاً بأسلوب يتسم بالتعليمية، يقول: "فطال عليّ الأمد واشتدّ الظمأ والومد –والومد: شِدّة الحرّ وسكون الريح، كما قال أخوكم النميري (من البسيط):

كأنَّ بيضَ نعامٍ في مَلاحِفِها جلاه طلٌّ وقيظ ليله وَمِدُ".[٦]

---

[١]– الشورى، آية ٢٩

[٢]– المعري، رسالة الغفران، ص٢٠٤.

[٣]– نفسه، ص١٩٩.

[٤]– نفسه، ص٢٠١.

[٥]– نفسه، ص١٤٠–١٤١. غاط: مجتمع الماء والنبات (ابن منظور، لسان العرب، مادة غوط)

[٦]– المعري، رسالة الغفران،، ص ٢٤٨–٢٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي حديث الراوي عن الشجرة التي غُرست لابن القارح، يذكر معناها مستنداً إلى التُراث الشعري للتدليل عليها، يقول:

"ليست في الأعين كذات أنواط. وذات أنواط –كما يَعْلَمُ– شَجَرٌ كانوا يُعظمونّها في الجاهلية. وقد رُوي أن بعضَ الناس قال: "يا رسولَ اللهِ، اجعل لنا ذاتَ أنواطٍ كما لهم ذاتُ أنواطٍ". وقال بعضُ الشعراء (من البسيط):

لنا المُهيمنُ يكفينا أعادينا كما رفضنا إليه ذاتَ أنواط".[١]

أو يحاول الراوي تقريب المشهد بالاقتباس من القرآن الكريم، وهذا كثير، فقد كان المعري حافظاً للقرآن الكريم ومطلعاً على قراءاته، لذلك ظهر في كل أعماله، وقد تداخل النص القرآني مع البناء الحكائي وانصهر فيه، كما في وصف النحاة، يقول: "وقد أخمدا من الإحن كلَّ جمر والملائكة يدخلون من كل باب ﴿سلامٌ عليكم بما صبرتم، فَنِعْم عُقْبَى الدّار﴾[٢]".[٣]

أو يُعَقّب على أبيات شفاعة الأعشى، ويورد الآراء في إحدى الألفاظ مع نقدٍ واضح، يقول:

"وهو –أكملُ الله زينةُ المحافل بحضوره – يَعْرِفُ الأقوالَ في هذا البيت، وإنما أذكرها لأنه قد يجوزُ أن يَقْرَأ هذا الهَذيان ناشِئٌ لم يَبْلغه: حكى الفرّاءُ وحده (أغَار) في معنى غَار، إذا أتى الغَوْرَ– وإذا صَحّ هذا البيت "للأعشى" فلم يُردْ بالإغارةِ إلاّ ضِدَّ الإنجاد. ورُوي عن "الأصمعي" روايتان: إحداهما، أنّ أغارَ في معنى عدا عدواً شديداً، وأنشد في (كتاب الأجناس) (من الوافر):[٤]

---

[١]– المعري، رسالة الغفران ، ص١٤٠–١٤١. ذات أنواط: شجرة كانت للمشركين يعلقون بها سلاحهم (ابن منظور، لسان العرب، مادة نوط)

[٢]– سورة الرعد آية: ٢٣–٢٤.

[٣]– المعري، رسالة الغفران، ص١٧١.

[٤]– كتاب الأجناس: ذكره النديم للأصمعي، هو كتاب في اللغة للأصمعي رتبه على الأجناس أي على الأبواب لا لا على الحروف، (النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالورّاق، الفهرست، تحقيق رضا تجدد بن علي بن زيد العابدين، ص٦١)؛ وبروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبدالحليم النجار، ١٥١/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فَعدّ طِلابَها وتَسَلَّ عنها بناجَيةٍ إذا زُجِرَتْ تُغيرُ

والأخرى أنّه كان يُقدِّم ويُؤخّرُ، فيقول (من الطويل):

لعمريَ غارَ في البلاد وانجدا[١]".

أو يأتي الراوي على لهجة ينتقدها، كما يستشهد عليها بأحاديث للنبي – عليه السلام– يقول: "يا مكبور، يُرَيدُ: يا مجبور، فجعل الجيم كافاً، وهي لُغةٌ رديئةٌ يستعملها أهل اليمن، وجاءني بعض الأحاديث، أنّ "الحارث بن هانئ بن أبي شَمِر بن جَبلة الكندي" اسْتُلْحِمَ يوم "ساباط" فنادى: يا حُكَر يا حُكَرَ –يُريد يا حُجْرَ بن عدي الأدبَر – فعطفَ عليه فاستَنقَذُه. وَيكب: في معنى يجب".[٢]

والمجال الذي اتخذه الراوي في رسالة "الصاهل والشاحج" من حوار على ألسنة الحيوان يتسم بالحرية أيضاً، فالراوي يرسم مشاهد متعددة بجوٍّ رمزي ليتمكن من تصوير حالة المعاناة الخاصّةِ بهِ، فالرمز يمنح إمكانات تأملية فيما يُطلق من نقد ساخرٍ يمسّ الوضع الاجتماعي والسُّلطة.

والراوي في الصاهل والشاحج أولى الشخصيات التي نصادفها، وقد كان دوره مهماً في نسج الأحداث، فلم يقتصر على التعقيب ونقل المشاهد، بل تعداه إلى توجيه الشخصيات كما يشاء، وأخذ بزمام ترتيب دخول الشخصيات الرئيسيّة ممثلة بالشاحج في البداية، والفرعية، الصاهل والجمل والفاختة والثعلب وينص قبل إيراد حديث تلك الحيوانات على أن كلامها بفضل الله وقدرته، يقول في غير مشهدٍ مقدم لحديث الحيوانات المتحاورة:

"ولا يمتنع في قدرة الله أن يَرِدَ فارسُ كُمَيتٍ أو وَرْدٍ، فإذا شرع في غير ذي بَرْدٍ، رَبَطهُ بالكثبِ من المئاب. فيقول الشاحجُ بفضل[٣] الحس"[٤]،وَيقدِرُ اللهُ جلَّ اسمه على أن ينطِقَ الصاهِلَ، فيقول: فيجوز أن ينطق اللهُ البعير فيقول: "فيقدرُ اللهُ سبحانه

---

[١]– المعري، رسالة الغفران ، ص١٧٩–١٨٠.

[٢]– نفسه، ص٢٠١.

[٣]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٩٢. مئاب: مقام المستقي عند فم البئر (الصحاح، مادة مأب)

[٤]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص١٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن ينطقَ الشاحج فيقول[١]: "ويقضي اللهُ سبحانه أن تـردَ الضَّـبعُ، وذلـك بأغبـاش السّـحَرَ لأن الشاحجَ إذا صَخَدت الهاجرةُ وصافَ الزمان باتَ يدأبُ فيما هو فيه"[٢].

وكما كان الـراوي مرتبـاً لـدخول الشخصـيات، واعيـاً للأحـداث، وبـدا مـدركاً للفواصل الزمانية، فغياب الثعلب مُـدة مـن الـزمن ثـم عودتـه يظهـر واضـحاً، يقـول: "فيمضي ثعالة، فيغيب شهراً كَريتاً أو شـهرين، ثـم يجـيء فيسـلّم ويـرد، فيَسْتبشـر بـهِ الشاحج، ويقول إن قضى الله..."[٣]. ولا يقف دوره عنـد هـذا، فهـو المتصـرف بمجريـات الأحداث، يصفها ويُقدم لها، إذ يـتحكم بالمشـاهد وينقلهـا أحيانـاً، يقـول فـي تأكيـد دور الفاخته وسوء تصرفها مع الشاحج:

"والفاختةُ في هذا كلّه واقفةٌ تسمعُ مُناجاة الصـاهل وثنـاءَه عليهـا، وأقـوالَ الشـاحج ونقصَه منها، فتَرفُّ عينُها للصاهل، تَغمِرُ عليه وهـو لا يراهـا، لأنـه معصـوبُ العينـين. وتنطلقُ إلى البعير الواردِ فتعكَسُ ما قال الشـاحجُ فيـه، وتجعـلُ القـولَ الـذي نطـق بـهِ الصاهل من وصفهِ بالجهل، محكياً عن الشاحج، تريد أذاتَـه بـذلك. فتخبـره بمـا قيـل فيـه مِن الصفةِ بقَلةِ اللَّبِّ فتملأُ صَدَرَه من الغضـب والحقـد. حتـى إذا ورد، بَهَـشَ بفِمـهِ بعـد الرَّيِّ إلى جحفلةِ ذلك المسكين فما شَعَرَ حتى أزَمَ بهـا علـى الغِـرّةِ أزْمَـة حَنِـقٍ مغتـاط. وهَدَر في ذلك هَدْرَ المُوعِدِ"[٤].

وثمة عمل آخر يبدو للراوي، يتمثل في تفسـير الاسـتعمالات اللغويـة والعروضـية، يقول: "الكهل: ابن ثمان وعشرين سنة، وقيل: ابن ثلاثين. وأقوال النـاس تختلـف فـي هـذا اختلافاً شديداً. وقد ترَدّد في أخبار النبي، صلى الله عليه وسلم، أنّ شـاباً مـن قـريش فعـل وصنع. وهو المعنيُّ بذلك. ولم يُبعث، صلى الله عليه وسلم، حتى بلغ أربعين سنة"[٥].

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٢٣٤.

[٢]- نفسه، ص ٤٠٩. صخدت الشمس: شق حرها (ابن منظور، لسان العرب،: مادة صخد) صاف: دخل فصل الصيف (نفسه، مادة صيف).

[٣]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٦٠٩.

[٤]- نفسه، ص٢٠٦-٢٠٧. أزم: عض (ابن منظور، لسان العرب، مادة زمم).

[٥]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٥٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول في موطن آخر مستخدماً العروض شارحاً له: "ولو قَرُبَ وهو يريد الحَربَ. وقد مَثّلتُه بالطويل، لأدركته المعاقبة من "السّيد عزيز الدولة" –أعزّ الله نصره– وذلك أن "الخليل" جعل المعاقبة في الطويل سقوط الخامس من السباعي تارة وسقوط السابع أخرى، وأنا أعني بالمعاقبة مصدر: عاقبتُه، من العقوبة"[١].

ويترجم لشخصيات جاء ذكرها في أبيات شعر، كما فعل حين ترجم لبَبَّه: "هو "عبدالله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب" ويقال إن هذهِ الأبيات قالتها أمُّه وهي تَرْقصه وهي "أمُّ عبدالله ابنةُ أبي سفيان بن حرب"".[٢]

كما حاول المعري أن يحيي بعض الألفاظ في الاستعمال، ولم يغب هدفه التعليمي عن ذهنه، لذلك ظهر الغريب بكثرة، بخاصة الذي لم يرد في المعاجم، لتصبح اللغة أداةً ثقافية واجتماعية، تؤدي دورها الخالد في التعبير عن الفكر وصياغة المعاني"[٣]، ومن الأمثلة التي استخدم فيها الراوي غريباً وحاول أن يُفسر له قوله: "إنّ بعض أهل اللغة ذكر أن بول اللبؤة يُسمى الكِظْرِم".[٤]

ومما يدلل على اتخاذ المعري الشاحج قناعاً ليبين حالته النفسية، حين أتى على ذكر الدابة في أرض أبناء أخيه، فالدابة امتداد للشاحج، والشاحج امتداد للمعري، يقول في مقدمة رسالته: "فلا يقنع لها القدر بالأين، حتى يأمر بتخمير العين، فالخطوة من العِبء قصيرة، والعين عمياء بصيرة، وهي في أوقات النّجر يُكفُّ بصرُها عند الفجر، فتنظر إلى القمر دون الشمس، ويومُها في الشّقوة نظيرُ الأمس ... وتمرّ عليها الدَّجالة من الرفاق، فإذا سمعت صوت الحافر هاج عليها طرباً وحزناً".[٥]

ثم إنّ الراوي يختفي وراء الحيوانات المتكلمة، فيمتزج رأيه بآرائها ويتحدّ مع صوتها وخاصّة الشاحج، إذ عرض على لسانه عدداً من آرائه النقدية في الشعر

---

[١]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٥٨٧.

[٢]– نفسه، ص٦١١.

[٣]– عقل، عزت، المنهج اللغوي عند أبي العلاء المعري في رسالتي الصاهل والشاحج، والغفران، ر.ج، الجامعة الأردنية، ١٩٨٩، ص٣٥.

[٤]– المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٣١١.

[٥]– نفسه، ص٩٠. النَّجر: العطش وشدة الشرب (ابن منظور، لسان العرب، مادة نجر)، الدّجالة: الرفقة العظيمة العظيمة (نفسه، مادة دجل).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنثر، فهو ينتقد المتكسبين بالشعر، ويجعلهم متجردين من الحياء، ويربطهم بقبيح الأفعال، فهو يقول على لسان الشاحج:

"فإنّي كرهتُ أنْ أتَصوَّرَ بصُوَرِ أهلِ النظمِ المتكسِّبين الذين لم يَترك سؤالُ الناس في وجههم قطرةٌ من الحَياء، ولا طولُ الطَمع في نفوسِهم أنفةٌ من قبيحِ الأفعال".[١]

وهذهِ الرؤية ظهرت في الغفران ولكن على لسان إبليس الذي اندمج مع الراوي حين انتقد الشعراء وابن القارح لتكسبهم بالشعر، يقول إبليس مظهراً موقف المعري حين سأل ابن القارح عن صناعته، فذكر الأدب:

"فيقول: بئْسَ الصناعةُ! إنها تَهَبُ غُفّةً من العيش، لا يَتّسعُ بها العِيالُ، وإنَّها لمَزَلّة بالقَدَّم، وكم أهلكت مِثْلكَ! فهنيئاً لكَ إذ نجوتُ".[٢]

ثم يردد الراوي رأياً يبين فيه استياءه من الرجز، فهو أضعف الأنواع التي تقوم عليها القصيدة، كما أنَّ الشعر جنس والرجز نوع تحته، وهذا ما يُفسر صراع ابن القارح مع رؤبة في الغفران[٣]، يقول في "الصاهل والشاحج" على ألسنة الحيوانات:

"ولا ريب أنَّ الرَّجزَ أضعفُ من القصيد، فَرؤبة والعجّاج، أضعف في النظام من "جرير والفرزدق".[٤]، ثم يذكر أغراضه في ممارسة الأعمال وحداء الإبل لما فيها من استنهاض للهمم وبثّ للنشاط. [٥]

---

[١]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص٢١٩.

[٢]- المعري، رسالة الغفران، ص ٣٠٩.

[٣]- نفسه، ص٣٧٥-٣٧٧.

[٤]- المعري، رسالة الصاهل والشاحج، ص١٨٨.

[٥]- نفسه، ص٢٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

ظهر في هذه الدراسة أهمية الشخصية بعدّها محوراً أساسياً في تشكيل نص المعري، ويتمثل بها الأبعاد التاريخية، والاجتماعية والنفسية كما ينطلق بها للتعبير عن رؤيته الفكرية.

ومن الشخصيات التي انشغل بها نص المعريّ الحكائي الشخصية الأدبية، وهي شخصية طغت على جلّ أعماله النثرية الحكائية، وقد كانت حية في الغفران، وجعلها بين جنة ونار، وحاكمها وحاكم أدبها، ونظر إليها بطريقة جديدة حين كساها بتفاصيل الماضي، وأسبغ عليها صفات جديدة، وحين جعلها تتحرك ضمن عالم جديد، وهكذا خضعت الشخصية لسياق النص، فكانت عنصراً فعالاً ضمن سياقها قابلة للتأويل.

ولعل شخصية ابن القارح اتخذت مسارها ضمن ذلك العالم، فكان شخصية لا تنغلق ومتجددة وقابلة للتأويل، وتقوم على الاحتمال؛ ذلك أن هاجس المعري تمثل في اتخاذ ابن القارح وسيطاً لدخول عالم الأدباء، وهو كما يرى المعري ليس منهم، ودخيل متطفل على عالمهم، وقد كان إظهار التناقض بين ماضي ابن القارح وحاضره في الجنة ما جعله في مأزق وورطة على أرض الجنة، فشعر بغرابة تصرفه، وبذلك أوصل المعري السخرية إلى ذروتها.

إن سخرية المعري من ابن القارح كانت وسيلة للسخرية من أدباء عصره الذين يتكالبون على فتات القصور ويحيون بالتملق بغية الاستمرار بفضل التكسب، وهكذا فإن ابن القارح كان الممثل للأنساق الثقافية التي درج عليها أدباء ذلك الزمان وكان المعري يأنف من إراقة ماء وجهه أمام أبواب القصور.

ويستمر لهاث الشخصية الاجتماعية في رسالة الصاهل والشاحج فهي وليدة الأحداث وتتفاعل مع المجريات وتواكبها، فقد استقاها المعري من عمق التجربة الإنسانية وأخذها نموذجاً عاماً، وجعلها معطى يمثل الواقع، وتعبّر عن الرؤيا في ظلّ انهيار القيم وهزيمة الإنسان أمام عدو قادم يحيط بهم؛ فظهرت فئات المجتمع في حالة من الفزع والوله في الجفلة، وكان الطفل والمرأة الحلقة الهشة والأشد حساسية أمام

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المحن والمصائب، فالأوضاع تسيّرهم دون أن يقدروا على إيّما شيء فهم دائماً الخاسر الأكبر.

أما أصحاب الحرف والمهن وأصحاب الديانات الأخرى فقد كان لوقع سماع غزو الروم عظيم الأثر، فولوا هاربين دون حول أو طول، وقد ركز المعري على مشاهد الهرب، وهي تتصف بأنها جلد للآخر، وتثير في الوقت نفسه الضحك الأليم، وكأن الضحك استجابة سريعة للألم، فالمعري يستشعر شذوذهم في هربهم وإقبالهم بنهم على الحياة.

ومن الشخصيات الاجتماعية أصحاب الملل والمدعين والزنادقة وقد انتشروا بكثرة وهم مرآة تعكس الواقع المريض، والتلاعب بالشرائع؛ إذ كانوا يستبدون بقوة إدعاء المعرفة للوصول إلى المال، ويختفي وراء هؤلاء الطغاة من الحكام الذين يستغلون المجتمع ويستخفون بعقولهم وينتفعون بذلك.

ولم يكن وضع الجارية أفضل، إذ تكونت صورة سلبية لها في وعي المعري فبدت فاسدة مفسدة، وتصرفها بعيد عن الحياء، وعدّها سبباً رئيسياً في تداعي الأخلاق.

وبعيداً عن هؤلاء، وامتداداً لواقع المعري الأعمى في رسالة الأخرسين والقائف، فقد ظهرت فئات مستلبة تعاني فقد بعض حواسها كالأعمى والأخرس، ورأى أن الفقر والحرمان محاط بالعوز والحاجة، ولغز من ذلك إلى السلطان وضرورة تخصيص جزء من مال الدولة لهؤلاء المعوزين حتى لا يضطروا إلى الوقوف على الأبواب والاستجداء.

وحينما هيمنت التناقضات وسادت، جعل المعري من الشخصية الرمزية ممثلاً حقيقياً إلى استمرارية الحضور الإنساني، وواكب نثره جميع الأنماط للشخصية، التي كانت انعكاساً للسلطة، وتتباين مواقف الشخصيات تبعاً للحدث الذي تناوله المعري.

وقد كشفت شخصية الشاحج – التي تعدّ امتداداً حقيقياً لشخصية المعري– والثعلب عن الفتن بين القادة المسلمين، وتزايد الأطماع على السلطة مع ميل خفي من الحيوانات المتحاورة إلى ملاطفة عزيز الدولة ومصانعته.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبـــدت شخصـــيات المعـــري متفاعلـــة مـــع الأحـــداث الخارجيـــة، واختفـــت وراء المصائب والمحن التي حلت بالمسلمين قضايا عـــدة، ظهـــرت فـــي أثنـــاء حـــديث الصـــاهل والشاحج الذي ترفع بنسبه عن مخاطبة من هم دونه طبقـــة ونبهـــتهم إلـــى الخطـــر الكـــامن في الفتن والعصبية وآثار تلـــك الخصـــومة، كمـــا دعـــا الشـــاحج والثعلـــب بطريـــق غيـــر مباشرة إلى التعاون ونبذ الفرقة وتوحيد الجهود.

كما قامت على التلغيز بطرف خفي إلـــى خضـــوع العامّـــة دون تفكيـــر، فنشـــأ عـــن ذلك تفرقهم، فخشي المعري عليهم من الفتنة مبيناً عواقبهـــا الوخيمـــة، لـــذلك جـــاءت أهميـــة عنوان "الصاهل والشاحج" إذ ارتبطت الشخصـــيات بدلالـــة الصـــوت وهـــي دعـــوة تنبهيـــه إشارية منه (المعري) لضرورة عدم تصديق كل ما يقال.

وقد عرض المعري للشخصـــية العجيبـــة وكانـــت تلـــك الشخصـــية انعكاســـاً حقيقيـــاً للتمرد على واقع الزمن ومحاولة للهـــروب، وانتقلـــت مـــن مســـاره، اضـــافة إلـــى أن تلـــك الشخصيات وسيلة أخرى لنقد الواقع المتأزم كما في شخصية المـــرأة المتحولـــة التـــي تمثـــل ود الجواري المصطنع.

ولا يهدأ المعري، فنجده يعبّر عـــن أزمـــة علمـــاء الصـــرف فـــي رســـالة الملائكـــة، والمعري فيها الشخصية الأساســـية، وقـــد اســـتطاع بتلـــك الرســـالة أن يقـــدم رؤيـــة تتســـم بالعمق والشمول، وقد سار في جو أشبه ما يكون بالحلم، فبـــدا ثـــائراً متمـــرداً رافضـــاً لكـــل ما يحيط به من مظاهر الخلاف والتخاذل والاضطراب.

فضلاً عن تعدد الشخصـــيات الفرعيـــة فـــي الـــنص الحكـــائي المعـــري لا توجـــد إلا شخصية محورية واحدة في كل عمـــل حكـــائي تـــدور حولهـــا الأحـــداث، وقـــد تضـــافرت عناصر السرد في الكشف عن بنـــاء الشخصـــية، فظهـــر بنـــاء الشخصـــية بـــالتركيز علـــى الملامح الخارجية لها، وقد نجح هذا الرســـم الـــدقيق لغيـــر شخصـــية فـــي إعطـــاء صـــورة متكاملة عن مظهرها الخارجي وشكلها، كما كانـــت وســـيلة المعـــري للكشـــف عـــن أعمـــاق الشخصية النفسي والفكري، وقد تعرض لوصـــف الشخصـــية الجســـدي الخـــارجي ممتزجـــاً مع الداخلي النفسي فجاء الوصف غنياً بالحركة والتلمـــيح. وقـــد لجـــأ المعـــري إلـــى ســـبر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أغوار الشخصيات واستقراء دواخلهم وأفكارهم بأسلوب البناء الـــداخلي، وهـــو بهـــا يكشـــف عن أفكارها وما يعتمل في نفسها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المصادر والمراجع

إبراهيم، عبدالله (٢٠٠٠). **السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي)**، ط٢، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري ، (ت ٦٣٠هـ)، **الكامل في التاريخ**، (تحقيق أبي الفداء عبدالله القاضي)، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.

ابن أبي أصيبعة، موفق أبو العباس أحمد بن القاسم، (ت ٦٦٨هـ)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٧.

أرسطو، طاليس، (١٩٨٠). **فن الشعر**، (ترجمة: عبدالرحمن بدوي)، بيروت: دار الثقافة.

إسماعيل، محمد عماد الدين، (١٩٥٩). **الشخصية والعلاج النفسي**، ط١، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين(ت٣٥٦هـ)،**الأغاني**، (تحقيق عبدالستار أحمد فراج)، ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨، ١٩٥٩، ١٩٦٠.

الأعشى الكبير، أبو بصير بن قيس (ت ٧٠هـ)، **ديوان الأعشى الكبير**، م. محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، مصر، ١٩٥٠.

ألين، أوليتبرند، ، ولويس ليزلي، (١٩٨٣). **الوجيز في دراسة القصص**، (ترجمة عبد الجبار المطلبي)، بغداد: منشورات دار الشؤون الثقافية.

أمبيريك، أحمد بن محمد، (١٩٨٦). **صورة بخيل الجاحظ الفنية**، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

أنس الوجود، ثناء، (١٩٨٤). **رمز الأفعى في التراث العربي**، القاهرة: مكتبة الشباب.

بارت، رولان، (١٩٩٣). **مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص**، ط١، (ترجمة منذر عياش)، حلب: مركز الإنماء الحضاري.

بحراوي، حسن، (١٩٩٠). **بنية الشكل الروائي**، ط١، بيروت: المركز الثقافي العربي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بروكلمان، كارل، (د. ت). **تاريخ الأدب العربي**، ط١، (ترجمة عبدالحليم نجار)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

البكري، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي (ت ٤٨٧هـ). **سمط الآلئ**، (تصحيح عبدالعزيز الميمني)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢.

بنكراد، سعيد، (٢٠٠٣). **سيمولوجية الشخصيات الروائية (رواية الشراع والعاصفة نموذجاً)**، عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.

بورنوف، رولان، وريال أوئيليه ، (١٩٩١). **عالم الرواية**، (ترجمة نهاد التركي)، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ). **شرح القصائد العشر**، (علق عليه السيد محمد الخضر)، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ١٩٨٠.

تودوروف، تزفتيان، (١٩٩٤). **مدخل إلى الأدب العجائبي**، ط١، (ترجمة الصديق بو علام)، القاهرة: دار شرقيات.

الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد النيسابوري (ت ٤٢٩هـ)، **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥.

ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى الشيباني (ت ٢٩١هـ)، **مجالس ثعلب**، ط٤، (تحقيق عبدالسلام هارون)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني (ت ٢٥٥هـ). **الحيوان**، ط١، (تحقيق عبدالسلام هارون)، مكتبة مصطفى البابي، القاهرة، ١٩٣٨.

جدعان، فهمي، (١٩٨٥). **نظرية التراث**، ط١، عمان: دار الشروق.

جرير، ابن عطية اليربوعي (ت ١١٠هـ). **ديوان جرير**، (شرحه وعلق عليه يوسف عبيد)، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.

الجمحي، أبو عبدالله محمد بن سلام (ت ٢٣١هـ). **طبقات الشعراء**، ط١، (شرحه محمود محمد شاكر)، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٠.

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ). **الإصابة في تمييز الصحابة**، (تحقيق علي محمد البيجاوي)، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الظاهري (ت ٤٥٦هـ). **جمهرة أنساب العرب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

حسان بن ثابت، أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصاري (ت ٥٤هـ). **شرح ديوان حسان بن ثابت**، (تحقيق عبدالرحمن البرقوقي)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥١.

حسين، طه، (١٩٢٢). **تجديد ذكرى أبي العلاء**، ط٧، مصر: دار المعارف.

_____. (١٩٣٩). **مع أبي العلاء في سجنه**، ط٤، مصر: دار المعارف.

_____. (١٩٤٤). **تعريف القدماء بأبي العلاء**، ط٣، (جمع وتحقيق: مصطفى السقا، وعبدالرحيم محمود، وعبدالسلام هارون، وإبراهيم الإبياري، وحامد عبدالمجيد)، القاهرة: دار الكتب.

الحطيئة، أبو مليكة جرول بن أوس العبسي (ت ٤٥هـ). **ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت والسكري والسجستاني**، (تحقيق نعمان أمين طه)، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٥٨.

الحمصي، محمد طاهر، (١٩٨٦). **مذاهب أبي العلاء في اللغة وعلومها**، دمشق: دار الفكر.

الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ). **معجم البلدان**، (تحقيق عبدالعزيز الجندي)، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠.

_____. **معجم الأدباء**، (تحقيق إحسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣.

حنفي، حسن، (١٩٩٢). **التراث والتجديد**، ط١، بيروت: دار التنوير.

الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ). **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠.

الخطيب، عبدالكريم، (١٩٨٠). **رهين المحبسين أبو العلاء المعري (الإيمان والإلحاد)**، ط١، الرياض: دار اللواء للنشر والتوزيع.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ). **وفيات الأعيان**، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خناري، علي كنجيان، (٢٠٠١). **مصادر ثقافة أبي العلاء المعري من خلال ديوان لزوم مالا يلزم**، ط١، القاهرة: الدار الثقافية للنشر.

الخنساء، تماضر بنت عمرو (ت ٤هـ). **ديوان الخنساء**، (تحقيق عمر فاروق الطباع)، دار القلم، بيروت، ١٩٨٠.

داود، عزيز حنا، (١٩٩١). **الشخصية بين السواء والمرض**، ط١، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

درويش، أحمد، (١٩٩٨). **تقنيات الفن القصصي (عبر الراوي والحاكي)**، الجيزة: الشركة المصرية العالمية.

الراجكوتي، عبدالعزيز الميمني، (١٩٨٣). **أبو العلاء وما إليه**، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية.

رزق، صلاح، (١٩٨٥). **نثر أبي العلاء (دراسة فنية)**، ط١، القاهرة: دار الثقافة العربية.

رشدي، رشاد، (١٩٧٥). **فن القصة القصيرة**، ط١، بيروت: دار العودة،.

ابن رمضان، فرج، (٢٠٠١). **الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس**، تونس: دار محمد علي الحامي.

روبي، ألفت كمال، (١٩٩٤). تحول الرسالة وبزوغ شكل قصصي في رسالة المعري رسالة الغفران، **فصول**، م٣، ع٣، القاهرة.

الزعبي، أحمد (١٩٩٥). **التناص نظرياً وتطبيقياً**، إربد: مكتبة الكتابي.

زيدان، عبدالقادر، (١٩٨٦). **قضايا العصر في أدب أبي العلاء المعري**، مصر: الهيئة العامة المصرية للكتاب.

السامرائي، إبراهيم، (١٩٨٤). **مع المعري اللغوي**، بيروت: مؤسسة الرسالة.

_____. (١٩٩٩). **دراسات في تراث أبي العلاء المعري**، ط١، عمان: دار الضياء.

السعافين، إبراهيم، (١٩٨٧). **أصول المقامات**، ط١، بيروت: دار المناهل.

سعد الدين، ليلى حسن، (١٩٨٩). **كليلة ودمنة في الأدب العربي (دراسة مقارنة)**، عمان: دار البشير.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سعفان، كامل، (١٩٩٣). **في صحبة أبي العلاء بن التمرد والانتماء**، ط١، القاهرة: دار الأمين.

سفيان، نبيل، (٢٠٠٤). **المختصر في الشخصية والإرشاد النفسي**، ط١، مصر: اتيرل للنشر والتوزيع،.

ابن سعيد المغربي، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى (ت٦٨٥هـ). **المغرب في حلى المغرب**، (تحقيق شوقي ضيف)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٣.

سلام، أبو الحسن، (٢٠٠٤). **الظاهرة الدرامية الملحمية في رسالة الغفران**، ط١، الإسكندرية: دار الوفاء.

سلامة، يسرى محمد، (د. ت). **النقد الاجتماعي في آثار المعري**، مصر: دار المعرفة الجامعية.

السيوطي، الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ). **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، (تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا)، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤.

الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٣٩٩هـ). **الديارات**، ط٢، (تحقيق كوركيس عواد)، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٦.

شكر، شاكر هادي، (١٩٨٥). **الحيوان في الأدب العربي**، ط١، عالم الكتب، بيروت: مكتبة النهضة العربية.

شكري، غالي، (١٩٧٣). **التراث والثورة**، ط١، بيروت: دار الطليعة.

الشنفرى، عمرو بن مالك الأزدي (١٠٠ق.م). **ديوان الشنفرى ويليه السليك بن السلكة عمر بن براق**، (دراسة طلال حرب)، الدار العالمية، بيروت، ١٩٩٣.

الصميلي، حسن، (١٩٩٦). **الرواية المغربية (أسئلة الحداثة)**، الدار البيضاء: دار الثقافة.

الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى (ت ١٧٨هـ). **المفضليات**، ط٦، (تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، عبدالسلام هارون)، بيروت، لبنان.

ضيف، شوقي، (١٩٤٦). **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، ط٦، القاهرة: دار المعارف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطباع، عمر أنيس، (١٩٥٣). **عبقرية الخيال في رسالة الغفران**، بيروت: مطابع دار الكشاف.

الطويلي، أحمد، (١٩٨١). **رهين المحبسين أبو العلاء المعري**، ط١، تونس: دار سلامة للنشر والتوزيع.

عبدالله، عدنان خالد، (١٩٨٦). **النقد التطبيقي التحليلي**، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

عبدالحكيم، شوقي، (١٩٨٢). **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، بيروت: دار العودة.

عبدالحميد، علي عبدالمنعم، (١٩٧٩). **النقد الأدبي**، طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع.

_____(١٩٩٤). **النموذج الإنساني في أدب المقامة**، ط١، بيروت: الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان).

عبدالحميد، يونس، (١٩٨٣). **معجم الفلكلور**، ط١، بيروت: مكتبة لبنان.

عبدالرحمن، عائشة، (١٩٦٢). **الغفران لأبي العلاء المعري (دراسة نقدية)**، مصر: دار المعارف.

_____ (١٩٦٥). **أبو العلاء المعري**، مصر: المؤسسة المصرية العامة.

_____ (١٩٧٢), **جديد في رسالة الغفران نص مسرحي من القرن الخامس الهجري**، بيروت: دار الكتاب العربي.

عبدالرحمن، محمد السيد، (١٩٩٨). **نظريات الشخصية**، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

عبدالسلام، فاتح، (١٩٩٩). **الحوار القصصي وعلاقاته السردية**، بيروت: المؤسسة للدراسات والنشر.

عبدالقادر، حامد، (١٩٥٠). **فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره**، ط١، القاهرة: مطبعة لجنة دار البيان العربي.

عبدالمهدي، عبدالجليل، (١٩٧٧). **الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس**، ط١، عمان: مكتبة الأقصى.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عثمان، عبدالفتاح (١٩٨٢). **بناء الرواية (دراسة في الرواية المصرية)**، القاهرة: مكتبة الشباب.

ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم عمر بن هبة الله(ت ٦٦٠هـ). **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، ط١، (عني بنشره وتحقيقه ووضع فهارسه سامي الدهان) المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥١.

عقل، عزت، (١٩٨٩). **المنهج اللغوي عند أبي العلاء المعري في رسالتي الصاهل والشاحج والغفران**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.

العلواني، مصطفى، (١٩٨٤). رسالة الملائكة للمعري، **مجلة التراث العربي**، اتحاد الكتاب العرب، نيسان وتموز، ع١٥-١٦، دمشق.

العلي، عدنان عبيد، (١٩٩٩). **المعري في فكره وسخريته**، عمان: دار أسامة.

الغانمي، سعيد، (١٩٩٠). **أقنعة النص**، ط١، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

غزول، فريال، (١٩٩٤). قصص الحيوان بين موروثنا الشعبي وتراثنا الفلسفي، **فصول** ، م١٣ع٣، القاهرة.

فراج، عثمان لبيب، (١٩٧٠). **أضواء على الشخصية والصحة العقلية**، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية،.

الفردوسي، أبو القاسم منصور (ت ٤١١هـ). **الشاهنامة (ملحمة الفرس الكبرى)**، ط٤، (ترجمة سمير المالطي)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٦.

فضل، صلاح (١٩٨٥). **تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي**، القاهرة: دار المعارف.

فورستر، أ. م، (١٩٩٤). **أركان الرواية**، ط١، (ترجمة موسى عاصي)، طرابلس: جروس بروس.

الفيروزأبادي، مجد الدين أبو الظاهر محمد بن يعقوب الشيرازي، (ت٨١٧هـ). **القاموس المحيط**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.

قاسم، سيزا، (١٩٩٤). **بناء الرواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ)**، القاهرة: الهيئة المصرية العالمية للكتاب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القاضي، محمد، (١٩٨٨). **الخبر في الأدب العربي (دراسة في السردية العربية)**، تونس: كلية الآداب.

القاضي، محمد، (١٩٩٩). جدلية النص السردي في رسالة للمعري، **علامات في النقد**، م٣١، ع٢.

القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم (ت٣٥٦هـ)، **الأمالي**، ط١، لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٧.

القباني، حسين، (١٩٦٥). **فن كتابة القصة**، القاهرة: المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر.

ابن قتيبة، محمد بن عبدالله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ). **الشعر والشعراء**، (تحقيق أحمد محمد شاكر، عيسى البابي الحلبي وشركاه)، القاهرة، ١٣٦٩هـ.

القفطي، جمال الدين أبو الحسن بن يوسف (ت ٦٢٤هـ). **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠.

ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ). **البداية والنهاية**، ط٣، (تحقيق أحمد أبو ملحم وعلي نجيب عطوي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧.

الكلاعي الإشبيلي، أبو القاسم محمد بن عبدالغفور(ت ٥٤٥هـ). **إحكام صنعة الكلام**، (تحقيق: محمد رضوان الداية)، عالم الكتب ، بيروت، ١٩٨٥.

كنعان، شلوميت ريمون، (١٩٩٥). **التحليل القصصي والشعرية المعاصرة**، (ترجمة لحسن احمامة)، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع.

الكيالي، سامي، (١٩٩٤). **المهرجان الألفي لأبي العلاء المعري**، ط٢، بيروت: دار صادر.

لحمداني، حميد، (١٩٩٤). **بنية النص من منظور النقد الأدبي**، ط١، بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي.

لودج، ديفيد، (٢٠٠٢). **الفن الراوئي**، (ترجمة ماهر البسطومي)، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

الماضي، شكري، (١٩٩٦). **فنون النثر العربي الحديث**، ط١، منشورات جامعة القدس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المجني، محمد أمين بن الفضل (ت ١١١١هـ). **قصد السبيل فيما في اللغة العربية من الدخيل**، مكتبة التوبة، الرياض، ١٩٩٤.

مجنون ليلي، قيس بن الملوح العامري (ت ٦٨هـ). **ديوان مجنون ليلى**، دار القلم، بيروت، ١٩٩٤.

مرتاض، عبدالملك، (١٩٨٩). **ألف ليلة وليلة (دراسة سيمائية تفكيكية لحكاية حمال بغداد)**، ط١، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.

مريدن، عزيزة، (١٩٨٠). **القصة والرواية**، ط١، دمشق: دار الفكر.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ). **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ط١، (تحقيق عبدالأمير مهنا)، دار الكتب العلمية بيروت، ١٩٩١.

مصطفى، إبراهيم، و عبدالحليم منتصر، و عطية الصالحي، و محمد خلف الأحمد، (١٩٧٢). **المعجم الوسيط**، ط٢، مصر: دار إحياء التراث العربي.

المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدالله (ت٤٤٩هـ). **اتحاف الفضلاء برسائل أبي العلاء**، (دراسة محمد عبدالرزاق، ومحمد عبدالحكيم)، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٩.

_____. **رسائل أبي العلاء المعري**، (تحقيق عبدالكريم خليفة)، منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، عمان، ١٩٧٦.

_____. **رسائل أبي العلاء المعري**، (تحقيق إحسان عباس)، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٩.

_____. **رسالة التعزية لأبي علي بن أبي الرجال في ولده أبي الأزهر**، ط١، (تحقيق إحسان عباس)، دار الفكر العربي، ١٩٦٣.

_____. **رسالة الصاهل والشاحج**، ط٢، (تحقيق عائشة عبدالرحمن)، دارالمعارف، القاهرة، ١٩٨٤.

_____. **رسالة الغفران**، ط٦، (تحقيق عائشة عبدالرحمن)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧.

_____. **رسالة الملائكة**، (شرح وتحقيق لجنة من العلماء)، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

_____. **رسالة الهناء**، ط٣، (شرح وتحقيق كامل الكيلاني)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢.

_____. **الفصول والغايات في تمجيد الله والمواعظ**، (ضبطه محمود حسن زناتي)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، -١٩٨.

_____. **لزوم مالا يلزم**، (حرره وشرح تعابيره كمال اليازجي)، دارالجيل، بيروت، ١٩٩٢.

_____. **زجر النابح (مقتطفات)**، (تحقيق أمجد الطرابلسي)، مطبوعات مجمع العربية، دمشق، ١٩٦٥، ١٩٨٢.

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ). **لسان العرب**، بيروت: دار صادر.

المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت١٠٤١هـ). **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، (تحقيق إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨.

الموسوي، محسن جاسم، (١٩٩٧). **سرديات العصر العربي الإسلامي الوسيط**، الدار البيضاء: منشورات مركز الإنماء.

موير، إدوين، (١٩٦٥). **بناء الرواية**، (ترجمة إبراهيم الصيرفي)، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والنشر.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن حمد (ت ٥١٨هـ). **مجمع الأمثال**، (تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد)، بيروت: دار المعرفة.

النابلسي، شاكر، (١٩٩٤). **جماليات المكان في الرواية العربية**، ط١، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للكتاب.

النجار، محمد رجب، (١٩٩٥). حكايات الحيوان في التراث العربي، **عالم الفكر**، م٢٤، ع١ +٢.

نجم، محمد يوسف، (١٩٥٩). **القصة في الأدب العربي**، ط٣، بيروت: دار الثقافة.

النصير، ياسين، (١٩٨٦). **إشكالية المكان في النص (دراسة نقدية)**، ط١، بغداد: دار الشؤون الثقافية.

هلال، محمد غنيمي، (١٩٨٣). **النقد الأدبي الحديث**، بيروت: دار الثقافة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

همفري، روبرت، (١٩٧٥). **تيار الوعي في الرواية**، (ترجمة محمود الربيعي)، مصر: دار المعارف.

الهنداوي، خليل، (١٩٦٠). بين المعري في رسالة الغفران، ودانتي في الكوميديا الإلهية، **مجلة العربي**، ع ٢٣، الكويت.

الواد، حسين، (١٩٧٧). **البنية القصصية في رسالة الغفران**، ليبيا، تونس: الدار العربية للكتاب.

الوسلاتي، البشير، (١٩٩٧). القص في أخبار الفرج بعد الشدة، **مجلة حوليات**، ع٤١، الجامعة التونسية، تونس.

ابن وهب الكاتب: أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان (ت ٣٣٥هـ). **البرهان في وجوه البيان**، ط١، (تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي)، طبعة بغداد، بغداد، ١٩٦٧.

وهبة، مجدي، وكامل المهندس، (١٩٨٤). **معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب**، بيروت: مكتبة لبنان للطباعة والنشر.

ويليك، رينيه، وواين أوستن،(١٩٧٢). **نظرية الأدب**، (ترجمة محيي الدين صبحي، مراجعة حسام الخطيب)، دمشق.

ابن هشام الأنصاري، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف (ت٧٦١هـ)، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، (تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

اليظي، صالح، (١٩٩٤). **شاعرية أبي العلاء المعري بين الفكر والفن**، مصر: جامعة الإسكندرية.

يقطين، سعيد، (١٩٩٧). **قال الراوي، البنيات الحكائية في السيرة**، ط١، بيروت، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

BUILDING CHARACTER IN THE PROSE OF AL-MA'RIE

BY

Fatima Hassan Al-Sarahneh

Supervisor

Dr. Jaser Abu Safia, Prof

ABSTRACT

This study aimed at reading charatcter prose of AL-Ma'rei in the models introducing the artistic nature of its building.

This study included an introduction, preliminary, and two chapters. The introduction included purpose of the study, Methoday, Significance, objectives to be achived and review of related literature. The preliminary studied the concept of character and its building going lightly through the literary character in the Abbassy era, indicating political and social situations which caused AL-Ma'rie era to came to the extent, without ignoning personal situations which has deeply affected his literature as a whole.

The first chapter included four sections, all of them studied carefully the models of characters included in AL-Ma'ries literatures and organized the character with analysing studying and criticism under clear titles: Literary, social, sympolic and wondrous characters.

The second chapter included, the building of character in AL-Ma'rie narrative prose, methods of its building, introducing its relation to the narrator and the role of narration on it.

The study concluded that character in AL-Ma'rie narrative prose is the result of the environment and the era filled of contradiction, that AL-Ma'rie managed by using his narrative prose to produce his own vision exploring his own character which is the base of his view.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit